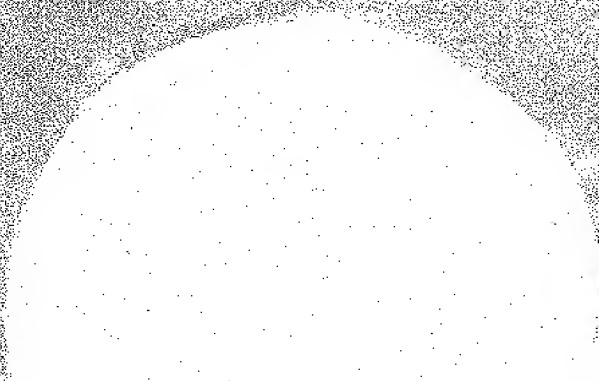


أحمد بن محمد



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

اهداءات ٢٠٠٢

١/ حسين كامل السيد بكه قنصمى

الاستاذية

بحار  
الحب  
عند  
الصوفية



أحمد بهجت



مؤسسة المعارف  
للطباعة والنشر

## حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م  
الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

الغلاف للفنان خلف طايح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





## وقفة امام صورة

اذا وقفت روى امام البحر .. احسست اننى اقف امام كفاء لى ..  
فالبحر - كما يقولون هرمان ملفيل - ارض غفل ازلية مجهولة الهوية ،  
والانسان هو الآخر ارض مجهولة الهوية ، ولا احد يعرف - سوى الله  
تعالى - هل تنتمى هذه الروح باليلاد لعذوبة الحبيب ، ام انها ابنة شرعية  
لوهج النار ..

وفى الانسان وداعة تتبدى فى البحر سطحا ازرق .. غير ان وراء هذه  
الوداعة قوة تدمر هائلة .. واى قطرة من المياه تسقط بانتظام على صخرة ،  
تستطيع ان تثقب الصخرة بقوة لا تستطيعها رصاصة تنطلق من سلاح ..

وكثيرا ما سحق البحر بثورته آلاف السفن منذ بدء الخليقة الى اليوم ،  
ومع ذلك ، فان تكرار هذه الامور جعل الانسان يفقد احساسه برهبة البحر  
وقوته ، تلك الرهبة التى تقترن باسم البحر منذ بدء البدء ..

ايضا يفقد الانسان احساسه بالرهبة التى تعيش داخله لانها تعيش  
داخله .. يعتاد عليها كما يعتاد على التنفس ، ومع الوقت يشى انه  
تتنفس ..

وأول سفينة قرأنا عنها كانت تسبح على صدر طوفان ولد من دعوة  
نبي غاضب ، وقد أفرق هذا الطوفان عالما بأكمله ، لم يترك عينا تطرف  
أو حياة تتردد ..

« وفتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى  
الماء على أمر قد قدر » ..

ولقد نسى المعاصرون هذا الطوفان القديم .. رغم أنه لم يزل يهدر الى  
اليوم ، وهو الذى حطم سفن هذا العام وسفن العام المنصرم ، هذه هى  
الحقيقة ..

أيها الأحياء الحتمى .. ان طوفان نوح لم يتوقف .. وما زال يغطى  
أربعة أخماس هذا العالم الجميل ..

نحن نعيش على الأرض .. نتصور أننا نعيش على أرض ..

وحقيقة الأمر ان الانسان يعيش على الماء .. فى جزر وسط الماء .  
قارات الدنيا وطرقها وبلادها ومدنها وقراها كلها جزر صغيرة ضئيلة وسط  
موج لا يكف عن لطم الشاطئ .

وحين التقطت سفن الفضاء صورة للكرة الأرضية ، لم ينتبه احد منا  
الى ان الكرة الأرضية ليست أرضية ..  
انما هى كرة مائية ..

ظهرت زرقاء فى الصور الفلكية .. لأن الغلبة الأرض مياها ، وهى أغلبية  
ساحقة تتيج للبحار ان تفوز فى أى انتخابات بينها وبين الأرض ..

أربعة أخماسها مياها .. والخمس الباقى هو المعارضة ..

ورغم ان أهل الأرض يتعصبون للأرض ، وأحياء المياه يعصبون للماء .  
ويهلك أبناء الأرض لو سقطوا فى الماء ، وتحتضر خلائق المياه لو حرق الى  
الأرض ..

رغم هذا فان هناك تفرقة ظالمة بين الأرض والبحار .

لماذا تعد المعجزة في الأرض معجزة وتفقد اسمها في البحر ؟ لقد انشقت الأرض أمام قورح وجنوده وابتلغتهم إلى الأبد ، وصرخ المبرانيون أمام المعجزة ، وتنشق المياه كل يوم وتبتلع سبينة فلا يقول الناس عما حدث انه معجزة .. ليست قوة البحر معجزة .. ليس غضبه معجزة ..

تأمل البحر حين يثور ، عبثا تسال عن رحمته او ترجوه ضبط انفاسه ، انه يغمر الأرض لاهثا ناخرا كأنه جواد حرب هائج مجنون تجندل عنه فارسه ..

ثم .. ها هو الفارس يعود لامتطاء جواده بعد ان بعثته الرياح الشرقية من الموت ..

وها هو البحر الغاضب المهول يتحول الى طفل نالغ الوداعة .. وتحول امواجه الثائرة من افواه مفتوحة للموت .. الى سطور من ابيات شعر زرقاء تقبل اقدام الشاطئ ..

واحيانا تنصرف مشيئة الله تعالى الى شيء يتصل بالبحر ..

ويطيع البحر قوانين لا ندري عنها شيئا ، وتنشق مياهه عن طريق مفاجيء يسير فيه موسى مع بنى اسرائيل .. ثم يتذكر البحر انه قد نسى شيئا فيعود لاحتضاره ، ويلتئم على جيش فرعون وجنوده ..

مع .. كلما راد تأمل الانسان في البحر زاد احساسه بدهاء البحر ومكره .. معظم مخلوقات البر تدب فوق البر ظاهرة للعيان مكشوفة واضحة ..

اما البحر فبالغ الدهاء .. ومعظم وحوشه المخيفة تنساب تحت الماء ، غير ظاهرة في معظم الاحيان ، مستخفية استخفاء الماكر الرواغ تحت أجمل الالوان الوديمة الزرقاء ..

هل يحاكي البحر الانسان في دهائه .. ام ان الانسان تعلم دهائه من البحر . لا احد يعرف ..

بوصفنا من البشر سوف نشهد للبشر .. وان كانت الحميفة سنظل محولة رغم هذه الشهادة ..

ليس الانسان هو المخلوق الذى تتأمل صفحة وجهه الجميل وتنظر  
في عينيه الهادئتين ولا تعرف انه سيفرس خنجره في ظهرك حين تعطيه  
ظهرك ..

هذا المكر مدين بمولده للبحر الكامن في روح الانسان ..

لا نريد ان نطيل وقوفنا امام البحر ..

فقط نريد ان نتأمل البحر .. ونتأمل هذه الارض الخضراء الوديمة  
الطيبة التى تحيط به من كل جانب ..

تأملهما كليهما .. البحر والبر ..

الا ترى فيهما شيئا غريبا لشيء مستغر في نفسك ..

مثلا يحف هذا المحيط المهل بهذا البر الاخضر .. كذلك تنطوى روح  
الانسان على جزيرة حافلة بالسلام والبهجة ، جزيرة تحيطها مربعات هذه  
الحياة الفامضة المروعة ..

رماك الله ..

لا تغادر تلك الجزيرة فانك ان غادرتها فلن تعود اليها ابدا ..

.....

## وقفة امام البحر

اعرف ان الانسان هو المخلوق الذى يستمتع الى النصالج ولا يلتزم  
بها . ومهما يكن من امر ، فان البحر العظيم الذى كنا نتأمله منذ لحظات .  
ليس في حقيقته الا صورة للبحر ..

الانسان هو البحر الحقيقى ..

حين يحب الاسار .. يحول الى حفيفه البحر

معطى ظهورها للصورة وتتأمل الأصل ..

تأمل بحار الحب عند الصوفية ..

لماذا اخترت كلمة البحار تعبيراً عن الحب .. هل هو الولع بالاسرار  
الكامنة في مياه البحر .. اليس الماء اصل كل شيء حتى ..

.....

قبل ان يبدأ البدء او يكون الكون ..

قبل ان تصفع الشمس ظلالها على الارض ..

قبل ان تخلق الارض من انفجار كوني او ابتسامة كونية نتيجة امر  
يتألف من حرفين ..

قبل اي قبل ..

كان الله ولا شيء مع الله ولا شيء قبله ..

كيف كان ..

اين كان ..

افضل ان نذيب الاسئلة في خشوع ماء يترجرج موجه بالسجود ..  
« وكان عرشه على الماء » .

سبحانه وتعالى ..

كيف كان عرشه ..

هذا سر سكنت عنه الحق ..

اين كان عرشه ..

هذا سر اجاب عنه الحق فزاد السر ولم ينقص ولم ينكشف « وكان  
عرشه على الماء » ..

اي ماء .. اين كان هذا الماء ..

اسرار وراء اسرار ..

.....

الشاطيء اسرار ..

وبحار الحب عند الصوفية اسرار ..

والصوفية اهل عطش الى الحقيقة .. والحقيقة كائنة في الماء وحيانا يكتب العارفون كلماتهم على الماء .. وحيانا يسير رجال على الماء ويهلك من العطش رجال افضل منهم ..

امر محير حقا ، ولكنه لا يستوجب اهدار المحاولة ..

قبل ان ننشر اشرفتنا البيضاء ونبحر في بحار الحب ، نريد ان نعبر نهرا صغيرا متقلبا .. هو هذا الجدل حول الصوفية ..

يعتقد البعض ان التصوف كلمة لا علاقة لها بالاسلام .. كلمة دخيلة على الاسلام .. ويرى البعض ان التصوف بمعنى الصفاء في حب الله هو لب

الاسلام .. ومثلما يقف البعض من التصوف موقف العدا والحد والتشكك والرفض ، يراه البعض غاية سير السائرين ومقصد امل العابدين ..

ولكل فريق حجته واسلوبه في اثبات وجهة نظره ..

ننظر في اوراق الفريقين قبل ان نقطع برأى ويستبد بنا اعجابنا بهذا الرأي على امتداد التاريخ الاسلامي ..

نسب العدا بين الصوفية وغيرهم من الفرق .. وتجادلوا كثيرا واختلفوا كثيرا ..

من اعداء الصوفية علماء الكلام ، فقد رفع علماء الكلام رايات العقل ، على حين رفع الصوفية شعار القلوب والاسرار ..

من اعداء الصوفية اهل الظاهر ، وهؤلاء هم الذين يلتزمون بتصوص الآيات ويقفون عندها فلا يتزحزون ، والاصل انهم ينزلون الى ظاهر الأشياء - وياخذون بظاهر الآيات ، لان القوس فيما وراء ذلك ليس في امكان الانسان ، لان السرائر والقلوب والتوايا والخفايا اسرار لا يطلع عليها غير الله ..

اما الصوفية فقالوا انهم يدعون اهل الظاهر في المياه الآمنة ، وسيمضون  
هم في البحار غوصا وبحثا عن كنوز القبا . .

من امداء الصوفية اهل الشريعة أحيانا ، ويسمى الصوفية انفسهم  
اهل الحقيقة لتمييزا لهم عن اهل الشريعة ، ويتساءل اهل الشريعة اذا  
كانت الحقيقة ليست كائنة في الشريعة فلماذا انزلها الله ؟

ولقد حفلت كتب القدماء بهذا الجدل الطويل ، ولم يخل الامر من  
معارك استخدمت فيها السيوف أحيانا حين أعيى المجادلين المنطق . .

اما المعاصرون ففيهم رافضون كثيرون . .

كل الملاحدة يرفضون التصوف باعتباره تجربة ووحية ، لانهم لا يؤمنون  
بالروح كما يؤمن بها المؤمنون . .

وفي الفلاسفة من يرفض التصوف كأسلوب من أساليب البحث عن  
الحقيقة لانهم يرون الفلسفة هي الأسلوب الوحيد للبحث عن هذه الحقيقة .  
وفي المعاصرين من ينظر الى التصوف فراه شرا كله ، ويعتبره لونا من ألوان  
الهروب العاجز اليائس الى الخرافات والمجائب . وفي الباحثين من يدرس  
التصوف فيرجعه الى أصوله الهندية والفارسية ويبين تأثيره بلاهوت  
المسيحية وفلسفة بوذا واضرابه . .

وفي المسلمين المتشددین من يعتقد أن التصوف انحرف عن الإسلام  
وجهاده الى رهبانية إسلامية جديدة لم يأمر بها الله ولم يصنعها الرسول .  
رسم دوافع الرافضين للتصوف تكاد تنحصر في الأدلة التالية

أولا : ان التصوف بدعة ، فلم نسمع عن الكلمة في عصر رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، وقد صرح الرسول الكريم بقوله : « من أحدث في  
أمرنا هذا ما ليس منه فهو عليه رد » . . وما دام التصوف بدعة فهو  
مرفوض .

ثانيا : ان التصوف مرض ، اندلع كالنار في جسم الأمة الإسلامية من  
اطرافها مما وراء الجزيرة العربية ، حيث تحركت البقانا من نقافة المجوس  
في خراسان وبلغ في محاولة لاستعادة الأرض التي فقدتها في عقول المسلمين

الجند ، وتسالت عقائد الطوليين فيما تآخم الهند من بلاد العراق ،  
وانبثقت اباطيل الفلاسفة فيما اتصل من البلاد بارض مصر واليونان ..  
وهكذا تسال التعقيد الفاض الى العقيدة الاسلامية الواضحة المشرقة  
.. وادى صراع الصوفية مع علماء الكلام الى خلق ما يشبه قذائف الاعمال  
التي تنفجر داخل جسم الامة الاسلامية باصوات مكتومة لا تتيح لاحد ان  
يحظرها .. وبعد ان كان الاسلام هو دين العقل والقلب والمنطق والعقل  
صار معرفة تبحث عن نفسها في اللؤلؤ والشوق والشاهدة والمكاشفة  
والعشق والجذب ، وغير ذلك من افانين التصوف ومبتكراته المسرحية ..  
ثالثا : ان التصوف كهانة وورهبانية ، وبهذين الوصفين يخرج من  
الاسلام وان تدثر بعبادة الاسلام ..

.....

هذه اهم حجج الرافضين تماما للتصوف ..  
والحقيقة ان اول ادلتهم في الرفض يكفى وحده لاجلاق باب الجدل ..  
فهم يعتقدون ان التصوف بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في  
النار ..  
والحق ان موقف الرافضين للتصوف ليس كله بهذا القطع .. ان  
هناك من ينظر اليه فيقبل منه اجزاء ويرفض منه اجزاء ، ويختار ما يتفق  
معه ويرفض ما لا يقبله .  
وقد آثرت ان اورد راي اهل الدروة في الرفض لا تكلم عن راي اهل  
الدروة في القبول ..

في الصوفية من يدافع عن نفسه بغير اسلوب الدفاع .. لا يهاجم الفكرة  
الى ترمى التصوف بالخروج على الاسلام والرسول ، وانما يؤكد ان  
التصوف هو قلب الاسلام وفطرة البشرية وهو سلوك رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ..

بقول كتاب من كتب المحدثين في التصوف ..  
« التصوف عبادة وطهارة وزهد . ثم كشف وفيض واشراق »



اتصال بالخالق الاعظم الذى صدر عنه الكون ، ليست حياه محمد فى الغار صورة كاملة للصوفي الحق ، اليس هذا التأمل المحمدى فى عظمة فاطر السماوات والارضين ، اساسا للأذواق والمواجيد الصوفية ، وسبيلا للكشف والفيض والاشراق .. غير أن محمدا تبى ولا نبى بعده ، وإنما احبائه واتباعه على سنته وهديه كان صلوات الله عليه امام الصوفية الاكبر ، وكان يواصل التعبد والتهجد ، وكان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه فتقول له السيدة عائشة :

— لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ..

فقال صلى الله عليه وسلم :

— افلا اكون عبدا شكورا .

ويروى الصوفية احاديث كثيرة عن زهده وتحنثه فى الغار وكراهيته للعنبر وايشاره للأخرة وتواضعه للخلق ..

وفد دخل عمر رضى الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده مضطجع على حصير خشن ترك آثاره على جنبه ، فبكى عمر ، فسأله الرسول عما يبكيه قال ان ارى كسرى وقيصر على الحرير والاستبرق واراك على هذا الحصير .. ففضب الرسول وتساءل : اريدها كسروية يا عمر ؟

هذا رأى المغالين فى تأييد التصوف وذلك رأى المغالين من اصلاء التصوف بسطناهما لتعرف ماذا يقول كل فريق ..

ونحن لسنا مع الفريقين لاننا لسنا مع القلو او التزيد ..

لست اعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان صوفيا ..

لست املك أن اطلق على الرسول صفة لم ترد عنه ولم يوصف بها فى حياته ..

هو اجترأ اذا ان نسميه بعد موته صلى الله عليه وسلم بوصف

مستحدث .. حتى لو كان هذا الوصف مائدة من المديح والتمظيم .

الرسول صلى الله عليه وسلم نبي مرسل .

وهذه درجة لا يمكن للبشر الفانين معرفة قدرها .

وليس بعد النبوة درجة أو صفة أو تكريم أو امتياز .

**ايضا لسنا ضد التصوف الى الحد الذي نخلمه من الاسلام ونرميه**

**بتهمة البوذية والفارسية والهندية ونراه مرضا يصيب الروح فتهرب الى التيه والشتات ..**

لو تصورنا أن قاضيا من بنى البشر يريد أن يحكم على التصوف فكيف يحكم عليه .

يجب على القاضي أن يكون هادئ العقل .. غير منحاز الى معسكر ضد معسكر ..

يجب على القاضي أن يكون امامه قانون يحكم به .. ومعيار يزن على أساسه ..

لا ينبغي أن يطمئن القاضي لقانون غير القرآن ..

نحنكم الى القرآن اذا .

**ما وافق القرآن كان حقا وان حمل اسم التصوف أو اسم الظاهر ..**

**أو أى اسم ..**

**وما خالف القرآن كان باطلا وان حمل اسم الحقيقة ..**

**هذا هو المعيار الذي نطمئن له ..**

.....

قبل أن نحتكم الى القرآن ونبدأ سياحتنا في بحار الحب .

نريد أن نعرف أسرار هذا الجدل الطويل حول الصوفية .

لماذا اختلف الناس وانقسموا ؟

ان جواب هذا السؤال رغم بساطته سر من أسرار الخليفة .

خلق الله الناس على قدر من التفاوت في الفهم والاحساس والمقدرة

في الناس من يمشى وراء عقله ، ومنهم من يمشى وراء قلبه ، وفيهم من يرفع لواء الضمير ، وفيهم من يخرج على هذا كله لشيء أخطر ، وعسدم تساوى القدرة البشرية أو العقل البشرى يعنى أن الناس سوف تختلف ..

ولقد خضع الاسلام في القرون الاربعة عشرة التى عاشها على الارض لما خضعت له كل الاديان السابقة عليه من ضروب الدرس والفهم والتفسير والتاويل ، واذا كان كتابه قد ظل بغير تحريف ، فان في هذا الكتاب قد تعرض لما يتعرض له فهم أى كتاب مقدس .

ان ظهور اتجاهات في العقائد والعبادات والمعاملات ، قد ادى لنشوء مذاهب في الفلسفة والفقه ، ومدارس في علم الكلام والتصوف .  
وكان طبيعيا أن يبدأ الاختلاف والمعارضة .

ان للمتكلمين فهمهم الخاص لامهات العقائد والدفاع عنها .. وللصوفية موقفهم المختلف عن موقف علماء الكلام ..

بل ان المتكلمين ليسوا سواء في فهمهم للمقيدة .. والصوفية ليسوا سواء في نظرتهم الى الامور .

والذين يؤولون الكتاب ويفسرونه يختلفون احيانا اختلافات محيرة ..  
نضرب مثالا بقوله تعالى « يد الله فوق ايديهم » اذا فهمها انسان بمعنى اليد ، مع التنزيه والتقديس ، وفهمها انسان آخر بمعنى القدرة ، فأيهما على حق ..

ان الاثنين على حق ..

يجب ان نعترف ان كثيرا من المختلفين يتكلمون باسم الاسلام وينتمون اليه ويصورون الاسلام لغيرهم كما تصوره هم انفسهم .. وهم في هذا كما يقول سادتنا واساتذتنا مجتهدون . ان اخطاؤا فلهم اجر ، وان اصابوا فلهم اجران .. ومن حقهم علينا ان ندين لهم بالفضل والشكر وان نحاول فهم آرائهم ووضعهم في سجل التراث الفكرى الاسلامى اولا .. والتراث الفكرى العالمى بعد ذلك .

والحقيقة انه ليس هناك في فهم مسائل الدين ما يمكن ان نسميه كاذبا

او صادقا .. ما دام قائما على اساس من الكتاب والسنة . وما دام المتاول لا يخرج بالنص عن المعاني التي جرى بها العرف في اللسان العربي .. بل اقصى ما توصف به تارلات المتاولين انها حرفية ضيقة ، او متحررة واسعة ، او اكثر عمقا في الروحانية . او مناسبة لموضوعها ..

ان الصلاة عند الفقهاء افعال واقوال مفتوحة بالتكبير مختتمة بالتسليم ..

والصلاة عند الصوفية مناجاة قلبية بين العبد والرب .. اليس الاثنان على حق ، ان النظر الى الله باعتباره معبودا نظر صحيح .. والنظر اليه باعتباره محبوبا اولا ومعبودا ثانيا نظر صحيح ..

نبتعد اذن عن هذا الجدل والخصام وليكن امام القاضى قانون واحد .. هو القرآن .

هل وردت كلمة التصوف في القرآن ؟

لم ترد الكلمة ..

يقول الصوفية ان القرآن لم يورد الكلمة ولكنه اورد قصة عظيمة هي لب التصوف الاسلامي ..

قصة موسى عليه الصلاة والسلام .. والمبد الربانى .

✽ شاطئ بحر ..

هذا مكان القصة ..

الشاطئ رمادى باهت ، والبحر امامه ساكن ، والمكان مضطرب بشئ يشبه السر ..

ليس هناك بحر واحد ..

هناك بحران يلتقيان معا .

اى ان هناك سرين قد اجتمعا فازداد الامر غموضا فوق غموض .

اقدام موسى تدب على رمال الشاطئ وفوافعه ، العصا تنفوس في الرمال واحيانا يبلل الموج نهايتها ..

وتحس العصاة انها تعيش زمنين معا ، طرف مغموس في مياه ملحة باردة  
وطرف يتلقى اشعة الشمس الدافئة .

والمياه سر .. والشمس هي الأخرى سر .. وزمن القصة سر هو  
الأخر ..

لا يقول لنا القرآن الكريم متى كان ذلك ..

لا يقول لنا أين كان ذلك ..

حدد القرآن المكان ولم يحدده ..

ان موسى يقرر امرا مفاجئا ..

« واذا قال موسى لفتهاه لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين او امضى

حقبا » .

ان موسى يقرر لفتهاه ( وهو فتى لا يذكر القرآن اسمه ) .. انه سيمضى

حقبا ومسافات وازمنة .. حتى يصل الى مجمع البحرين ..

اين كان مجمع البحرين هذا .. اين كان لقاء البحرين هذا ..

لا يقول لنا القرآن الكريم شيئا عن المكان فهو قد حدده ولم يحدده ..

ولقد تحدث كثير من المفسرين عن هذا المكان ، وحدده بعضهم ، واجهدوا

انفسهم في محاولة تعيينه ، ونرى ان هذا كله غير مطلوب ولا مقصود ..

فان هذا الجو الخارجى الغامض المشحون بالاسرار يتفق تماما مع الجو

الداخلى الغامض المشحون بالاسرار ، ويتفق مع لب القصة وهدفها ..

.....

يقول المفسرون ان رجلا من قوم موسى سآله يوما :

— من اعلم الناس فى الارض اليوم يا موسى ؟

قال : انا .. وقالها باعتباراه كلیم الله ونبیا من اولی العزم الکبار ..

فأوحى اليه الله ان يذهب الى مكان ليلتقى بعبد من عباد الله .. ولسنا

نعلم هل كان موسى ذاهبا ليتعلم .. هل أخبره الله تعالى انه قد تجاوز

حدوده حين اعتقد انه اعلم الناس ، فهو رغم نبوته وكونه « كلیم » الله

تبارك وتعالى ، فقد يكون في الأرض من هو أعلم منه .. هل ذهب موسى لهذا السبب أم ذهب لأن الله أمره بالذهاب ليرى لو أن آخر من العلم الذي يختلف عن علمه ..

لننا نعرف لماذا ذهب موسى بالتحديد .. لآتشي الآيات الفرائية بسر ذهابه .. إنما تخفى هذا السر ، وهكذا يذهب موسى أمامنا كأنه يمشى في ضباب ..

تأمل العبد نفسه الذي ذهب إليه موسى ليتعلم منه وينبعه ..

ان العبد بغير اسم .. يقدمه القرآن مجهولا بغير اسم .

لم يحدثنا الحق تبارك وتعالى عن اسمه .

« فوجدنا عبدا من عبادنا » ..

تأمل هذه العبارة « عبدا من عبادنا » ..

ان العبد الصالح المنسوب لله تعالى يظهر على مسرح الأحداث مدثرا بالقموض ملتفا بالضباب .

رجل بلا اسم .. مثل تلميذ موسى .. مثل المكان الذي ذهب إليه .

هذا القموض الذي يرتقى لحد الرهبة الساكنة مقصود ومتعمد لخدمة الفرض الاصيل في القصة ، وهذا من ألوان التصوير الفني في القرآن كما يقول الأستاذ سيد قطب .

نريد ان يتأمل القارئ هذه الآيات ليرى اعجاز الأسلوب الذي يسوق الله تعالى به بدايات القصة ..

« واذا قال موسى لفتهاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين او امضي حقبا ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا ، فلما جاوزا قال لفتهاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال ارايت اذ اوتينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا ، قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا .. فوجدنا عبدا من عبادنا » ..

تأمل ظهور العبد على مسرح الحدث .. ان صورا مرسه تقع امامنا

قبل ان يظهر هذا العبد ..

في البدء نرى موسى مصرا على عدم اليأس ، فهو ان يتوقف عن الترحال والبحث حتى يصل الى مجمع البحرين ، ويصل موسى مع فتاه بعد رحلة شاقة الى المكان المحدد ..

وينسى فتى موسى « حوتا » صغيرا ، ينسى سمكة كانت مشوية على النار ومهيأة لغداء موسى ، ينساها تماما فتعود السمكة الى الحياة وتنتسلل في البحر عجبا .. أمر بالغ العجب ان تعود السمكة الى الحياة وتعود الى البحر بعد ان طهيت على النار ، لكن الأسرار تزيد كلما تقدمت سطور القصة ، ونحن لا نعرف لماذا وقعت هذه الخارقة او المعجزة في هذا الوقت بالتحديد ، وسنفهم فيما بعد ان هذه المعجزة اشارة موحية من الله تعالى بتحديد المكان الذي سيعثر فيه موسى على العبد الرياني .. بعد ان تسلمت السمكة الى البحر ، سار موسى وفتاه حتى تعب موسى واحس بالجوع ، وقال لفتاه آتينا غداءنا .. وتذكر فتى موسى كل ما حدث ..

تذكر انه رأى السمكة تقفز من السلة الى البحر .. وتسبح فيه وتمضي في طيات الموج مثل سر صغير يلدوب في سر اكبر ..

ونسى فتى موسى كل شيء عما رآه .. انساه الشيطان ان يحدث موسى بما وقع ، وذلك أمر غريب ، لان ما وقع كان جديرا بان يذكره ، فهو معجزة ، وكان جديرا بان يحدث عنه موسى ، لانه ربما كان اشارة لموسى بشيء ..

ويبدو ان موسى اغفى قليلا فوقع ما وقع اثناء نومه ، وشاهده فتاه وخادمه ، فلما استيقظ موسى نسى فتاه كل شيء عما حدث ، وعاد يسير مع موسى حتى دميت اقدامهما من السير واحسا التعب وجلسا للراحة ، وتذكر موسى غداءه وأمر فتاه ان يحضره ، عندئذ تذكر الفتى ان الحوت الصغير قد عاد الى البحر .. وأتيا موسى بما وقع ..

وفهم موسى الاشارة الالهية على الفور ..

قال ذلك ما كنا نبلغ .. هذا ما تريده بالضبط .. هذه المعجزة او

هذا السر اشارة الى سر آخر سنجدّه في هذا المكان ..

وعاد موسى مع فتاه يقصان آثار اقدمهما حتى عادا الى المكان الذى تسلك فيه الحوت ..

« فوجدنا عبدا من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علما » ..

ينسب الله تعالى العبد الى نفسه ، وينسبه الى عباده الذين آتاهم رحمة من عنده ، ويقدم الله تعالى العبد بوسفه عبدا « علّمناه من لدنا علما » ..

هذا بطل القصة .. وهو رجل بلا اسم .. وان اعتقد المفسرون انه الخضر عليه السلام ، وان القرآن لم يصرح باسمه لان التصريح باسمه لا يعنى شيئا ، وعدم التصريح باسمه يعنى آلاف الاشياء ..

نحن امام رجل آتاه الله من علمه اللدنى .. وهو علم هائل ، وان كان سرا كله ، وهو علم يرتدى أكثر من قناع ، وربما نظرت في صفحته البادية فرايت ماساة او جريمة ، ولكن قاع الحقيقة يخلف كل الاختلاف عما تراه ..

هذا العلم اللدنى يختلف تماما عن العلم البشرى ..

يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

تشير هذه الايات الى العلم البشرى .. وهو علم يرمز له القرآن الكريم بالقلم .. اما العلم الآخر ، او العلم اللدنى ، فهذا نوع آخر ، وهو ليس منسوباً الى الله فحسب ، انما هو من لدنه سبحانه ..

.....

لم يكذب موسى بهذا العبد حتى سألّه ان يعلمه .

« قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً » .



السؤال من موسى وهو سؤال جدير بأن يثير دهشتنا قليلا ..

ان موسى كما يرسمه الحق تبارك وتعالى في القرآن رجل قوى عنيف سريع الغضب ، انه يتدخل في مشاجرة ويدفع بيده رجلا فيقتله ، وهو حينلقى العصا من يده فصارت حية أصابه الروح وولى هاربا ، وهو حين عاد يحمل الواح التوراة ووجد قومه يمدون العجل نار ثورة هائلة والقى الواح التوراة من يده وأمسك برأس أخيه ولحيته معنفا :

« قال يا ابن ام لا تأخذ بلحيتي ولا براسي » .

ولو عرفنا من قائل هذه الكلمات لأدركنا غضب موسى ، قائل الكلمات هو هارون النبي الكريم وشقيق موسى ..

بل ان موسى ظل غاضبا فترة ، وعبر القرآن عن هذا الغضب بصورة فنية معجزة في قوله تعالى « فلما سكنت عن موسى الغضب » .

نريد ان نقول ان موسى كان سريع الانفعال سريع الغضب ، وأحيانا كان صبره ينفد ، حتى في مواقف الخوف أو الرهبة ، ان صبره ينفد فيقول الحقيقة كاملة ، وها هو امام جبار الأرض فرعون يقول له بعنف «وذلك نعمة تمنها على أن عبدت بني إسرائيل» هل تمن على أنك استخدمت بني إسرائيل عبدا لك ، هذا يحتسب ضدك ولا يحتسب لك .

نريد ان نقول ان موسى هذا النبي السريع الغضب ، يتحول الى شخص آخر ، فيحدث العبد الذي عثر عليه بأنه يريد أن يتبعه .. ويريد أن يتعلم منه ..

ورغم هذا السؤال الهاديء الدمث .. ترى العبد الصالح يجيب موسى اجابة عنيفة « قال انك لن تستطيع معي صبرا » .

بهذه الجملة السريعة ينبه العبد موسى الى حقيقة الفرق بين العلم الشرى والعلم اللدننى ، فالعلم اللدننى ثقل ولن يصبر عليه موسى ، ولن يصبر على اتباعه بالتالى .

وربما أحس العبد ان موسى فوجيء ، فعاد يحدثه عن بديهية مفترضة :

« وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » .

الصبر يكون حين تعرف اقدار الاشياء . ويكون حين تفهم اخبار الاشياء ، ولن احدثك عن اسرار الاشياء .. ولهذا لن تصبر عليها ..

عاد موسى يقول بأسلوب يشي بالرغبة والالاحاح ..

« قال ستجدينى ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك امرا » .

خضوع مطلق من تلميذ لن يعصى لاستاذ امره .

ووعد في نفس الوقت بالصبر .. والصبر هو احتمال ما لانفهم .  
ويضع الأستاذ شروطه :

« قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا » .  
الشروط .. الا تسال ..

السؤال ممنوع تماما .. مهما رايت .. مهما تحيرت ..

لا تسال حتى احدثك انا .. عبارات العبد قصيرة وتلفرافية وموحية .

وافق موسى على الشرط وبدأ رحلته مع العبد الصالح .. « فانطلقا حتى اذا ركبنا في السفينة » ركبنا في سفينة رحبت بهما ورفض صاحبها ان يتقاضى منهما اجرا لانهما غرباء . وفوجيء موسى حين غادرها صاحبها ، فوجيء ان العبد الصالح الذى جاء يتعلم منه منهمك في خرق السفينة واتلافها .. بل انه « خرقها » .. وغلبت موسى طبيعته المتدفعة في الحق ، وحركه غضبه على الخطا فانطلق يقول للعبد :

« اخرقتها لتفرق اهلهما لقد جئت شيئا امرا » .

يتهم موسى العبد بانه قد ارتكب خطا بالغا ، فهو يرد على احسان اصحاب السفينة بالايذاء ، وهو يمرضهم للفرق والموت بفعلته .. وينظر العبد الصالح الى موسى ولا يزيد على ان يقول له :

« قال ألم اقل انك لن تستطيع معى صبرا » ..

انه يذكره بما سبق ان قاله له . ان علمه ثقيل ولا قدرة لموسى على احتماله ..

ويعود موسى الى الاعتذار .

« **قال لا تؤاخذني بما نسيت** » .

وبعد الاعتذار رجاء بالآ يرهقه العبد الصالح من أمره عسرا ، لقد نسي وهذه هي المرة الأولى ؛ ليسامحه هذه المرة ..

وتكاد نحس من غضب موسى المستتر لهفته البالغة في التعلم ومصاحبة هذا العبد ذى التصرفات الغريبة .

ويعاود موسى مصاحبته للعبد ...

« **فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله** » .

كان تصرف العبد هذه المرة غاية في الغرابة .. نحن امام جريمة قتل ، وهي جريمة شاهدها موسى واندعش لها دهشة عميقة ، وكار بسببها ثورة عميقة .. وكان بطلها هو نفس البطل الذى خرق السفينة .. وفاد موسى يوجه حديثه اليه :

« **قال : اقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا** » .

النفس الزكية هي الغلام ، وهي زكية لان الغلام صغير السن لم يرتكب بعد من الجرائم ما يسمح بقتله .. وقتله هنا شيء منكرو بالغ البشاعة .. وعاد العبد الصالح يلفت موسى الى جملته الأولى التى قالها له مرتين قبل ذلك :

« **قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبرا** » .

لو تأملنا غموض العبد فسوف نلاحظ انه يزداد كلما تقدمت القصة ، فهو لا يتكلم .. بطل القصة الرئيسى لا يتكلم مطلقا ، انما يتصرف في هدوء صامت ، وهو اذا تكلم قال لموسى انك لن تستطيع معي صبرا ..

وهو يقول هذه الجملة ثلاث مرات .. وفى المرة الثالثة يعترف موسى بأنه يوشك ان يؤكد ما قاله الأستاذ من انه لن يصبر ، وكل ما يطلبه موسى فرصة أخيرة يثبت فيها صبره وقدرته على التعلم .

« **قال ان سالتك عن شيء بعدها فلا تصحابنى قد بلغت من لدنى**

**علوا** » ..

ومعاًدا ينطلقان .. وصلا الى قرية بخيلة غاية البخل .. حاولا ان ياكلا منها كغرياء وضيوف بلا اجر - كعادة هذا الزمان - ولكن القرية ابت أن تطعمهما أو تضيفهما .. وانصرف الاثنان .. موسى والعبد الصالح ، ويبدو ان موسى لم يصحب فتاه معه في رحلة التعلم هذه لان القرآن يتحدث عنهما كائنين .. « فانطلقا » .. « حتى اذا اتيا » « فابوا ان يضيفوهما » .. بعد هذه المعاملة السيئة ، انصرف موسى والعبد الصالح الى خلاء خرب فيه جدار يوشك أن ينقض .

وفوجيء موسى أن العبد الصالح يمضي الليلة في اصلاح الجدار وبنائه من جديد ، ووصلت دهشة موسى الدرورة من هذا العبد الصالح ..

لقد باتا بغير عشاء .. لم يطعمهما في القرية أحد .. لماذا يبني الرجل هذا الجدار المتهالك .. لو شاء لاتخذ عليه اجرا .. ويقول موسى فكرته لصاحبه .

« فانطلقا حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها فابوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا » ..

لقد نسي موسى وعده بالصبر ، وقد سال قبل ذلك فرصة أخيرة ، وها قد مرت الفرصة الثالثة .

« قال هذا فراق بيني وبينك » .

انتهى الأمر ، ولن تعرف منى ما أردت أن تعسرف ، ولن تتعلم منى ما أردت أن تتعلم .. ولكي تطمئن بالا فسوف احدثك بأسرار ما رأيت .

« سانبئك بتاويل ما لم تستطع عليه صبرا » .

سأفشى لك سر ما رأيت .. وسيكون هذا ايذاناً بفراقنا النهائي ..

السفينة التي خرقتها لم اكن أريد اغراق اهلها أو هلاكهم .. على العكس من ذلك كان وراءهم ملك سيخوض حرباً ، وكان ينوى مصادرة كل السفن ، وكان اصحاب السفينة سيموتون من الجوع . فخرقت السفينة ليلفظها الملك . فيعاود اصحابها اصلاحها ويعملون عليها وياكلون ..

كان ظاهر ما رايت ابداء وقتلا ، وكان باطن ما رايت هو اللطف والرحمة ..

اما الغلام الذى اهتزت مشاعرك لقتله ، وظننت ان وراء قتله شيئا نكرا ، هذا الغلام طاغية وكافر ، كان غلاما بريئا امام نظرك ولكنه كان طاغية وكافرا باعتبار ما سيكون حين يكبر ، وابواه مؤمنان ، وكان سيرهتهما طغيانا وكفرا ، فشاء الله تعالى موته ليربح أبويه منه ، ويعطيتهما بدلا منه ابنا بارا ، وهكذا انقذ الله الأبوين وانقذ الغلام نفسه من نفسه ، فهو قد صار الى الرحمة حين مات وهو غلام ، لانه لم يرتكب بعد ما كان سيرتكب .. لقد نجا جميع الاطراف رغم انك تظن ان جميع الاطراف قد هلكوا .. هلك الولد بالموت .. هذا ما رايتك يا موسى ، ولكن الحقيقة انه نجا بالموت ، ولن يحاسب على ما لم يفعل ، مات وهو غلام بريء ، اما الأبوان فقدس حزنا كثيرا وبكيا كثيرا ، ووراء حزنهما وبكاهما كانت ترقد شمس الفرح والابتسام .. كان ما رايت هو عكس الحقيقة ..

« اما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا » .. وقد أراد الله الا يهدم الجدار فيظهر الكنز وينهبه اهل القرية البخيلة ، أراد ان يحتفظ لابناء الرجل الصالح بالكنز ..

ويتقدم العبد الصالح خطوة في تعليمه لموسى فيكشف له سر ما حدث ..

— رحمة من ربك ..

كل ما رايت من صور الاعتداء او القتل او وضع الشيء في غير موضعه .. لم يكن غير رحمة ورحمة ورحمة ..

حتى مآسى الوجود وكوارثه هي اقنعة للمآسى والكوارث .. والباطن العميق هو الرحمة ..

— وما فعلته عن امرى ..

لم يكن هذا رايا رايتك ولا كان اقتناعا بشيء او معرفة لشيء او تطبيعا لعلم بشرى اما كان امرا من الله ..

قال تعالى في سورة الكهف « اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت ان اعييها وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصبا . واما الغلام فكان ابواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا ، فاردنا ان يبدلها ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما . واما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحا فاراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن امرى ذلك تاويل ما لم تسطع عليه صبرا » .

نريد ان يلاحظ القارئ ان العبد الصالح استخدم ثلاثة تعبيرات للارادة في القصص الثلاث ..

قال عن السفينة « فاردت ان اعييها » .

وقال عن الغلام « فاردنا ان يبدلها ربهما خيرا منه » .

وقال عن الجدار واليتيمين « فاراد ربك ان يبلغا اشدهما » .

وقد ارجع الارادة الى نفسه في قصة السفينة . والى الله ضمنا في قصة الغلام . والى الله صراحة في قصة الجدار واليتيمين .

ما الذى تعنيه هذه القصة ١..

ما الذى نريد ان نقوله لنا ٢..

لا يملك العقل سوى التوقف امام هذه القصة ..

قصة موسى والعبد الصالح والسفينة والغلام والجدار ..

هى قصة من اعجب قصص القرآن ونقصد بالعجب هنا ما اشار اليه الجن حين قالوا « انا سمعنا قرآنا عجيا » فلم يستخدم غير الجن هذا التعبير ، واستخدمه تلميذ موسى حين قال عن الحوت الذى ارتد الى الحياة « واتخذ سبيله في البحر عجيا » وتصور انت ان يصف الجن وهم عجب خفى في حد ذاته ( القرآن بانه عجب .. ان تحيرهم امام آياته دهشتهم ازاءها يعنى ان ما فيه من اسرار قد استولى عليهم واخضعهم .

وبهذا النظر نتأمل القصة ، فهى عجب في شدة خفائها وعمق معانيها ، وهى عجب في المستويات المختلفة المتدرجة التى تنطوى عليها ، وهى عجب في اسرارها المكننة واسرارها الخفية ..

في طفولتي ركبت السفينة مع موسى والعبد الصالح .. لم افهم مما  
يجرى شيئا .. كنت سعيدا بنزهة البحر ، وهياج الأمواج ، وهذه القواقع  
التي حملتها معي من الشاطئ ..

لم أكن واعيا لهذه الأسرار التي تضمنتها القصة .. موسى وفتاه ..  
وهذا الحوت ( أو السمكة المشوية المهيئة للغذاء ) ..

لقد وصلا الى مكان .. يسميه القرآن « مجمع البحرين » ، ويسميه  
« مجمع بينهما » .. والكان عند صخرة ..

أوى موسى وفتاه الى الصخرة .. وفي هذه الصخرة عين لا يحدثنا  
عنها القرآن .. ويبدو أن في هذه العين سرا يتصل بالحياة ، لأن جزءا من  
مياه العين حين وقع على السمكة المشوية ( أو الحوت الصغير ) ، أصاب  
السمكة شيء مدهش ، ففقد ارتدت الى الحياة وتفرزت في مياه البحر ،  
ولاحظ فتى موسى أو تلميذه هذه المعجزات ونسى أن يحدث عنها موسى ..

كانت كل هذه الأسرار تخضع طفولتي ببدايتها .

وكبرت أكثر ، وقمت بالرحلة مرة ثانية ، وشاهدت العبد الصالح  
يخرق السفينة ، ودهشت وكدت احتج مع موسى ولكنني خشيت أن  
يغضب العبد أو يغضب موسى لأنني أرفع صوتي جوار صوته .. وهكذا  
صمت ..

وكبرت أكثر .. لم أعد أعترض على العبد وهو يخرق السفينة ،  
أدركت أنه كان ينقذ أصحاب السفينة بالتحالف السفينة .

كنت أجلس صامتا أأمل غرابة ما يجري لموسى ..

لقد بدأت حياة موسى وهو طفل بالقائه في صندوق والقائه الصندوق  
في الماء .. وكان هذا التنبير الإلهي لينجو موسى من القتل ..

كان البحر هو أول من استقبل موسى وهو طفل ..

وها هو موسى . كب سمكة ليولد من جديد ، أو لينجو من تصور

ان علمه هو العلم الوحيد الموجود فى الارض ..  
وقد قتل موسى انسانا حين وكزه ففضى عليه .  
وها هو العبد الذى يصحبه يقتل غلاما ..

وقد تصرف العبد فى القرية البخيلة تصرفا اريحا بلا اجر . وكان  
هذا تصرف موسى حين وصل مدين ووجد الناس تحاول ان تسقى ووجد  
فئتين لا تراحمان الرجال ، فسقى لهما ..  
ان قصة العبد الصالح تقابل قصة موسى ..  
والرموز هنا تقابل الرموز هناك .. والاسرار تزيد وتكاثف .. وكلما  
تقدمت الايام واشتعل الرأس شيئا وزاد حظ المرء من الادراك .. زاد حظه  
من التحرير .

.....

القصة بحر مياهه بلا قاع ..  
وفى البحار الحقيقية اجزاء تبدو من فرط العمق بلا مرار ..  
وفى بحار الحب الالهى اجزاء بلا قاع حقيقى .  
وكل موجة من امواج هذا البحر سر كالبهر نفسه ..  
ولو حاولنا اليوم ان نقرأ فلن نقرأ اكثر من هذا الموج القريب الهادى .  
الذى يتكرر زبدا ابيض على الشاطئ ..  
لن نقرأ أبعد من سطور الشاطئ ..

.....

احد معانى القصة ان فى الدنيا احداثا يختلف ظاهرها عن باطنها يبدو  
الظاهر مأساة على حين ينطوى الباطن على حقيقة الرحمة . او يبدو الظاهر  
خاليا من العقل والتدبير يشئ الباطن بالحكمة العميقة .  
ولنتأمل - معا - هذه الاحداث الثلاثة فى القصة كرموز ثلاثة ..  
● ان السفينة التى خرفها العبد الصالح الغامض ترمز الى كل ما يملكه  
الانسان ويحرص عليه من مآدبات الحياة ولقمة العيش .



● والفلام الذى قتل بغير نفس او ذنب جناه يرمز لكل ما يقع على الانسان نفسه من ضرر اقصاه القتل .

● والجدار الذى اعيسد بناؤه كان رمزا عجيبا لما نتصور انه عبث او لا معقول وهو فى حقيقته غاية الحكمة .

وهكذا تكتمل الرموز الثلاثة ..

ان الضرر الذى يصيب ما نملك ..

والدم الذى يسيل منا او ممن نحب ..

والعبث الذى نراه فى الحياة حولنا ..

هذا كله وراء حكمة عميقة .. هى الرحمة الالهية الشاملة .. كل خراب

ظاهر .. او موت ظاهر او عبث ظاهر .. ليس كذلك فى حقيقته ..

الحقيقة انه جزء من نسيج الرحمة الالهية ..

واى انسان يصيبه شئ .. تخرق سفينة عيشه .. او يقتل له طفل .. او يموت له أحد ، او يرى العبث يملأ الحياة حوله .. اى انسان يقع له شئ من هذا، فما عليه الا ان يذهب الى مجمع البحرين حيث ذهب موسى .. وليقف امام الآية الستين من سورة الكهف ليقف هناك ويبكى ما شاء الله له ان يبكى فالبكاء رقة فى القلب وحنو .. ولتسقط الدموع بملح الصدق فى مياه البحرين بملحهما .. وليركل بعد ذلك السفينة ويصاحب موسى والعبد ..

سوف يقرأ فى اسرار الموج عناية الله ورحمته سبحانه ..

وليس هذا العبد المدثر بالخفاء والسر سوى رمز من رموز الرحمة الالهية فهو عبد يتحدث منه الحق بقوله تعالى :

« آتيناہ رحمة من عندنا .. وعلماہ من لدنا علما » ..

.....

الرحمة الالهية معنى من معانى القصة ..

وفى الفصصة معان اخرى .. من معانيها ان العلم على الارض ثلاثة

أنواع ..

**أولها :** علم البشر المعتمد الذى تكسبه بالجهد والتعلم .. مثل علم الصيد أو الزراعة .

**وثانيها :** علم الأنبياء الذى يوحى به الله لاتبائيه بواحد من الطرق الثلاث التى حددها قوله تعالى :

« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء » ..

**وثالثها :** العلم اللدنى أو علم الأسرار ..

والفرق بين العلوم الثلاثة هائل .. ولا مجال للمقارنة بينها ولا المفاضلة أو ترتيبها حسب الأهمية ، يمكن ترتيبها حسب الظهور على مسرح الحياة .. لقد سبق العلم البشرى كل العلوم على الأرض ، وحمل هذا العلم نبى كريم هو آدم عليه السلام ..

فقد خلق الله تعالى آدم بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه الأسماء كلها ، وأمره ونهاه ، وناب عليه حين عصى واجتباه .. قال تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » ..

لم يقل سبحانه أنه علم آدم الأسرار كلها ..

ومعنى تعليم الأسماء هو تعليم آدم هذه القدرة البشرية على استخدام اللغة والرموز ، هو تعليمه القدرة على الإشارة باللغة ، واستخدامها كرمز ، القدرة على البحث فى جميع العلوم البشرية .. وقد ورث أبناء آدم هذه القدرة على البحث عن أسماء الأشياء ومعرفة طبيعتها واكتشافها .. وأول خصائص العلم البشرى هو الجهد والبحث ، وإمكانات الخطأ قائمة فى مجاله طوال الوقت يموت العالم فيكمل تجاربه عالم آخر ، ويسلم كل جيل معارفه للجيل الذى يليه ، وتمضى دورة البحث طالما أن فى الأرض إنسانا ..

هذا أول أنواع العلم ظهورا على مسرح الأرض ، وهو علم مركوز فى فطرة الإنسان . وهو أساس مبدئى كرم الله تعالى آدم بسببه ، وهو معيار

للتفضل الذي فضل الله به أبناء آدم على غيرهم من المخلوقات ، وحين سأل الملائكة رب العرش سبحانه :

« اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحميدك ونقدس لك » أجاب الحق سبحانه :

« قال انى اعلم ما لا تعلمون .. وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤنى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين : قالوا سبحانه لا علم لنا الا ما علمتنا انك انك العليم الحكيم » ..

نفهم من هذا ان ميزة النوع البشرى هى العلم .

ومعيار تفضيله هو العلم ..

ومبررات خلقه رغم افساده فى الأرض وسفكه للدماء هى العلم ..

وحكمة اسناد الخلافة فى الأرض اليه هى العلم ..

العلم بالاسماء ..

هذا كله أساس لا بد منه لتلقى علم الانبياء ..

وعلم الانبياء هو علم التوحيد ، وقد ظهر هذا العلم بعد علم الاسماء على الأرض .. لقد علم الله تعالى الانسان أن يصنع رغيف خبزه ، وعلمه أن يضطاد قوت يومه ، وعلمه أن له ربا واحدا هو خالقه سبحانه ، تقول ان علم التوحيد ظهر فى رسالات الانبياء بعد نزول الانسان الى الأرض ، والحقيقة ان هذا العلم ظهر قبل هبوط الانسان الى الأرض ..

يحدثنا الله تبارك وتعالى فى آية الميثاق انه اخذ العهد على أبناء آدم بتوحيده والاقرار بربوبيته فاقروا .. وتم هذا وهم فى عالم الدر قبل الخلق ..

« واذا اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم .. قالوا بلى » ..

ومد بعث الله تعالى انبياءه ليعيدوا الخلق الى هذه الفطرة المكنة فى الأرواح والقلوب .

وعلم الأنبياء هو الشريعة التي يريد الله عز وجل من عباده اتباعها والسير طبقا لدستورها ، وهو يختلف عن العلم البشرى في تنزهه عن الاجتهاد والبحث والجهد والخطأ ..

يحتمل هذا العلم تفسير المعانى والآيات ، ولكن أصوله لا تخضع للاجتهاد والبحث كالعلم البشرى ..

إذا كان علم الأنبياء هو علم الشريعة ، فإن الشريعة هي الحقيقة كما هو معروف ، وليس هناك تعارض مطلقا بين الشريعة والحقيقة ، ولو دققنا النظر في قصة موسى والعبد الصالح ، ونظرنا إليها من وجهة نظر الشريعة .. فسوف نرى أن الجزاء الذي وقع فيها كان متفقا كل الاتفاق مع شريعة موسى ..

إن انقاذ أصحاب السفينة بخرق السفينة عمل طيب تجازى عليه الشريعة ..

وقتل الغلام الذي كان سيرهق والديه طفيلانا وكفرا هو جزاء الشريعة ، فقد كانت الشريعة التي أنزلت على موسى في التوراة تقضى بقتل من يقوم بعقوق والديه ..

أما بناء الجدار فأمر يتفق كل الاتفاق مع الشريعة .. فليس بناء الجدار خيرا يستغيه العبد الصالح للقرية الفاسدة ، إنما هو ضرب لفسادها بمعنى من المعانى ، وهو منع لهذه القرية من سرقة كنز الرجل الصالح ، وصلاح الأبناء يمتد إلى الأبناء رحمة من الله في شريعة موسى ، كما أن عقوق الوالدين جزاؤه القتل في هذه الشريعة ..

لا خلاف بين الشريعة والحقيقة ..

ولا مفاضلة بين موسى والعبد الصالح ..

من سوء الأدب أن نقول إن هذا أفضل من ذلك .

أحدهما أسناذ .. والثانى تلميذ .. هذا صحيح ..

ولكن أى استاذ وأى عبيد ..

الاستاذ يحمل أسراراً من الله والتلميذ نبى من أولى العرم الكبار ..

وما يقوله بعض الصوفية الجهلاء من ان الاولياء افضل من الانبياء ،  
امر يخرج القائل من الجحيم الى المجنون والزندقة ..

ولو جاز لنا ان نفاضل بين من تعلم اكثر ومن يعلم اقل .. وقلنا ان  
المد الصالح افضل من موسى . فسوف يجبر لنا هذا المنطق ان نقول ان  
هدهد سليمان كان افضل من سليمان .. ففد كان الهدهد محيطا بعلم لم  
يحط به سليمان ، وكان يعرف اكثر مما يعرف سليمان عليه السلام ..  
قال الهدهد لسليمان « احطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بثبا  
بقين » ..

نريد ان نبتعد عن هزل المفاضلة بين رجلين من رجال الله .. ونريد  
ان نحسن الادب ونحن نتحدث في علم الشريعة وهو نفسه علم الحقيقة ..  
ونريد ان نقول ان كلا الرجلين كانا قمة من القمم ..  
احدهما كليم الله ونبيه ..

والثاني عبد اوتي من الاسرار ما اوتيته ..

### ما هو علم الاسرار ؟

تحدثنا القصة ان هناك علما من لدن الله ، علما مجهولا لولا هذه الاشارة  
التي وردت بشأنه في القرآن لما عرفنا عنه شيئا ..

والواضح ان هذا العلم متصل بالاسرار موصول بالغيب ..

ان العبد الصالح يخرق السفينة وهو يعلم المستقبل .. ويعلم ان هناك  
ملكا سيأخذها لو لم تلتف ..

وهو يقتل الغلام لانه عندما يكبر فسوف يعذب والديه ويعقهما ، وهذا  
مستقبل لم يقع بعد وغيب ..

وهو يبني الجدار في القرية لان سر الماضي والمسنبل قد كشفاه ، فعلم  
ان تحت هذا الجدار كنزا ليتيمين كان ابوهما صالحا ، واليتيمان يعيشان في  
قرية تشتهر بالصوص ..

نريد ان نقول ان هذا العبد كان يعرف طرفا من غيب الله عز وجل ..  
والغيب شيء لا يعرفه سوى الله عز وجل ، ومن يشاء اطلعهم من عباده  
عليه سواء كان هؤلاء العباد من الملائكة أو الأنبياء أو البشر قال تعالى  
« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول » .. وليس  
الكشف عن الغيب متصلا بقدرة من يكشف الله له الغيب ، فان الجن رغم  
قدراتهم الهائلة وخفائهم لا يعرفون الغيب ، وقد مات امامهم سليمان عليه  
السلام فلم يعرفوا نبا موته الا بعد ان اكلت نملة الخشب عصاه فخر  
على وجهه ..

**انما يخضع كشف الغيب لبعض المباد لقانون لا يعلمه سوى الله عز  
وجل هذا القانون هو مشيئته النافذة سبحانه ..**

واحيانا يكشف الله طرفا من الغيب في كتب الانبياء ، كما وقع في الكتاب  
المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سورة الروم ..

« الم .. غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفلون ،  
في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون » ..

كانت هذه النبوة كشفا لطرف من الغيب للمسلمين . وكان هذا  
الكشف يتم علائقية في كتاب الله المنزل الكريم .

احيانا يطلع الله عباده على الغيب علنا كما راينا في سورة الروم ..

واحيانا يطلع الله عباده على الغيب سرا كما حدثنا في قصة موسى والعبد  
الصالح .. وعلم الاسرار ، وهو جزء من علم الشريعة . وليس علما اعلى منه  
كما يتصور البعض ، هذا العلم غيب يسائر الحق تبارك وتعالى به .  
ويمنحه باقدار متفاوتة لبعض عباده ، تحقيقا لحكمة علما هي الرحمة ..

.....

هذه القصة التي وردت في القرآن الكريم هي النبع الاول للصوفية  
الاسلامية . هذا البحر الغامض البعيد المنطوى على الاسرار هو حلم  
الصوفية ..

ان موسى مسلم اسلم وجهه لله ، والعبد الصالح مسلم اسلم وجهه لله ،  
وكل انبياء الله تعالى وأوليائه مسلمون أسلموا وجوههم لله ..

وهناك علم يمكن ان ينكشف بتور يقذفه الله في قلب العبد اذا صفا  
قلب العبد لله ..

والصوفية هم الذين صفت قلوبهم لله ..

ويتكرم الله عز وجل على اصحاب القلوب التي لا تشهد غيره ولا تحب  
سواه بالمكاشفات والاسرار .. وربما منح الله تعالى أو منح .. ربما قبض  
علمه أو بسط علمه .. مشيئته سبحانه وتعالى مطلقة نافذة ، والمنع والمنح  
ليس بسبب من جهد العباد وانما هما محض فضل من الله ..

وليس تجارب الصوفيين ومجاهداتهم الا تدريبات روحية لتصفية  
القلوب لله .. وبعدها ينتظرون ان يفتح الله عليهم ببعض اسراره سبحانه .  
هكذا ينظر بعض الصوفية الى القصة ..

.....

وانكار هذا النظر استبعاد وجود عباد يفتح الله عليهم ببعض أسراره ،  
يعنى انكار آية من آيات القرآن ..

كما ان بسط هذا النظر على كل من يدعى الصفاء خطأ بالغ ..  
لان علم الاسرار سر ..

ومميزات السر ان يحمله أقل عدد ممكن من القادرين ..

ونحن لا نعرف عدد عباد الله الذين يختصهم الله ببعض علمه وبعض  
اسراره لا نعرف اين هم .. ولا من هم ..

ان الفارق الجوهرى بين العلم البشرى وعلم الانبياء ، وعلم الاسرار ،  
هو الشيوخ والذيوخ ..

اذا انتشر العلم وذاع كان علما بشريا ، او علما من علوم الانبياء طبقا لنوعه  
اما علم الاسرار فمن صفاته الكتمان والصمت .. لقد كان العبد الصالح  
عنيفا مع موسى حين سألته ان يعلمه .. ولم يستطع موسى ان يصبر على  
هذا العلم .. رغم كونه موسى ..

لقد أرسل الله تعالى موسى لفرعون وهو يعلم أنه سيصبر على فرعون ويهزمه ..

وأرسل الله تعالى موسى لهذا العبد الصالح وهو يعلم أنه لن يصبر عليه وسيهزم صبره ..

ولو صبر موسى على العبد الصالح لعرفنا أسراراً كثيرة ..

ولكن الله تبارك وتعالى لم يشأ أن نعرف أكثر مما عرفنا ..

ولم يشأ سبحانه أن يعرف موسى أكثر مما عرف ..

معنى هذا أننا أمام علم لا ينكشف إلا بقدر محدود ، ولا يمنح إلا بحساب بالغ الدقة ..

هذا العلم الذى يسعى اليه الصوفية بعد العلم البشرى وعلم الأنبياء ولا يقوم الا بهما ، هذا العلم بالغ الصعوبة ..

وإدعائه أمر رهيب ..

هى دعوى هائلة وخطيرة .. والدليل الوحيد على الصدق فيها هو الصمت وكتمان السر ..

ولهذا قال بعض الصوفية « من تكلم خرج » ..

أو قالوا « من أفضى السر هلك » ..

وسنرى مصداق هذا النظر نفسه فى القرآن ..

سنرى أن الكلام فى هذا العلم يخرج صاحبه من مجال الرؤية أن لم يخرج من هذا العلم أصلاً .. فى قصة موسى والخضر ..

حين خرج العبد من الصمت الى الكلام ..

خرج من مجال الرؤية .. اختفى تماماً ..

قال لموسى « هذا فراق بينى وبينك » ..

ولم يكذ العبد الصالح يتحدث حتى خرج من آيات العرمان .. انطوى عليه بحر كلمات الله عز وجل ودلف الى خفاء الخفاء ..

لم نره بعد ذلك ولم نصادفه ..

إذا كان التصوف كما نعتقد دعوى ، دليل صدقها الوحيد هو الصمت



.. فهذا يفلق الباب نهائيا امام التصوف .. واذن فما هذا الذى نراه من انتاج الصوفية وكتبهم واشعارهم وقصصهم ..

واذا كان التصوف له اصل فى القرآن ، فلماذا لم نسمع الكلمة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .. وما هو التصوف اصلا ؟ ..

ولماذا لم يكن هناك صوفية فى عصره او بعد عصره ؟ ..

لماذا بدأ التصوف بعد ٢٠٠ سنة من رحيله الى الرفيق الاعلى ؟ ..

فى بحار التصوف ألف سؤال وسؤال ، والف غريق وغريق ، والف لؤلؤة ولؤلؤة ، والف محارة فارغة ومحارة مليئة بطين القساع .. وثمة حكايات لها المعجب مثل حكايات الاساطير فى ألف ليلة وليلة ، وبدا من قصص الجن وعجائبه سنجد قصص الأولياء وكراماتهم ، وهى ايضا عجائب ..

وهناك احتمال قوى ان نفرق فى هذا البحر لو لم تكن نجيد السباحة .. او نستخدم أدوات الملاحة الصحيحة ..

نفرد اشعة الروح البيضاء ونبحر ..

ما دما نسيح فى بحار القوم فلا مفر من استخدام اساليبهم فى هذه البحار .. ولا بد ان نبدا رحلتنا البحرية واشرعتنا مفتوحة لكل الرياح القادمة من ابواب الكون ..

ونريد عقلا محايدا قبل كل شيء ..

لا نريد احكاما مسبقة او افكارا جاهزة للحكم على التصوف قبل الخوض فى امواجه ..

سهل ان يقف المرء على الشاطئ ويفمض عينيه ويقول :  
ليس هناك بحر ..

واصعب كثيرا من ذلك ان يكابد الموج ويجرب السباحة او يحاول الوصول ..

سهل ان نقول ان التصوف بدعة .. او كلام فارغ .. ولكن هذا ليس حكما ..

لا يكون الحكم حكما الا اذا ملك ضمير قاض نزيه ، والقاضى لا يحكم  
فى الدعوى الا بعد النظر فيها وتامل الأدلة وامعان الفكر ..

نحن نبحث عن حقيقة التصوف ..

نحن اذن نبحث عن حقيقة ..

وكل انسان فى الارض يبحث عن حقيقة ..

والبحث عن الحقيقة يفترض حياد الباحث وتجرده ..

بعد رحلتنا قد نقف ضد التصوف .. وقد نقف مع التصوف ..

لا نعرف من الآن اى شاطيء سوف نرسو عليه ..

ولكننا عندما نفعل .. سنكون مدركين لماذا نقف على شاطيء الرفض  
او شاطيء القبول ..

لنبدا رحلتنا بالأسئلة ..

ما هو التصوف ..

ما اصل الكلمة ..

وما معناها ؟

يقول الصوفى ابو تراب النخعى ( متوفى سنة ٢٤٥ ) الصوفى لا يكدره  
شئ ، ويصفو به كل شئ ..

اى انسان هذا الذى لا يكدره شئ ، ويصفو من حلال عينيه كل شئ ...  
ويصفو به الكدر ذاته ..

اى انسان هذا ..

اى قلب يحمله مثل هذا الانسان ..

هل هناك وجود حقيقى لمثل هذا المخلوق ..

يقول الصوفية ان هناك وجودا لهذا المخلوق . فمن صفا قلبه لله وشاهد  
حكيمته ورأى بديع صنعته لم يكدره شئ . حتى الكوارث والالام لا تخذل  
صفاءه . ومن وصل لهذا الحال صفا فى عينه ملك الله . وصار اذا اخلف  
بالحياة صفاء يضاف الى عكازتها ..

ولماذا نأخذ عن الصوفية .. لو أخذنا عن الفقهاء فسوف نجد أحمد  
ابن حنبل يقول في سجنه أيام المحنة ..

ـ أنا جنتى فى صدرى ..

وكان الناس يواسونه ويحاولون تهوين قسوة السجن عليه ، فافهمهم  
انه ليس سجيناً انما هو فى الجنة ، لان جنته فى صدره ..

.....

ترتفع أمواج البحر ..

رغم أننا لم نزل على الشاطئ ..

صعب ..

الدخول على القوم صعب ..

ما هو اصل كلمة التصوف .. اصل الكلمة محل خلاف بين العلماء  
هناك القائلون باشتقاق الكلمة من اهل الصفة الفقراء الذين كانوا ينزرون  
فى جانب من مسجد الرسول ويبيتون فيه لانهم لا يملكون تقودا يستاجرون  
بها بيوتا ..

وليس صحيحاً أن التصوف مشتق من اهل الصفة ..

ايضا يختلف العلماء على الصفاء .. والصوف ..

فى العلماء من يقول ان التصوف لفظ مشتق من الصفاء ، ومنهم من  
يقول انه لفظ مشتق من ارتداء الصوف ولبس خرقة الصوفية وهناك من  
يقول ان التصوف لقب ، وقد استمرض الدكتور أبو العلا عفيفى فى كتابه  
« التصوف ، الثورة الروحية فى الاسلام » أكثر من خمسة وستين تعريفاً  
للتصوف .. وقال بعد ذلك .

« كنا نطمح بعد دراسة خمسة وستين تعريفاً للتصوف ان نجد معنى  
عاماً مشتركاً ينظمها جميعاً ، ولكننا لم نظفر بهذا المعنى على وجه التحديد  
ووصلنا الى معنى قريب منه » ..

وسر هذه الحيرة أن تعريفات التصوف شخصيه لحسد بعيد . فكل صوفي يعبر عن حاله . . وأحوال الخلق الروحية تختلف مثلما تختلف أحوالهم في المعاش . .

وللتشيري رأى لطيف في تعريف التصوف انه لا يحاول أصلا تعريفه ويرى أن اسم التصوف لقب . .

« ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر أنه كاللقب » . .

ومعنى كلامه ان التصوف لقب لا يسأل عن معناه او اشتقاقه كما لاحظ د. أبو العلا عفيفي . .

هذا معناه أن الصوفية يوصدون الباب حتى امام من يسألهم عن معنى اسمهم . . وهذا دليل على أمر من أمور ثلاثة ، أما أن التصوف سر ، وإنما انه أمر خلافي بحث ، وأما أنه متعدد الجوانب كالفن الفنى ، وسوف نترك للقارئ أن يجد الجواب بنفسه . . ولنتنظر نحن في الموج محاولين قراءة الكتابات الكثيرة التي كتبها الصوفية على الماء . .

.....

ان بشر بن الحارث « الحافى » وقد لقب بالحافى لأنه خلع نعليه يوما وأسرع يجرى في الرمضاء فلم يدركه أحد . ان بشر الحافى بقول في تعريف التصوف « الصوفي من صفا لله قلبه » .

مات بشر ببغداد سنة ٢٢٧ .

ان نجد قبل المائة الثانية من الهجرة تعريفات للتصوف . .

لم يكن التصوف معروفا كمذهب روحي له مدارس وتبويحه . . كان الزهد هو المعروف . .

لهذا نجد معظم تعريفات التصوف بعد القرن الثاني للهجرة . .

فال معروف الكرخي ( توفي سنة ٢٠٠ هجرية ) .

« التصوف هو الأخذ بالحقائق والياس مما في أبدى الخلق » . .

يريد معروف أن يقول أن التصوف أخذ وبأس في نفس الوقت .. أخذ لحقائق الآخرة وبأس من دنيا الناس .. والأصل اللغوي للدنيا هو الدنو والتدلى والتدنى ..

وإذا يرتفع معروف الكرخي عن الدنيا ويزهّد فيها ، ويسلك طريق الأخذ بالحقائق ..

ويقول فريد الدين العطار صاحب كتاب منطق الطير :

« الصوفي من إذا نطق كان كلامه عين حاله فهو لا ينطق بشيء إلا إذا كان هو ذلك الشيء » ..

تأمل قول الرسام العالمي الشهير فان جوخ - بعد ذلك بعشرة قرون - عندما أرسم زهرة .. أصبح أنا الزهرة ..

لاحظ أن معنى العبارتين واحد ..

فهل يكون التصوف فنا ..

سؤال نظرته وانتظر قبل الإجابة عليه مزيداً من النظر . سئل سمونون المحب عن التصوف فقال ..

« ألا تملك شيئاً ولا يملكك شيء » ..

ليس هذا الكلام فنا في حد ذاته ..

يحكي القشيري قول الصوفية « الصوفي ابن وقته » ..

ليس هذا تجسيدا لحال جميع الفنانين المتقلبين ..

في تعريفات التصوف من يمت بصلة إلى الفن ، وفيها ما يمت بصلة إلى الحقيقة الدينية ، كقول رويم حين سئل عن التصوف فقال « أسترسال النفس مع الله تعالى على ما يريده » ..

وفي التعريفات ما ينتمى إلى الزهد كقول أبي حمزة البغدادي وكان معاصراً للجنيد « علاقة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الفنى ، ويلب بعد العزة ويخفى بعد الشهرة ، وعلاقة الصوفي الكاذب أن يستغنى بعد الفقر ، ويمز بعد اللب ويشتهر بعد الخفاء » ..

وفي التعريفات ما سمي إلى فلسفات معقدة في التوحيد كقول أبي بكر

الشبلى (توفى سنة ٣٣٤ ) التصوف شرك ، لانه صيانة القلب عن رؤية الغير ولا غير ..

يريد أن يقول أن التصوف لون من ألوان الشرك ، لانه يصون القلب عن رؤية الدنيا .. وليس هناك غير الله .. الدنيا أو الكون لا وجود له ولا قيام له وليس هناك إلا الله .. يريد الشبلى أن يخترق ببصره المكونات إلى الكون ، والمصنوعات إلى الصانع ، والخلائق إلى رب الخلائق ..

وهذا تعبير آخر عن حالة الفناء أو وحدة الشهود ..

سنعثر على تعريفات عديدة للتصوف .. وهي تعريفات تتحدث عن أحوال .. والأقوال عن الأحوال عادة لا يمكن فهمها إلا إذا مرونا بهذه الأحوال ..

ونحن نفضل البحث عن تعريف جديد للتصوف كتجربة روحية .. وأدجج ما نراه أن التصوف هو فن الوصول إلى الله ..

وربما أسفر هذا الوصول عن جذبة تعترى العقل فاذا العقل ذاهب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ..

وربما أسفر هذا الوصول عن رؤيا فنية بالغة العمق والتعقيد كمذهب وحدة الوجود .. وربما أسفر هذا الوصول عن عشق يدعو إلى الجنون فاذا الصوفي يصرخ « ما في الحجة إلا الله » .. وإذا السيوف والنعال ترتفع إلى رأسه ..

وربما أسفر هذا الوصول عن ثبات في الدين وتمكن في العقيدة .

اختلفت مصائر الصوفية كما اختلفت طرائقهم في التدقيق وإن جمع بينهم جميعا خيط واحد ..

الحب ..

أنهم يرون أنهم يحبون الله كما لا يحب أحد ..

وهم يرون أن الحب نسيج أصيل في الكون ، وسر غائر من أسرار ..

يقول الرازي أن الآيات الواردة في القرآن عن الأحكام الشرعية أقل من

ستمائة آية ، وان البواقي في بيان التوحيد والنبوة والسعة الى الله ..  
والقرآن يذكر كلمة الحب وينسبها الى الله تجاه البشر ، وينسبها الى  
البشر ازاءه سبحانه ..

قال تعالى على لسان خاتم رسله :  
« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم »  
آل عمران (٣١) .

وقال تعالى حاكيا عن موسى :  
« والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني » سورة طه (٣٩) .  
وقال تعالى مخاطبا عموم المؤمنين :  
« ان الله يحب المتقين » سورة التوبة (٩) .

وقد فسر الامام الغزالي حجة الاسلام قوله تعالى : « والذين آمنوا  
اشد حبا لله » فقال .. اثبت الله تعالى الحب ، واثبت انه يزيد عند المؤمنين  
لقوله تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله  
والذين آمنوا اشد حبا لله » سورة البقرة (١٦٥) .

وينظر الصوفية أساسا الى الحب كعنصر أصيل من عناصر الكون  
وسبب هام من اسباب الخلق ..

يقول الله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ..  
والعبادة قمة من قمم الحب وكمال من كماله ..

وقد فسر ابن عباس كلمة العبادة بالمعرفة وفرا الآية هكذا وما خلقت  
الجن والانس الا ليعرفون ..

والمعرفة لازمة للحب .. هي سبب الحب .. ومن عرف عن الله أكثر  
أحبه أكثر .. ومن لم يعرف عن الله الا القليل كان حبه على قدر معرفته .  
ويتوقف الصوفية كثيرا أمام قوله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم  
يحبهم ويحبونه » .

نريد أن نلاحظ أن الله لا يخوف الذين يرتدون عن دينهم بأن يلقاهم في النار أو يصب عليهم عذاب الجحيم بما فيه من نحاس مصهور ، نريد أن نلاحظ أن الله يخوف المرتدين بالحب .. بأن يستبدل بهم قوما يحبهم ويحبونه ، والارتداد من الدين شرك ، والشرك فساد في العقل وهو أشرف ما في الإنسان ، وكان الله تعالى يهدد اقصى الذنوب وأرهبها بأرق ما في الوجود وأعذبه وهو الحب ..

يقول جلال الدين الرومي أن كلمه « يحبهم » يعين كامل ، أما كلمة « يحبونه » ، فمن ذا الذي يصدق عليه هذا الوصف .

يشير الرومي كمادة الصوفية بانجاز الى معنى بالغ العمق ..  
ان الحب عطاء وتكرم ..

والله هو الذي يملك العطاء وحده والكرم ..  
والله هو الذي يحب حبا ..

أما كلمة يحبونه .. أما الحب البشري .. في أرفع صورته .. حتى لو كان موجها الى الله .. فماذا يستطيع أن يعطى ..

لا شيء ..

لو أعطى الإنسان وقته لله ، فالوقت ملك لله أصلا .

ولو قدم الإنسان كل ماله لله ، فالمال وديعة الله عند عبده .

ولو فرق الإنسان جسده في سبيل الله شظايا فهذا الجسد ملك لله ، هو خالقه من تراب ثم من نطفة .

لا يعطى الإنسان لله شيئا .

لا يملك أن يعطى من معنى الحب سوى شاطئته .

أما الله عز وجل فهو المعطى الوهاب حقا ..

هكذا ينظر الصوفية الى العالم ..

انهم يرون الحب قانونا حاكما في الوجود .. وسببا في .يلاد الكون .



ونسيجا تشف به الحياة على رحابتها وجلالها .. وهم يرون ان الله قد خلقنا ليتفضل علينا بحبه ، ويتفضل علينا مرة ثانية بأن يسمح لنا بحبه .. قال تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ..

هل يشتري الله عز وجل - رغم أنه مالك كل شيء .. هل يشتري الا شيئا يحبه ..

ان الله تعالى يلفظ « اشترى » يقرب من اذهان البشر أهمية العطاء .. والعطاء هو أول عطر يخرج من شجرة الحب ..

إذا كان التصوف هو فن الوصول الى الله .. أو هو من عبادة الله .. أو هو حب الله تبارك وتعالى .. إذا كان هذا حقاً فهل كان عصر رسول الله وعصر الخلفاء الراشدين أقل حبا لله من عصر المائة الثانية بعد الهجرة .. حيث ظهر التصوف ..

نريد ان نسأل لماذا لم يظهر التصوف في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

الجواب على السؤال يسير .. كان عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد العصور حبا لله ، وكان الرسول أشد الخلق حبا لله لأنه كان اعرف الخلق بالله ، ولقد تحدث الله تعالى عن ابي الانبياء ابراهيم فقال « واتخذ الله ابراهيم خليلاً » .. ومعنى الخلّة شدة المحبة .. اما خاتم النبيين فقال الحق تعالى في حقه « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ..

واطلاق الرحمة عليه هذا الاطلاق يعني انه أشد عباد الله حبا لله .. لان الرحمة أعرف بالرحمن الرحيم وأحب ..

وإذا .. تسقط دعوى حب الله حبا يقرب من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يساويه ..

**لماذا لم ينشأ التصوف في عصره صلى الله عليه وسلم ؟**

لم يكن التصوف قضية مطروحة في عصره كانت قضية قد استهلكت واستنفدت أغراضها .

يقول بعض الصوفية ان الرسول مر بتصفية النفس قبل ان يكون نبيا ،  
فقد كان يتحنث في غار حراء ..

ونحن ننفي عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصف تصفية النفس ،  
لان نفسه كانت صافية ولا تحتاج الى صفاء لم يكن يتعبد لانه متعكر ، وانما  
لانه متحير ، ولم يكن تحنثه في غار حراء هو سبب هبوط الوحي عليه ..

لم يهبط الوحي عليه لانه ارتقى في تجاربه الروحية حتى اوحى الله اليه  
انما هبط عليه الوحي اصطفاء من الله واختيارا لا دخل له فيه ولا تطلعات  
منده اليه ..

قال تعالى « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » فنفي عنه انه  
كان ينتظر الرسالة او الوحي او يدري عنهما شيئا او عن الكتاب او الايمان  
اي القرآن والتكاليف الشرعية ، لم يكن التصوف قضية مطروحة في عصر  
رسول الله صلى الله عليه وسلم لسبب آخر .. ان تصفية القلب له معنى  
السير على سنة رسول الله ، ولم يكن رسول الله قد انهى رسالته لتبدأ  
التجارب الروحية بهدف تصفية القلب ..

ايضا لم يظهر التصوف في عصر الرسول كفن من الفنون المعقدة لانشغال  
المسلمين بما هو اخطر ..

كانت هناك امباء نشر الدعوة .. وهى امباء فادحة ..

وكانت هناك المعارك الساخنة بين السيوف ، ومعارك الجدل القائم  
في الاسواق والتجمعات .

وكان المسلمون يعبرون عن حبهم لله بالقتال في سبيله دفاعا عن الدعوة  
اولا ، ونشرا لمبادئها ثانيا ..

كان الحب يأخذ شكل التعبير العملى ..

كان الحب عملا ..

لم يكن مجرد اقوال تقال في الليل .. والليل يدهن الكلمات بالزبدة .  
فاذا طلعت عليها الشمس ذابت واسفر وجه الحقيقة ..

وكان طبيعيا ان تلد النزعة العملية لايام الاسلام الاولى . مع جفاف

الحياة وانشغال الاوقات ، كان طبيعيا ان يولد الزهد من هذا كله . .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم زاهدا بكل ما تحمله كلمة الزهد من معان حقيقية .

كان ينام على حصيرة في الأرض . . حتى لتترك الحصيرة آثارها في جنبه الشريف . . وكان يأكل فلا يشبع ، تصفعا ان يأكل وفي أرض الله جائع ، وكانت عائشة من بيت غنى هو بيت ابي بكر ، وكانت تأكل في بيت أبيها افخر الاطعمة ، فلما صارت اما المؤمنين بزواجها من رسول الله قالت « كنا لا نوقد النار ثلاثة ايام متتالية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل القديد ( الخبز الجاف ) وغموسه الزيت » .

كان الرسول زاهدا فقيرا . . وقد شكته نساؤه يوما لانه لا يزيد في النفقة عليهن ، ولم ترد بناته الذهب ولا ليست نساؤه الحرير ، وحين مات صلى الله عليه وسلم . . مات ودرعه مرهونة عند يهودى في طعام اشتراه لاهل بيته . .

هذا المحارب في سبيل الله دائما ، المجاهد في الله أبدا كان زاهدا وبدور الزهد موجودة في آيات القرآن .

« ففروا الى الله انى لكم نذير مبين » .

« وما الحياة الدنيا الا لهو ولعب » .

« وما الحياة الدنيا الا متاع الفرور » .

تأمل قوله عن الحياة انها لهو . . ولعب . . واللغو هو اللعب كما يتبادر الى الذهن . . ولكن هناك معنيين للهو وللعب ، وهما - باعجاز القرآن - معنيان يستغرقان حقيقة الدنيا وباطنها الاجوف .

ولقد فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات حق الفهم . . محارب لنشر الاسلام معرضا حياته للقتل . .

وفهم الصحابة قدر الدنيا فآثروا عليها الآخرة وعملوا في الدنيا ، لان الدنيا - رغم تفاهتها - هي الطريق الوحيد للآخرة ، وهو طريق هام وخطر رغم فمهو اليسيرة . .

ايضا فهم التابعون معنى الزهد ..  
وسيطر على المسلمين في السنوات الاولى للدعوة ، فهم حقيقى الدعوة  
كان الجهاد هو رهبانية هذه الامة الجديدة ..

كان لليهودية رهبان ، وكان للمسيحية رهبان ، وكان للأديان رهبان ،  
وكان هؤلاء الرهبان ينقطعون في الصحراء ويعيشون في الاديرة ويتدارسون  
في دينهم ويتجنبون الدنيا ويتأملون في الكون ، وكان للاسلام رهبان ايضا ،  
ولكن رهبانا من لون جديد .. رهبان في الليل وفرسان في النهار .. واحيانا  
فرسان في الليل وفرسان في النهار .. فقد كان خالد بن الوليد يقاوم  
عدوه احيانا في قلب الليل .. وكانت المعارك العسكرية تستغل اوقات  
المسلمين سواء كانت ليلا ام نهارا ..

وهكذا كانت الايام الاولى في الاسلام .. كانت الفروسية والجهاد هما  
رهبانية المسلم ..

روى عن رسول الله قوله « لكل امة رهبانية ، ورهبانية هذه  
الامة الجهاد » .

وفي الايام الاولى للاسلام لم يكن الفرسان العظام يجدون وقتا للتصوف  
.. او اجراء التجارب الروحية .. كانوا مشغولين بالحرب والجهاد ..

وظلت الشعلة التي اوقدها الرسول صلى الله عليه وسلم تدفع المؤمنين  
وانطلقت سيوف المسلمين تحطم أسوار الشعوب السجينة .. وتطلق الحرية  
للمحرومين من الحرية ، وتفك السلاسل التي تكبل العقول ان تبحث  
وتنطلق وتعرف خالقها الأحد ، ومرت ايام الله تعالى وانتقل رسول الله  
صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى .. وحكم المسلمين بعده أبو بكر  
الصديق ، ثم تلاه عمر بن الخطاب ، ثم ولي أمور المسلمين عثمان بن عفان .  
وقتل عثمان والمصحف في يده ونساؤه حوله .. وقتل علي بن ابي طالب  
رابع الخلفاء الراشدين كرم الله وجهه ، واستمرت الفتنة الكبرى ..

وارتفعت سيوف المسلمين بصد ان جرها الصراع السياسي للذهابية  
معاوية ، وسالت الدماء .. وتغير الوقت .. وولد التصوف من افكار عديدة  
.. افكار ودماء وكلمات وقضايا ومواقف ..

وكان لا بد للتصوف أن ينبع منها ..  
وقد نبع التصوف من مصادر عديدة ..  
من حق الواقف أمام البحر أن يسأل نفسه .  
كيف تولد البحار ؟

ومن أين تجيء كل هذه الأمواج والمياه والتيارات المائية وحركة الرياح ..  
وما هي العلاقة بين الرياح والتيارات البحر وحركة دوران الأرض وحركة  
دوران النجوم والمجرات ..  
نحن نعرف أقل القليل .

وان كان كبرياؤنا يصور لنا أننا نعرف الكثير ..  
من بين ما نعرفه أن البحار تولد عادة من بكاء السحب ..  
في البدء يصطدم سحب يحمل شحنة كهرباء موجبة ، وسحاب يحمل  
شحنة كهرباء سالبة ..  
ومن الصدمة يولد البرق .. بعد ثوان من ميلاد البرق يرتج الأفق  
بصوت الرعد ..  
ثم تسقط الأمطار .. تذيب قمم الجبال وتذيب معادنها وصخورها  
وتحفر مجاريها وتشق طريقها نحو البحر ..  
يوما بعد يوم تعلو أمواج البحر ..  
وكل الأنهار تجري الى البحر والبحر ليس يملأ كما تفول التوراة ..

.....

هذا تفسير علمي لميلاد البحار ..  
وهناك تفسير آخر لميلاد البحار ..  
تفسير غير علمي وغير موضوعي .. تفسير عاشق أخرجه السهر  
والوجد عن صوابه الى صواب أعمق . نفترض أن عاشقا مثل ابن الفارض  
يريد أن يفسر لنا ميلاد البحر .. يقول أكثر من أربعة أبيات من الشعر :

أبرق بدا من جانب الفسور لامع

ام ارتفعت عن وجهه ليلي البراقع

## انار الفضا ضاءت وسلمى بدى الفضا

.. ام ابتسمت عما حكته المدامع

ان ابن الفارض يعلم ان البرق يولد فى السماء ، ولكنه - بوصفه سلطان العاشقين - يرى ان وجه الحبيبة او وجه الحقيقة هو البرق ..

وهو يرمز لهذا الوجه باسم ليلى ..

اى ليلى .. نحن نعرف ..

هل هناك ليلى فعلا ام انه يحترق الى الحد الذى نخجل ان نسأله

اين ليلاك ..

كل ما نعرفه ان هذه النار التى اضاءت هناك وسلمى جوارها ..

كانت تشبه ابتسامة بكت فيها سلمى ..

## انشر خزامى فلاح ام عرف حاجر

بام القسرى ام عطر عزة ضائع

اختلفت الروائع على العاشق فلم يعرف مصدر هذا المطر .. لم يعرف

كم قطرة من البنفسج وكم ذرة من الياسمين وكم جزيئا من الفل .. لم

يعرف هل جاء هذا المطر من خزامى .. ام من حاجر .. لم يعرف هل

جاء العطر من المدينتين الشهيرتين بصنع ائمن العطور .. لم يعرف وان

ادرك فجأة ان هذا عطرها هى ..

عطر عزة الضائع ..

لماذا ضاع عطر عزة من الحياة وظل فى عقل العاشق ..

هذا سؤال سخيف فلا تسأله للمحبين ..

تضيع الاشياء فى دنيا الحب لانها ينبغى ان تضيع .. ولو بقيت لما صار

لها معنى سوى التطفل ..

يحب الشاعر حتى الآن ثلاث نساء - اذا اخذنا كلماته بنص معناها -

وهو يحب امرأة واحدة اذا أدركنا مراده الحقيقى ..

فى البيت الرابع سنراه يضيف اسما ..

الا ليت شعرى هل سلمى مقيمة

بوادى الحمى حيث التيسم والع

اسمها سليمى ..

حبيبته الرابعة عند الحمقى وقصار النظر ..

والحق ان الرجل ليست لديه حبيبة لانه يعدد الاسماء ، وما دام يعددها فهذا معناه انه يسبح نحو بحار أخرى تتجاوز الاسماء ..

نحن امام متيم والع . هذا نص كلماته .. والعاشق اذا احترق رفعت منه الجزية فأسلم ، وخرج من نطاق الشرك الى التوحيد ، ولان القرية التى تحترق لا تطالب بشيء سوى أن تظل والممة وكذلك العاشق .. هو الأولى ان يظل مضيئاً باشتعاله ..

.....

هذا تفسير عاشق لميلاد البحر ..

ان بحار الحب ولدت عنده داخل منطقة مجهولة في عقله او في قلبه او في روحه ..

المنطقة مجهولة مرتين ..

مرة نحن لا نعرف هل هي في قلبه ام في عقله ام في روحه ..

مرة ثانية نحن لا نعرف في أى مكان هي في هذا الجزء من الحياة المجهولة .. الغامضة ..

أى تفسير تحبون أن نناقش به ميلاد التصوف ومصادره .

أى اجابة تحبون ان نكتبها على الرمال عن سر ميلاد البحار عند الصوفية ..

.....

نسأل شاعرا كان عاشقا هو الآخر ..

يقول محمد اقبال « ليس من الصواب ان نرجع كل ظاهرة تظهر في احدى البيئات الى العوامل الخارجية .. فنهمل بذلك العوامل الداخلية ، ان اى فكرة من الافكار ، لا يمكن أن يكون لها سلطان على النفوس ، الا اذا كانت تمت لهذه النفوس بصلة ، والعوامل الخارجية تجيء ليقاظ هذه

الفكرة ، ولكنها لا تخلقها خلقا .. وعندما بحث المستشرقون في أصل التصوف ، ذهبوا الى ان مصدره هذا العامل أو ذلك ، وسسوا ان أى ظاهرة عقلية ، أو تطور عقلى فى أمة ، لا يكون لهما معنى ، ولا يمكن فهمهما الا على ضوء الظروف العقلية والسياسية والدينية والاجتماعية التى عاشت فيها هذه الأمة قبل ظهور تلك الظاهرة » .

يقول د. أبو العلا عفيفى :

« بهذه العبارة الموجزة الرائعة لخص اقبال النغد الاساسى الذى يريد ان توجهه الى المستشرقين فى نظرياتهم لنشأة التصوف .. وأشار الى الطريق الحقيقى لمعالجتها » ..

ما هو السر فى حماس الدكتور أبو العلا عفيفى وهو اساذ للفلسفة لرأى شاعر صوفى ؟

سر الحماس ان المستشرقين — او معظمهم — وقع فى خطأ مبدئى حين ناقش التصوف وبدأ يبحث عن أسبابه ..

وتمثل هذا الخطأ فى انهم لم يأخذوا بمنهج اختلاف المستويات وتمدد المصادر ..

قالوا ان هذا البحر ولد من هذه السحابة التى مرت من هناك .. ونحب — بادئ ذى بدء — ان نقول ان ارجاع التصوف لمصدر واحد أمر يفتقر كثيرا الى الدقة فضلا عن تجاوزه للصواب ..

وكل الآراء الاحادية النظرة ، أو التى تعتقد ان هناك مصدرا واحدا لنشوء الافكار ، كل هذه الآراء تقع فى اخطاء فادحة حين تقدم نفسها الينا فى بداية ابحائه ، لجا المستشرق نيكلسون الى التعميم فقال ان التصوف بكل نظرياته اسلامى اساسه القرآن واتهم المستشرق القرآن بالاضطراب والاختلاف لانه وجد اضطرابا واختلافا فى نظريات التصوف ، وكان اضطراب منطقته هو السر فى حكمه الخاطيء ..

وقال المستشرق كريم ان الفضل فى نشوء التصوف الاسلامى يرجع الى الرهبانية المسيحية المؤسسة على الخوف من الله والرغبة من الجحيم



.. وغفل كريم أن القرآن يحتشد بمشاهد القيامة والجحيم وفيه مجال خصب لامكان التطور بما لا يخرج عنه ..

ولكى نحدد أنفسنا ابتداء ..

نقول أننا لن نرجع لأحكام المستشرقين في أمور التصوف .. لا بأس أن نقرأ إبحاثهم ، ولا بأس أن نعترف لهم بفضل اكتشاف كنوز التراث الصوفي ، ولكننا تؤمن بهذه النظرة العلمية الحرة التي أوردها الدكتور عبد القادر محمود في كتابه « الفلسفة الصوفية في الاسلام » يقول

« لا أنكر أن بحوث المستشرقين قد افادت البحوث الإسلامية رغم عمومية أحكامها أحيانا وتعصبها أحيانا أخرى . ودقة بعض مفهوماتها في القليل النادر ، ولا شك أن بعد المستشرقين جميعا عن الروح الإسلامي عامل هام في كل هذا ، وبخاصة إذا ذكرنا أن دراساتهم للتصوف الإسلامي لم تبدأ إلا في القرن التاسع عشر لأول مرة » ..

هناك عبارة خطيرة في رأى الباحث ..

« بعد المستشرقين عن الروح الإسلامي » ..

هذه العبارة هي المسئول الأول في رأينا عن تعصب المستشرقين وآرائهم الخاطئة وهذا السم الذي دسوه لنا في العسل ، وهذه الأحجار الزجاجية التي قدموها إلينا باعتبارها قطعا من الماس الأصيل ..

أن التصوف الإسلامي ذوق وشهود .. وليس علما باردا يمكن أن يناقشه عالم يرى ببصره وإن كانت بصيرته عمياء ..

من الصعب على الباحثين في التصوف الإسلامي فهم التصوف بغير تذوق له .. سواء كان هذا التذوق دنييا أو حضاريا أو أدبيا ..

فما بالك بمن لا يؤمن بالاسلام أصلا ..

والأصل أن الزهد هو الأب الشرعي للتصوف .. ونحن نعرف أن الزهد في العصر الإسلامي الأول لم يكن حركة من الحركات الدينية ، ولا مذهباً من المذاهب ولا نظاماً جماعياً ، بل كان إحساساً قلبياً بتفاهة الحياة وبساطة

الموت وهذه الرغبة في نشر الاسلام ..

والظاهر من سير بعض المجاهدين في الاسلام ، ان الجهاد كان يحظى بنفس النظرة التي انتصت فيما بعد بالزهد ، ثم انتقلت منه الى التصوف .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **مرابطون الى يوم القيامة** » ..

واشار بكلمته الى ان الجهاد قائم طالما ان الحياة قائمة ..

غير ان الحياة اوقعت المسلمين في أكثر من أزمة .. وجاء على المسلمين وقت تراءفت فيه المحن فصار الزهد والبعد عن الأحداث هو افضل جهاد ممكن ..

وقعت الفتنة الكبرى في تاريخ الاسلام استميت بدورها ان تظهر يوم انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرقيق الاعلى . وان أحدث النبا اضطرابا هائلا في المدينة المنورة ..

اظلمت المدينة واظلم فيها كل شيء ..

وبكى المؤمنون وحى السماء الذى انقطع ..

وبكى المسلمون رحيل سيد الخلق وخاتم النبيين عن دنياهم ..  
وكان السؤال المطروح يومها :

**من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في حكم المسلمين ..**

وحسم الموقف شخص ابى بكر وتاريخه . كان ابو بكر قد ولى الامامة الصغرى حين ام الناس في الصلاة بناء على طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض الموت ورغم معارضة عائشة فقد اصر النبي على امره ، وصلى ابو بكر بالناس ..

ولقد خشى بعض المسلمين ان يلى امورهم هذا الرجل اللين الدمث الذى يبكى اذا صلى حتى تخفل لحيته بالدموع . وتحول هذا الرجل فيما بعد الى سيف صارم من سيوف الله في الارض حين بذات ماساة الردة وحين مات ابو بكر رضى الله تعالى عنه عادت الفتنة تحاول رفع رأسها ثم حسم الموقف شخص عمر بن الخطاب وتاريخه ، وحشى بعض المسلمين ان يلى امورهم هذا الرجل الشديد الذى يبطش اذا غضب ، وتحول هذا

الرجل فيما بعد الى رقة الحليم ، وحكم المسلمين حكما سيظل مثلاً أعلى  
لنزاهة الحكم الشرى ..

ورغم أن عمر بن الخطاب كان يحرك بأوامره جيوشاً فتحت دمشق ،  
واندحرت أمامها الفرس في القادسية ، واندحر أمامها البيزنطيون في اليرموك  
ورغم أن جيوش عمر بن الخطاب فتحت مصر وفارس ..

رغم هذا كله ، لم يكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يملك حرساً خاصاً  
يستطيع أن يدفع عنه الخيانة إذا امتدت إليه الخيانة ..

إن غلاماً فارسياً هو أبو لؤلؤة فيروز ، كان يعمل في المدينة في خدمة  
حاكم الكوفة المغيرة بن شعبة ، جاء إلى عمر بن الخطاب يشتكى إليه  
شيئاً - فلم يجبه الخليفة لأنه رأى الحق ليس في جانبه ، فلما كان صباح  
اليوم التالي وانتهى الخليفة إلى المسجد ليؤم المسلمين في صلاة الفجر طعنه  
الفارسي بخنجره طعنيتين ..

وكان سؤال عمر بن الخطاب وهو يموت عن قتاله وسر قتله ، فلما عرف  
أن قتاله مجوسى وقد قتله لأسباب ليست عامة ، اطمأن بأنه أنه مات على  
العدل فمات ..

وكان عثمان بن عفان هو ثالث الخلفاء الراشدين .. ولم يكن يملك  
مثل شخصية سلفيه العظميين .. اتفق المسلمون عليهما واختلفوا فيه ..  
وقد وقعت في عصره أخطاء تبرئته منها - تأدياً - ونسبها لمن حوله من  
معاونيه ..

في العام الرابع والثلاثين من الهجرة النبوية انقض الثائرون على منزل  
الخليفة وقتلوا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه وهو جالس يقرأ المصحف  
في هدوء ، وسال دم الخليفة على قميصه وسال على نسخة القرآن التي  
كان يقرأ فيها ..

ولعب قميص عثمان دور البطل بعد موته ..  
وتداعت الأحداث وبدأت الفتنة الكبرى في الاسلام . وحمد الله أنها  
لم تكن فتنة في كتاب الامه الاسلاميه . وانما كانت فتنة سياسية تتصل  
بصاحب الحق الاول في حكم المسلمين ..

وسالت دماء كل قطرة منها تكفى لملء الكون بحزن ثقیل فاجع .. قتل  
على بن أبى طالب كرم الله وجهه بعد خمس سنوات من قتل عثمان ، وكان  
ذلك فى مسجده بالكوفة وهو قائم يصلى ، وقد قتله رجل يدعى ابن ملجم  
وكان معه مهرا لامرأة تسمى قطام .. وكان دمه مهرا لزواج معاوية من  
السلطة السياسية وانفراد بهحكم الدولة ..

بعد تسعة عشر عاما من قتل على بن أبى طالب فى الكوفة ، قتل  
الحسين فى كربلاء واجتز القتلة رأسه الشريف وحمله الى يزيد بن معاوية  
ابن أبى سفيان زوج هند آكلة كبدة حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم .  
تمضى سفينتنا فى موج من الدم ..

سحاب من الفتن كقطع الليل يمضى وراء سحاب .. والظلمة تشتد  
وتتكاثر .

وثمة مواقف حجيبة ..

فتن تقف منها قوى متكافئة فى الفضل مختلفة فى الاتجاه والنظر  
والآراء والمواقف ..

واقعة الجمل مثلا .. وقوف على ضد عائشة ..

« وتوقفت المعركة امام الجمل الذى كانت تمتطيه السيعة عائشة  
ام المؤمنين وتستفز من على ظهره المقاتلين حسب العادة العربية العريقة ،  
ولم تتم الغلبة لعل الا بعد ان غفر الجمل الذى خلع اسمه على هذه  
المعركة » ..

نفترض اننا كنا نعيش فى هذا العصر لای جيش كنا ننضم ..

هل ننضم لجيش على بن أبى طالب ونرفع السيف على عائشة ..

ام ننضم لجيش فيه عائشة لنرفع السيف ضد على ..

ان علينا لا يقف مع الباطل ..

وعائشة لا تقف مع الباطل ..

والامتحان بالغ الصعوبة ، وافضل للمرء ان يجرر اقدامه نحو جبل  
بعيد ويهجر هذا كله وينزوى ..

وهناك امتحانات يكون النجاح فيها هو الهرب منها .. وهذا ما فعله  
بعض المسلمين يومئذ ..

انسلخوا من الحياة العامة ، وهجروا المجتمع الذي راح يتناقش  
بالسيوف والحرا ب ، وآثروا البعد عن لعبة السياسة الأموية القلدة التي  
ارتدت قميص عثمان وطالبت بدمه وهى تفكر فى الحكم أولا وفى السياسة  
أخرا ..

وهكذا دفعت الأهوال والفتن كثيرا من المسلمين الى الفرار بدينهم  
والزهد فى المساهمة فى الحياة العامة ، حتى ان جماعة من أهل بدر لزموا  
بيوتهم واتخذوها منازل للأخرة .. فلم يخرجوا منها الا الى قبورهم ..  
وفى المسلمين أيامها من عمد الى الصمت المطبق فمه .. روى الجاحظ أن  
رجلا قال صحت الربيع بن خيثم سنتين فما كلمنى الا مرين خلال  
العامين ..

سألتنى : امك حية ..

وسألتنى مرة أخرى : كم فى بنى تميم من مسجد ..  
فلما قتل الحسين بن على أتى قوم اليه فقالوا لنستخرجن منه اليوم  
كلأما .. قالوا يا ربيع .. قتل الحسين ..

وجم الربيع .. ثم قال بعد فترة صمت « الله يحكم بينكم يوم القيامة  
فيما كنتم فيه تختلفون » ..

كانت الفتنة سببا فى زهد البعض أو صمت البعض كما رأينا والزهد  
والصمت بدورتان من بدور التصوف ..

وقد القيت البدورتان فى أرض تصلح للزراعة ..

ومادت الأمطار تسقط ..

أمطار أحيانا .. ودموع فى أحيان أخرى ..

ها هو بحر زين العابدين .. ابن سيد الشهداء الامام الحسين بن على  
ابن أبى طالب ..

كان حزنه على أبيه عميقا ..

ولقد بكى الرجل رغم ان الرجال لا يكون ..  
وقال يوما « فقد الأحبة غربة » .  
وقد شرب اغترابه من حزنه على ابيه سيد الشهداء حتى ائتم وأينع  
وأصبح الاغتراب مقاما من مقامات الزهد ..  
وأصبح الصوفي كالغريب في الدنيا لأنها ليست داره ..  
وهذا أصل كبير من أصول التصوف .

إذا كان الصوفي مغتربا ، وكان الفنان مغتربا ، فهل ينطوى الصوفي  
على شيء من الفن ؟ وهل التصوف في حد ذاته فن ؟  
ان الاجابة على هذين السؤالين امر بالغ الاهمية .

.....

حين ولد التصوف منذ ١٢ قرنا ، لم يكن مفهوم الفن أو دور الفنان  
قد اتسع وصار الى ما صار اليه اليوم من رقى وتمقيد .  
كانت الاشكال السائدة في التعبير الفني منذ ١٤ قرنا ( أيام البعثة  
النبوية ) هي رواية الاساطير وقول الشعر ..

وكان الكلام ينقسم في لغة العرب الى قسمين .. نثر وشعر .  
وفي بداية الدعوة الاسلامية ، اتهم الجاهلون رسول الله صلى الله عليه  
وسلم أنه يروي الاساطير « وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه  
بكرة واصيلا » سورة الفرقان .

واتهموه بأنه يقول الشعر « ام يقولون شاعر نترى به ريب النون »  
سورة الطور .

واتهموه - صلى الله عليه وسلم - بأن الشياطين تنزلت عليه بهذا  
الكلام المحير الذي يسميه القرآن ، فنفى عليه بهذا الكلام المحير الذي  
يسميه القرآن ، فنفى الحق ذلك « وما تنزلت به الشياطين » . سورة  
الشعراء .

وهذه التهم الثلاث تريد أن تضع الرسول في دائرة الفن .. وتخرجه من نطاق الرسالة .. وقد دحض القرآن الكريم هذه التهم جميعا وتحدث عن الفرق بين الرسالة الالهية .. والفن .

ورغم أن الشاعر كان يحتل في قومه مكانة ممتازة قبل بعثة الرسول ، ورغم أن قصائد الشعراء كانت تعلق على الكعبة ، « ومن هنا جاءت تسمية القصائد » « بالملقات » ورغم أن الشاعر بمثابة الذاكرة لقومه ، رغم هذا كله نفى القرآن عن الرسول قول الشعر ..

قال تعالى في سورة يس « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » .

وكلمة « وما ينبغي له » تعنى أن وصف الرسول بالشعر انتقاص من كماله صلى الله عليه وسلم .. لأن المسافة بين الشاعر والنبي هي مسافة بين عالمين يختلفان كل الاختلاف ، من الشرف أن يكون المرء فنانا أو شاعرا ، ولكن هذا الشرف اذا وجه الى الرسول كان تهمة وتقيصة يتزعه الحق عنها .

وهكذا رد القرآن الكريم على كل ما وجه الى الرسول من اتهامات تتصل بالفن .

فيما يتعلق بأنه يروى الاساطير او يكتبها قال تعالى « قل انزله الذى يعلم السر فى السماوات والارض » سورة الفرقان .

وفيما يتصل بقول الشعر قال تعالى « انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر » سورة الحاقة .

وفيما يتصل بالهام الشياطين واتصالها قال تعالى « وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون » . سورة الشعراء .

.....

لا نعرف كم مر من الوقت حتى فهم العرب ان الكلام لم يمسد ينقسم الى تر وشعر .. انما صار ينقسم الآن الى ثلاثة اقسام .

## نثر وشعر وقرآن ..

والنثر والشعر اسلوبان بشريان للتعبير ، اما القرآن فكلام الله تعالى ، وهذا الاعجاز الذي ينطوى عليه القرآن في معانيه وصوره وموسيقاه الداخلية ، شيء يختلف تماما عن سحر الفن ..

لان الفن ابداع وتخيل ، واختراع ما ليس له وجود .. والشاعر يقول ما لا يفعل .. اما القرآن فحق كله ، وليس فيه اختراع ولا تخيل ، والرسول لا يقول الا ما يفعل .

هذا الفارق الجوهرى من الفن والدموة ، او بين الشعر والرسالة ، هو الذى دفع القرآن - فى أكثر من سورة - الى تفهيم الناس حقيقة الامر ، وقد سمي الله تعالى احدى سور القرآن باسم سورة الشعراء .. والسورة من سور القرآن القصيرة ، ورغم ذلك فعدد آياتها ٢٢٧ ، والآيات تتركب من جمل قصيرة ، ورغم قصر الجمل فقد جاء تركيبها الالهى معجزا متحديا ، وكان الحق يقول للبشر جميعا ان القرآن ليس شعرا ، وليس نشرا ، اما هو كلام الله تعالى ، وكما ان الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء ، فكذلك كلامه سبحانه ليس كمثله شيء .

.....

فى نهاية سورة الشعراء ، ينفى القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم اى شبهة فى اتصاله بالشعر او شياطين الشعر ، وينبئ الله تعالى عباده عن اتصاله به الشياطين او تنزل عليه .

« هل انبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل افاك ايم .  
يلفون السمع واكثرهم كاذبون » .

بهذه الآيات يفهم الله تعالى عبده ان الشياطين لا تنزل الا على فلوب الامك الائمة . وان الشياطين يكذبون فيما يقولونه لاتباعهم من البشر . وان اباعهم من البشر يكذبون فيما يقولونه للناس . فالكذب متبادل والام متبادل .. ويمضى السياق القرانى فاذا نحن منتقل انتقاله مفاجئة الى



الحديث عن الشعراء .. والنقلة ليست مفاجئة كما نظن . فقد كان شعراء العرب يرمعون ان لكل شاعر شيطانه الذى يلهمه باعظم افكاره الفنية جنونا .. واراد الله تبارك وتعالى ان ينفي عن رسوله الكريم هذه التهم السخيفة التى تجعله مرة خاضعا لشياطين الشعر ومرة لرواة الاساطير .

بعد ذلك يوقفنا القرآن الكريم امام حقيقة الفن بحديثه عن الشعراء ، ويرسم في ثلاث آيات قصيرة صورة للملامح النفسية للشعراء والفنانين عموما .. ويحدد الفروق الدقيقة بين الشعر والرسالة .. ويحدد الفروق بين طبيعة الفن وحقيقة الدعوة الى الله ..

يقول تعالى : « **والشعراء يتبعهم الغاؤون** » .

هناك من يتبع الشعراء .. هناك سر خاص أو سحر خاص في كلام الشعراء يجعل الناس يتبعونهم .. ان الشعر فن ، واى فن لا بد له من جمهور ، وللشعراء جمهورهم .. والذين يتبعون الشعراء عادة هم الغاؤون .. فمن هم الغاؤون .

اطلق اللفظ قبل ذلك على آدم حين مضى ربه . قال تعالى « **وعصى آدم ربه فغوى** » ثم اجتنبه ربه فتاب عليه **وهدى** » . سورة طه .

لم تكن غواية آدم خطيئة لا تفتقر ، انما كانت انقيادا من آدم واستماعا لاحلام الشيطان ووعوده ونسيانا لاوامر الله الا يقرب هذه الشجرة ، وحين وسوس اليه الشيطان « **هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** » سورة طه ..

هذه الوسوسة كانت صلا فنيا ، بمعنى ان ابليس رسم صورة متخيلة من عنده ، اخترع شيئا لا وجود له في الحقيقة واقنع به آدم ، وكان ابليس يكذب وهو يؤلف هذه القصة ، ولكن تصويره كان مقنعا الى الدرجة التى جعلت آدم عليه السلام ينقاد لهذه الصورة ويصدقها ..

كان ابليس اول فنان بصادفه آدم .. وبسبب قصته من شجرة الخلد كانت غواية آدم .

من هذا المنطلق نفهم كيف يتبع الغاؤون شعراءهم .

ان الشاعر يرسم صورة متخيلة ليست هى الواقع . صوراً لها مذاق الحلم . ويتبع الناس هذه الصور غير الحقيقية التى يجدون لها طعماً أجمل من طعم الحقيقة .

ويمضى سياق الآيات فى سورة الشعراء فيحدثنا الله تبارك وتعالى عن صفة أخرى من صفات الشعراء والفنانين .  
« ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » .

هذا الهيام فى الأودية صفة أساسية من صفات الفنان .. وهو تصوير فنى مسجز لحقيقة الفنانين والشعراء ..

ينتقل الشاعر من واد الى آخر ، هل يعنى ذلك انه ينتقل من مكان جغرافى الى مكان جغرافى آخر .. هذا متضمن فى المعنى .. وإلى جوار هذا المعنى تتضمن الصورة انتقالاً من تجربة الى تجربة ، ومن مستوى الى آخر ، ومن معاناة الى معاناة أخرى ، ليست الأودية اذا مقصورة على الأماكن الجغرافية ، إنما يمتد المعنى ليشمل مستويات من التصوير الفنى ، ويشمل مستويات من الابداع الفكرى ، وبهذه الآية يحدد القرآن صفة الفنانين بالقلق احد الملامح النفسية البارزة للفنان ..

ان التنقل والتغير والملل السريع والقلق من صفات الشعراء والفنانين، بينما الثبات والاطمئنان والسكينة من صفات الانبياء والداعين الى الله ..  
ويمضى السياق القرآنى فيورد أهم صفة من صفات الفنانين أو الشعراء  
« وانهم يقولون ما لا يفعلون » .

وبهذه الآية المجزة ، ينسف الحق عز وجل ادعاءات الجاهلين بأن الرسول شاعر . ويضع معياراً للفرقة بين الرسالة والشعر ، كان العرب يقولون « امدب الشعر اكذب » ، إشارة الى ان الفن ليس نقلاً تصويرياً لحقيقة الواقع ، فهناك لون من ألوان الكذب الفنى فى الفن ، اما الكذب فامر مستبعد تماماً من الرسالة ، واذا كان التخيل والاختراع يعتبران موهبة عند الفنان ، فانهما نقیصة عند الداعية الى الله ، نقیصة يبرؤه

الحق منها ..

وإذا كان الشاعر يقول ما لا يفعل ، فإن قول الرسول هو فعله ..  
وإي رسول هو الفعل المجسد لكلمات الله ، ويدعو الرسول الى المثل العليا  
بشخصه بل ان شخصه يكون هو المثل الاعلى لمعاصريه ومن يأتي بعدهم ،  
وأفعال الرسول مطابقة لأقواله تماما ..

أما الفنان أو الشاعر .. فمن ذا الذي يستطيع الزعم بأن قوله هو  
فعله ؟

يدعو الفنان أو الشاعر عادة للجمال والخير والحب والفضيلة ، ولكنه  
لا يستطيع أن يكون بشخصه وأفعاله وذاته نفس ما يدعو اليه ..  
قد يكون هناك انفصال بين فن الفنان واسلوبه في الحياة .  
قد يكون هناك فرق بين القول والفعل عند الفنان أو الشاعر .

ليس القول عند الفنان هو الفعل كما هو الامر بالنسبة للدعاة الى  
الله تتأمل هذه الاشارة الالهية اللطيفة التي ترسم صورة لاحلام الفنان  
العالية ، وقصور شخصيته عن بلوغ ما يدعو الناس اليه .. « وانهم  
يقولون ما لا يفعلون » .

هل يعنى هذا أن نخرج الشعراء - كرمز للفنانين - من خيمة الاسلام  
.. هل يعنى هذا أن الاسلام يقف ضد الفنون .

يقول الله تعالى في نهاية الآيات في سورة الشعراء « الا الذين آمنوا  
وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا » .  
هناك استثناء في لفظ « الا » ..

واذن تتسع خيمة الاسلام للشعراء المؤمنين الصالحين الذاكرين ..  
وتتسع للفنانين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا .. وقديما  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اصدق شمر قالته العرب قول لبيد  
« الا كل شيء ما خلا الله باطل » .

.....

أليكون الصوفية هم الفنانين المؤمنين في الاسلام ؟  
 لقد فهمنا مكانة النبي ووضع الشعراء ..  
 وعرفنا الفرق بين ثبات الدائمة الى الله وقلق الفنان وتحولاته ..  
 وعرفنا صدق الدائمة الى الله وشطحات الفنان واضافاته الوجدانية  
 ونريد الآن أن نسال ..  
 لماذا نرى معظم تراث الصوفية ادبا من ارضى الوان الادب واعتقدها ؟  
 لماذا كان معظم الصوفية شعراء ، وكتابا ، وحكاما .. ؟  
 لماذا نحس ونحن نقرأ للصوفية أنهم قوم يعانون معاناة بالغة تشبه  
 معاناة الفنانين ؟  
 لماذا شطح بعض الصوفية شطحات تشبه شطحات الفنانين ؟  
 هل ينطوى الصوفي على شيء من الفن .. ؟  
 وهل التصوف في حد ذاته فن ؟  
 لن نجيب على هذه الاسئلة الآن ، انما سنسترك للقارئ ان يجيب  
 عليها بنفسه خلال ابحاره معنا ..  
 فقط .. نريد أن ننعش ذاكرة القارئ بتصويرنا عن وجوه الشبه  
 ووجوه الاختلاف بين الصوفي والفنان ..  
 اول شيء يتفق فيه الصوفية مع الفنانين ان كل واحد فيهم يملك  
 رؤياه الخاصة .. ويحس بالافتراق عن مجتمعه .. والاحساس بالقرب  
 اصل كبير من اصول الفن ، واصل كبير من اصول التصوف ، وقد كانت  
 غربة « على زين العابدين » رضى الله تعالى عنه نبعا شرب منه كثير من  
 الصوفية فيما بعد ..  
 وليست مصادفة ان التصوف نشأ بعد القرن الثانى للهجرة ، ولقد  
 كان مرور الوقت ووقوع الفتن ارضا ولد فيها الاحساس بالقرب ، وبدأت  
 علامات الاستفهام تولد على سطح الحياة .. ما هذا الذى يحدث ؟

**ما هذه الدماء التي تراق .. ؟**  
لماذا يموت من نحس أو يقتلون ؟ لماذا تقتل البراءة والتقوى بغير ذنب  
سوى البراءة والتقوى ؟

وينفرس في نفس الانسان احساسه بالقربية .. بالابتماد .. ويخاصم  
الانسان الواقع الكائن .. ويبتعد الصوفى برؤياه عن الواقع المضطرب ..  
وكذلك يفعل الفنان ..

ان الفنان انسان يخاصم الحياة ، ويريد تجاوز الواقع الكائن ، ولا  
يبدع الفنان اذا كان راضيا كل الرضا عن الحياة ، ليس هناك فن بشرى  
بمعناه الأرضى فى الجنة ، لان الجنة كمال مطلق والفن لا ..

لا يمارس العمل فى كمال مطلق ، وكذلك التصوف . فى عصر الرسول  
وعصور الخلفاء الراشدين لم ينشأ التصوف لوجود الحد الأعلى من  
الكمال .. وبعد ذلك نشأ التصوف كمحاولة لتكملة هذا النقص الذى  
وقع لصورة الكمال .

وهدف الفنان النهائى هو تجاوز الواقع واستكمال النقص فى الحياة  
واداته هى التعبير الفنى المعقد المركب ..

أما هدف الصوفى فهو الوصول بتجاربه الروحية الى الله ، وأحيانا  
يعبر الصوفى عن نفسه بالشعر أو الحكايات الرمزية أو النثر الغامض  
والرموز ..

ومن الخطأ البالغ أن نتناول تعبير الصوفية الأدبى سواء كان شعرا  
أو نثرا ، لنناقشه بمنطق الدين ..  
هنا يمكن أن نخطئ كما أخطأ القدماء ..

ادعى الى الدقة كثيرا أن نناقش انتاجهم الفنى بمنطق الفن ..  
إذا كانوا يتحدثون فى الأحكام الشرعية .. فهذا دين ..  
وإذا كانوا يجتهدون فى الفقه .. فهذا تفسيرهم للفقه ..  
وإذا كانوا يتحدثون بالشعر عن حب ليلى ومزة ، فهذا فن عظيم  
نناقشه بمنطق الفن .. ونرى هل هو فن عظيم ، حقا أم ان هذه دعوى ؟

ولقد كان خطأ المستشرقين أنهم ناقشوا التصوف كدين ، وحسبوه على الدين .

ولما كان التصوف « حالة » ، وكان في الصوفية آلاف الحالات ، فمعنى هذا أن الدين سيخرج من ثبات الحقيقة الى اودية الحالات الفنية المتغيرة وهذا ما لا يرضاه أحد ، أو يقبل به منصف .

وهكذا يظل الصوفي تحت خيمة الاسلام ، ونعتبره داخلا في مجال الاسلام طالما كان داخلا في اطار الكتاب والسنة ، فان خرج الى ميدان الفن الفسيح ناقشناه بمنطق آخر ..

نضرب مثالا لتوضيح فكرتنا .

إذا قال العاشق المتيم قيس بن الملوح لنا « من فرط ما أحبيت ليلي صرت أنا ليلي .. أحملها في قلبي وروحي .. أن ليلي هي روح روحي » .

لو قال قيس بن الملوح هذا لنا فماذا نقول ردا على جملته ..

هل نتهم انفسنا بعدم الفهم أم نتهمه بالجنون ؟ اختار معاصروه اسهل الطرق واتهموه بالجنون وذاع اسم شهرته فلم يعد يعرف الا به .. ذلك أن دعوى العشق لا يجوز عليها التصديق والقبول ، ولا يجوز عليها الرفض والاستبعاد .. طالما اننى لست ابا العاشق ..

لو كنا عاشقين فقد نفهم ميسا .. ولو لم تكن عاشقين فسوف نتهمه بالجنون .. ( الا يقولون من ذاق عرف ؟ ) .

بماذا نعلق على أبيات الشاعر التى يقول فيها :

يتنادى النادى باسمها فاجيبه      وادعى فليلى عن نفاى تجيب

وما ذاك الا اننا روح واحد      تناولنا جسمان وهو عجيب

كشخص له اسمان والذات واحد      باى تنادى الذات منه تصيب

ان الشكل الذى قدمت لنا به الفكرة هو الشعر .. والشعر فن ..

اليس هذا فنا رديعا ..

والمضمون الذى يريد الشاعر توصيله وهم يتصور فيه اتحاده بليلى ، واتحاد البشر مفهوم ومعروف . وهو مستحيل أن يقع بهذه الصورة التى يتحدث عنها الشاعر الا للحظات ..

وبالتالى نسقط دعوى الاتحاد مع الخالق ، ويصير صرف ليلى الى الحقيقة الالهية فكرة مستبعدة ومرفوضة ..

غاية ما يمكن أن نفهمه من الشعر أن الشاعر يحب الله حبا لا يرى فيه نفسه ..

وقد عبر عن هذه الصورة بهذه الأبيات الشعرية .. وهى فن يمكن نقده وتحليله ، وليست ديننا يمكن اضافته الى الاسلام ، ومحاسبة الاسلام عليه كما يفعل بعض العلماء المفرضين والمستشرقين .

لا ننكر أن فى التصوف جزءا من الفن ..

ولا ننكر أن فى الفن العظيم جزءا من التصوف ..

والفن موهبة يمنحها الله لبعض عباده ، وشأنها شأن بقية المواهب امتحان يرى الله تعالى فيه أين يضع الانسان موهبته .

والصوفى كالفنان فى جزء من تركيبه النفسى .. فهو يملك قدرا من الحساسية البالغة والحس العميق ، ويملك رؤياه الخاصة به ، ويملك قدرة على التعبير لا يملكها المابد فحسب .

ومثل الفنان .. يحلم الصوفى بتجاوز الواقع الظاهر لما هو أعمق وأخفى ، ويحب أن يضيف الى الكون جمالا لم يكن فيه قبل أن يولد ، وقد يصطدم الصوفى كما يصطدم الفنان بمجتمعه ، وقد ينتصر المجتمع على الصوفى أو الفنان فينقيهما فى الأرض أو تقيلهما .

ويتشابه الفنان والصوفى فى اعتمادهما على التجربة وصولا بفنهما الى الدروة ، وإذا كانت تجربة الفنان تستوعب الجسم والروح ، فإن تجربة الصوفى تعتمد على الروح أكثر من اعتمادها على الجسد ، يخطئ الفنان ليعبر عن الخطيئة . أما الصوفى فهو يسأل فحسب عن الخطيئة لكى لا يقع فيها .

وقد حدد لنا حسن البصرى هذا المعنى العميق حين سئل :

يا أبا سعيد .. أنك تتكلم فى هذا العلم ( الزهد ) بكلام لم تسمعه من

احد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن اين اخذته ..  
قال : من حديقه بن اليمان حين قال : كان الناس يسألون النبي صلى  
الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة ان أقع فيه ،  
وعلمت ان الخير لا يسبقنى ، وعلمت ان من لا يعرف الشر لا يعرف الخير .

.....

ايضا يتشابه الصوفى والفنان فى ان كليهما يقتات على الحب ..  
وهنا يختلف الصوفى من الفنان فى موضوع حبهما ، وان اتفقا فى كثير  
من التعبيرات الادبية والفنية ..

فالفنان يسكر من رؤية الحبيبة ماديا ، وهو يشرب الخمر فى سحتها  
وينتشى بما يحس ويقول انه هى وأنها هو ، وكذلك يفعل الصوفى ،  
يستخدمون نفس المصطلحات كالكأس والشراب والوجد والسكر  
والصحو ..

الفرق بين الفنان والصوفى ان الفنان يحب حبا بشريا ، ويتعلق قلبه  
بالبشر . ويريد الفنان اذا عشق ان يرى صورته فى عين من يحب ، والفنان  
يحب نفسه ويحب قدرته على الحب ويحب الحب قبل ان يحب الحبيبة ،  
واخطر ما يريده الفنان ان يكون محبوبا ..

هذا اقل آماله .. وأعظم آماله ان يكون معبودا .

اما الصوفى فله وجهة نظر اخفى وارقى من وجهة نظر الفنان ..

يقول جلال الدين الرومى « ليس لكل احد ان يكون محبوبا ، فانه  
يحتاج الى صفات وفضائل لا يرزقها كل انسان .. ولكن لكل انسان ان  
ياخذ نصيبه فى الحب وينعم به .. فاذا فاتك يا سيدي ان تكون محبوبا ،  
فلا يفتك يا عزيزي ان تكون محبا .. وان لم يكن من حظك ان تكون  
يوسف .. فمن بمنحك ان تكون يعقوب .. ولو عرف المحبون ما ينعم به  
المشاق المتيمون ، لتمنوا مكانهم ، وخرجوا من صف المحبوبين السعداء  
الى صف المحبين البؤساء » .

الست ترى ان الصوفى اشد تواضعا من الفنان ..



الست ترى أن الصوفي يحب أن يكون محبا .. أما الفنان فيحب أن يكون محبوبا ..

وعلى حين يؤكد الفنان ذاته في الحب عن طريق تضيق هذه الذات .  
يضيق الصوفي ذاته في الحب .. وبضياع هذه الذات لا تبقى الا ذات  
المحوب وحده ..

ذات الخالق وحده ..

ولأن الفن يختار رجاله عادة من ذوى المشاعر العنيفة والحساسية  
العميقة ، نرى الفن يمتزج عادة بلون من ألوان المغالة والتزويد والجنون ،  
وأحيانا نرى في التصوف مغالة وتزييدا ، وإذا كان قيس بن الملوح مجنونا  
في نظر المجتمع لأنه أحب ليلي كل هذا الحب ، فإن المجنون في نظر نفسه  
كان هو العاقل الوحيد وكل الناس مجانين ، أما إذا نظر الصوفي لقيس  
ابن الملوح فسيراه مجنونا لأنه ذهب الى صورة ليلي ولم يذهب الى المصور  
الباريء ..

ذهب الى ليلي فعليته ليلي حتى فقد عقله ، ولو ذهب الى الله وفقد  
عقله لكان له شرف البهت والتحير والجنون فيمن يستحق بأعجازه البهت  
والتحير ..

.....

وإذا كان التصوف بحارا غريبة وجزرا وعرة .. فإن أفضل تمييز  
للتصوف هو تقسيمه الى قسمين :

**التصوف الإيجابي والتصوف السلبي .. أو التصوف الاسلامي  
والتصوف الفنى .**

**ومعيار التفرقة هنا هو الكتاب والسنة ..**

ما كان محكوما بإطار الكتاب والسنة ، كان تصوفا اسلاميا ،  
وما خرج عنهما كان فنا يخضع لمقاييس الفن وقيم النقد ، ولم يعد يلزم  
الاسلام في شيء .. لأن الاسلام هو الكتاب الذي أنزل علينا .. هو  
القرآن وما تواتر من السنة .. وما عدا ذلك من زيادة .. أفكار ليست  
هى الاسلام ولا تحتسب عليه ..

وسوف ترى ان في التصوف رجالا كانوا هم التصوف الايجابى وحده ،  
وسنرى رجالا يمتزج فيهم التصوف الايجابى بالتصوف السلبى ..  
وسنرى الصوفية السلبيين .

سنرى ان ذهن الانسان تمتزج فيه آلاف الافكار ، ورغم هذا كله ،  
فان هناك بوصلة نستطيع اذا نظرنا فيها ان نعرف هل نبحر في الاتجاه  
السليم نحو الحقيقة ..

ام نمضى نحو الفرق في عواصف البحار ..  
نحسب ان الوقت قد حان للحديث عن مصادر التصوف وتفسيراته  
ورجاله ..

كان الزواج القاسى بين الزهد والتأمل وظروف المجتمع الاسلامى  
الداخلية والخارجية هو المسئول عن ميلاد التصوف بعد ٢٠٠ سنة من  
هجرة الرسول .

ونحن نرفض تصديق دعوى المستشرقين التى ترى ان التصوف بع  
من مصدر واحد ، ونرى انه ينبع من اكثر من مصدر ..  
**الاول :** بعض آيات فى الكتاب الكريم ..

**الثانى :** ما عرف عن الرسول من زهده وتأمله .

**الثالث :** التأثيرات الداخلية التى وقعت فى المجتمع الاسلامى فى المائتى  
سنة الاولى من الهجرة ( كالفتنة وعلم الكلام والاتجاه العقلى الذى استتبع  
رد فعل وجدانى ) .

**الرابع :** التأثيرات الخارجية التى وفدت على العقل الاسلامى نتيجة  
احتكاكه بالفلسفة اليونانية وتجارب الامم الروحية والعقلية التى خضعت  
للاسلام .

وقد قيلت نظريات كثيرة فى اصل التصوف ..

قيل ان التصوف تعبير عن الناحية الباطنية فى الاسلام ، وهذه هى  
دعوى الصوفية انفسهم .. اذ يعتبرون انفسهم ورثة الرسول فى العلم .  
ولما كان الانبياء لا يورثون مالا ، فانهم يورثون العلم ..

وسنرى في هذا المجال ان بعض الصوفية حملوا آيات القرآن ما لا محتمل ، وفرضوا عليها أهواءهم فرضا ، واستحلوا لأنفسهم أن يفسروا بعض الكلمات القرآنية تفسيرا يستحيل أن تحدث له .. مثل تفسير الصوفية من الشيعة لقوله تعالى « مرج البحرين يلتقيان » بينهما بروز لا يقيان . فباي آلاء وبكما تكلبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فباي آلاء وبكما تكلبان » قالوا ان البحرين هما على وفاطمة ، اما اللؤلؤ والمرجان فهما الحسن والحسين . وهذا تفسير يعتسف المعنى ويفرضه على النص القرآني ..

وقيل ان التصوف رد فعل للعقل الآري ضد دين سامي فرض عليه فرضا . وذهفت الدعوى واضح ، وقيل ان التجارب الروحية للهندوت أثرت على المسلمين ، وقيل ان التصوف الاسلامي نتاج فارسي في نشأته وتطوره ، لأن عددا كبيرا من الصوفية من أصل فارسي .. وهذا كله كلام يلقى على عواهنه ، وسواء قيل ان أصل التصوف هو الهند او فارس ، فان الثابت ان أصله أعقد من أن يكون ناشئا من سبب واحد ..

وسنرى كلما ابهرنا في بحار القوم ان مصادر الموج الهائج أعقد من أن تنسب الى سبب واحد او سحابة واحدة او تأثير واحد .

.....

في البدء ..

كان بحر الخوف من الله تعالى يمتد في روح المسلمين ..

وكان الحياء الخائف من الله تعالى هو أسبق العناصر تأثيرا في المسلمين .. يقول الله تعالى في سورة فاطر « انما يخشى الله من عباده العلماء » .. وبهذا التخصيص يجعل الله تعالى خشيته برهانا على العلم ودليلا عليه وتسير آيات القرآن في هذا الاتجاه .

يقول تعالى في سورة البقرة « يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والدين من قبلكم لعلكم تتقون » .

ويقول تعالى في سورة النساء « ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واباكم ان اتقوا الله » .

ويتحدث الحق تبارك وتعالى عن مناسك العبادة وشعائر الحج وذبح  
الاضحية فبلغت الانتباه الى حفيظة جوهرية في سورة الحج « **لن ينال الله  
لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم** » .

نتأمل معاني الآيات :

في سورة البقرة يحدثنا الله عن هدف الخليفة الانسانية ، فيقول  
سبحانه ان الهدف هو التقوى .

وفي سورة النساء يشير القران الكريم الى ان وصية التقوى الموجهة  
الى المسلمين هي نفسها وصية التقوى التي وجهت قبل ذلك الى الذين  
اوتوا الكتاب .. وهذا معناه ان الوصية قديمة يرجع تاريخها لنشأة النوع  
الانسانى .

وفي سورة الحج يقول الحق للحجيج ان دماء الاضحية ولحومها لن  
تذهب الى الله ، انما سيذهب الرمز المختبىء في شعائر العبادة .. وهو  
التقوى ..

وبهذه الآيات كلها يتكشف لب الاسلام عن جوهر التقوى . والتقوى  
تعنى الخوف من الله تعالى والحياء منه ومراقبته في كل حال .

وبسبب اهمية التقوى البالغة .. يجعلها الله تعالى هي معيار الفضل  
الوحيد .. وهى معيار الكرم الوحيد ..

قال تعالى في سورة الحجرات « **ان اكرمكم عند الله اتقاكم** » ..

لم يقل الله سبحانه ان اكرمكم عند الله اغناكم . ولم يقل اعلمكم .  
ولم يقل احملكم ولا افضلكم حسبا ونسبا ، انما قال شيئا يتجاوز هذا  
كله . ان تصورات البشر وموازينهم تجعل الاولوية للثراء والعلم والجمال  
والحسب والنسب والباطل والرئاسة ..

ولم يكن الحق يتحدث في سورة الحجرات عن موازين البشر ..  
قال تعالى : « **ان اكرمكم عند الله** » ..

دعة يسوى اخر خلف سماء عن موازين البشر وتصوراتهم ..

امام مستوى الالهية الجليل ..

نقيس الله عز وجل كرم الناس بتقواهم لله ..

التقوى هي الميار عند الله .. وهي وحدها التي توضع في الميزان ،  
وهي وحدها التي تهيم .

هذا التتويج للتقوى اثر في قلوب المسلمين الاوائل ، فقد كانوا يتلقون  
من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكان الرسول اتقى الناس لله ..

كان أشد الناس خوفا من الله ، وأشد الناس حياء من الله ، وأشد  
الناس رهبة من جلال الله ، وكان حبه لله عز وجل لا يتجاوز اطار العبودية  
وتوقير الله .. ورغم ان اعظم ذنوبه - صلى الله عليه وسلم - كانت  
حسنات المقربين والعابدين والأتقياء .. رغم معاتبة الحق له على الكمال  
لانه يريد منه ذروة الكمال لا الكمال وحده .. رغم انه كان صلى الله عليه  
وسلم بلا ذنوب .. رغم انه كان رحمة للعالمين بنص كتاب الله .. رغم ان  
الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، رغم هذا كله كان يقوم الليل  
ويصوم النهار فلما سئل لماذا وقد غفر الله لك ؟

اجاب : افلا اكون عبدا شكورا

ان اجابته صلى الله عليه وسلم تتضمن الاحساس بالعبودية  
الشاكرة ..

والاحساس الدائم بالعبودية هو جوهر التقوى ..

ولقد عرف الاسلام نماذج من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين كانوا  
امثلة عليا في خشية الله وتقواه ..

.....

**بحر ابي بكر الصديق ..**

مثل ريح تسوق السحاب والمطر كان كريما تقيا .. اكرم الرسول  
بتصديقه وسمى الصديق .. واكرم الرسول بماله وكان قبل الاسلام  
اعظم اغنياء مكة ، فصار بعد الاسلام رجلا فقيرا ذهبت امواله في الدعوة  
الى الله .. واكرم الرسول بابنته عائشة ، واكرمه بمصاحبته في الهجرة ،

وكان قمة في العبادة ورقة المشاعر وسمو النفس ، ورغم ذلك فهو القائل  
انه لا يامن مكر الله ولو وضع احدى قدميه في الجنة ..

هذا صاحب رسول الله ..

هذا مقدار تقواه الله ..

.....

### بحر عمر بن الخطاب ..

مثل سيف لا يقف امامه شيء كان كريما تقيا .. في ظروف الاسلام  
الاولى ، ايام الحصار والجوع والبؤس والتعذيب والاضطهاد .. سأل  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ان يعز الاسلام بأحد العمرين ..

واستجاب الله تعالى ..

كان عمر بن الخطاب هو الرجل الذي امز الاسلام بشجاعته في الحق  
.. وكان عمر بن الخطاب هو الحاكم الذي يتقلب في فراشه خوفا من ان  
تتكفى عنزة في احدى طرق العراق فيسأله الله لماذا لم يمهّد لها الطريق  
وهو حاكم على المسلمين ومسئول عن طرقهم وكبوات حيواناتهم ..

.....

### بحر علي بن ابي طالب ..

وسيدنا علي هو باب مدينة العلم .. وهو اول صبي يؤمن بالاسلام ،  
وهو الذي تربى في بيت النبوة .. وشرب آدابها وسقى من تقواها .

.....

### بحر عثمان بن عفان ..

قتل الرجل الكريم وهو يقرأ كتاب سيده ومولاه .. قتل وهو يقرأ في  
المصحف ، وكان يقول :

« اذا جاء العبد كتاب من سيده وجب عليه ان ينظر فيه كل يوم » .  
نريد ان نلاحظ استخدامه لتعبير العبد ..

لقد استخدم الرسول نفس التعبير قبل ذلك حين سئل لماذا يجهد

نفسه وقد غفر الله له ..  
ان الاحساس بالمبودية هو جوهر التقوى ..  
والخوف من الله تعالى والدلة بين يديه والافتقار اليه هو جوهر  
التقوى ..  
وسوف نلمح في جميع الصحابة والتابعين هذا الاحساس البالغ بتقوى  
الله وخشيته ..

.....

بحر سيدنا الحسين بن علي ..  
صنع موجة من خشية الله ..  
وتوجته الشهادة ..  
ويسيل دمه في الله .. رمزا للبراءة التي يقتلها الدهاء والظلم ..  
وينتقل الموج الخائف الى بحر ابنه ..

.....

ما اشد هدوء هذا البحر ..  
وما اعظم صفاء امواجه ..  
هذا بحر الكريم ابن الكريم ..  
بحر علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ..

المياه هادئة ساكنة ..  
القاع عميق وان ارتعشت رماله بالخوف من الله ..  
الأمواج جاءت من دموع الخشية من الله والهيبة من جلاله ..  
لم تزل في منطقة الزهد الخائف ..  
لم ندخل بعد منطقة التصوف المعقد ..  
هذا البحر هو المدرسة الأولى من مدارس الزهد الذي تطور الى  
التصوف .. لقد كان التشيع المعتدل واحدا من أهم العوامل التي اعانت  
على تطور الزهد الى التصوف كما لاحظ الدكتور عبد القادر محمود .

وكانت المأساة التي وقعت لاهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم  
هى الجسر الذى وصل بين اهل السنة والشيعة .. فاذا كثير من السنيين  
ينجازون بمشاعرهم الى آل البيت .. واذا آل البيت انفسهم يحسون  
الاقتراب ، واذا المنحازون اليهم يحسون بنفس المشاعر ، ومن الغربة  
يولد الحزن .. والحزن ينمو فى بدايته تحت شمس اليأس فى الدنيا ،  
تسقيه دموع الامطار المفترية .

يوما بعد يوم تورق اشجار الحزن فاذا نحن امام حديقة باكملها من  
الحزن ..

.....

على زين العابدين يسير فى السنة التسعين الهجرية .. استعد تماما  
للموت بعد سنوات لا يعلمها وان كان مكتوبا فى علم الغيب انه سيموت  
فى السنة الخامسة والتبعين للهجرة ..

يرتدى الحرير ويخب فى عباءة غالية .. على وجهه مسحة من نبل  
حزين .

هو زاهد يلبس الحرير .. ليس الزهد عنده هو فراغ اليد من الدنيا ،  
وانما الزهد هو فراغ القلب من الدنيا .. وقد فرغ قلبه من العفيا واغترب  
فيها ..

ان تكون الدنيا فى يدك وخارج قلبك ..

ان تكون قادرا عليها وسيدا فيها ومزدريا لها ومحتقرا لها فى نفس  
الوقت ..

هذا هو الزهد ..

سئل منذ ليلتين كيف حالك فقال : فقد الاحبة غربة ..

شرب اغترابه من حزنه على ابيه سيد الشهداء الامام الحسين ..  
ورغم ان اسمه الاصلى هو « على بن الحسين بن على » .. الا ان شهرته  
برين العابدين التصقت باسمه فلم يعد يعرف الا بها .. هو على زين  
العابدين ..



هو على التقى الذى كان يقوم طرفا من الليل للتهجد والعبادة ، فإذا سار أثناء النهار سار بوجه شاحب من اثر سهر الليل ، وأقشمت عيناه سر بكائه الطويل طوال ليلة الامس خوفا من الله وأملا فى رضاه ..

**عبد عابد من عباد الله ..**

وكلماته فى ابتهالاته تشي بحكمته وأدبه النبوى فهو يستمد من مشكاة النبوة مباشرة ..

تورد الصحيفة السجادية قول على زين العابدين فى ابتهال من ابتهالاته « اللهم لك قلبى ولسانى . وبك نجاتى وامانى . انت العالم بسرى واعلانى » .

**يسلم الرجل قلبه ولسانه لله ..**

واللسان يترجم عما يريد الانسان قوله ، فهو هنا رمز للظاهر الذى يحب الانسان من غيره أن يعرفه عنه ..

اما القلب فرمز لأسرار الانسان ودخيلته .. هو رمز للمخبوء فى باطنه ، وحين يسلم على زين العابدين قلبه ولسانه لله ، يعنى أنه يسلم سره وعلانيته ، فيجعل ما على لسانه وما فى قلبه ملكا لله عز وجل .. ولأنه يفعل ذلك يدرك أن نجاة وامانه يستمدان من مصدر واحد هو الله ، فلا نجاة ولا امان فى البعد عن الله .

يقول على زين العابدين فى ابتهالاته : « اللهم امت قلبى عن البغضاء ، واصمت لسانى عن الفحشاء ، واخلص سريرتى وعلانيتى عن علائق الاهواء . واكفنى بأمانك عواقب الضراء ، واجعل سرى معقودا على مراقبتك ، واعلانى موافقا لطاعتك » .

يسال العابد الله تبارك وتعالى أن يجعل سره معقودا على مراقبة الله واعلانه موافقا لطاعة الله .. وهذه الفكرة الاسلامية الخام ، سوف نعثر عليها فيما بعد مفصلة عند حجة الاسلام الامام الغزالى فى استواء السر والعلن .

**نريد أن نلاحظ ملاحظة هامة ..**

نحن لم نزل نبحر في بحار الحزن المقترّب الخائف ..  
وقد نما مقام الغربة التي تستهدف الآخرة منذ سيدنا على  
زين العابدين ، وتسرّب منه الى الحسن البصري بعد ذلك .. يقول  
ابو طالب المكي في قوت القلوب : « كان الحسن البصري اذا اقبل فكانها  
القبل من دفن حميمه ، واذا جلس فكانه اسير قد امر بضرب عنقه ، وكان  
اذا ذكرت النار عنده فكانها لم تخلق الا له .. »

كان الخوف حالا من حالات العلم ..  
كان الخوف من الله مقاما يقيم فيه العارف بالله ..  
قال تعالى : « ولين خاف مقام ربه جنتان » .  
والحسن البصري هو الذي ربط الخوف بكونه حالا في مقام السلم  
تمكينا للوصول الى اليقين « فاعبد ربك حتى ياتيك اليقين » ..  
والطريق الى اليقين يمر بالخوف من الله تعالى ..  
ويبدأ الطريق بالتوبة فالصبر .. والشكر .. والخوف .. والرجاء ..  
والتوكل .. والمحبة .  
وقد سئل جعفر الصادق ما بالنا ندعو الله فلا يستجاب لنا ..  
فقال : لانكم تدعون من لا تعرفونه ..  
نفس السؤال وجه الى احد تلاميذه بعد ذلك فاجاب : لانكم تعرفون  
الله ولا تطيعونه ..

نفس السؤال تكرر بعد ذلك على تلميذ لتلميذه .  
كان السؤال قد تحوّر هذه المرة ..  
فيل له ائنا ندعو فلا نجاب .. والله يقول ادعوني استجب لكم .  
فقال : ماتت قلوبكم في عشرة اشياء :  
١ - عرفتم الله ولم تؤدوا حقه .

- ٢ - وقرأتم كتابه ولم تعملوا به .
  - ٣ - وزعمتم محبة رسوله وتركتم سنته .
  - ٤ - وادعيتم عداوة الشيطان ورافقتموه .
  - ٥ - وقتلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ..
  - ٦ - وقتلتم نخاف النار ووهبتم انفسكم لها .
  - ٧ - وقتلتم الموت حق ولم تستعدوا له .
  - ٨ - واشتغلتم بعبود اخوانكم وببذلهم عيوبكم .
  - ٩ - واكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها .
  - ١٠ - ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا .
- فكيف يستجاب لكم ؟ ..

✽ استغفرني الخوف من الله وقتا حتى تحول من الزهد الى التصوف  
وخلال هذا الوقت قدم الاسلام نماذج مثل عتبة الفلام لم يكن غلاما حين  
اطلق عليه اللقب ، ولا كان غلاما حين مات ، لقد تجاوز الثالثة والثلاثين  
مثل عيسى حين لقي ربه ..

انما سموه عتبة الفلام لانه كان نحيلًا متوسط القامة ، وكان في العبادة  
غلام رهان ..

وقد استشهد عتبة وهو يقزو في سبيل الله في شمال الشام .. وجلس  
اصدقاؤه يذكرونه ويتحدثون عنه ، لعل الحديث يحييهم ساعة في ملكوت  
السموات فيستحيوا خطوهم الى الله ..

فالت جارتة ام عطاء : رحم الله عتبة .. كان جارا لنا وكان هينا  
كالنسمة .

وقال احمد بن زهير : كنا نطلب المنزلة في نفوس الناس الا عتبة ،  
فقد كان يرى ابتغاء المنزلة عند الناس هو السقوط من عين الله .. وكان  
يفرح لما يرى من هوانه على الدين لا يعرفونه .. وكان الناس لا يلتفتون اليه  
لصغر حجمه .. ركبنا سفينة مع عتبة ، واضطربت السفينة من الرياح  
وجعلت تميل وتستوى ، فاراد الملاح أن يعدل جلوسنا فلم يجد في مينه  
اهون من عتبة ، فدفعه في جنبه وقال : اسنو يا هذا بازاء من بجوارك ..

واشرق وجه عتبة بالسرور .. وغمغم يقول لنفسه : الحمد لله ان لم ير فيهم احقر في عينيه منى .

وقرات ام عطاء قوله تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

وحكت ام عطاء عن عتبة الغلام ..

كان ياخذ دقيقه فيبله في الماء فيمجنه ويضعه في الشمس حتى يجف .. فاذا جاء الليل اخذه واكل منه لقما ثم يشرب قليلا من الماء ..

وقلت له : يا عتبة ، لو اعطيتنى دقيقك فخبرته لك .. قال : يا ام عطاء . الامر اعجل من ذلك .. كسرة وملح تسد عنى كلب الجوع .

.....

كان عتبة الغلام متعجلا .. فعلى اى شيء ؟

ان دعاءه يستطيع ان يفشى لنا سره .

كان اعظم دعاء له « اللهم احشر عتبة بين حواصل الطير وبطن  
السباع » ..

وقد استجاب الله دعاءه ..

والدعاء فى الاسلام مخ العبادة ، هو عقلها وادائها .. والاصل ان

المسلم لا يحمل هم الاجابة . انما يحمل هم الدعاء .. يكفى ان يكون مؤمنا ويدعو حتى يستجيب الله لدعائه ..

ليست هناك مشكلة فى الاجابة ..

المشكلة كلها فى الدعاء .

« اذا الهمت الدعاء جاءت الاجابة معه » .

وهكذا دعا عتبة الغلام ..

لم يكن يدعو ان يجعله الله سيدا فى قومه ، او نريا ، او ذكيا ، او ملكا ، او رئيسا يحكم . لم يكن يدعو الله ان يحفظ صحته وحياته او

يبارك في أمواله وأولاده .. لم يكن يسأل الله لنفسه أى شيء .  
خرج من ملك نفسه الضيق إلى ملك الله الواسع .  
لم يعد سجين مطالب البشر ، وهى مطالب مشروعة يستن الدعاء  
بها ..  
لم يعد عتبة الغلام يريد لنفسه شيئا لقد أحب الله لا الحياة ..  
وأحب الاسلام لا سلامته هو .  
وأحب ان ينشر الدعوة ولو مزق جسده في سبيل الله ..  
وأحب ان تاكل جسده الممزق هذه الطيور الجارحة وهذه السباع  
الجامعة .  
ان عتبة الغلام لم يزل مستمرا في العطاء ..  
لا يقتصر عطاؤه على الجيش أو الحياة الاسلامية أو مركز الاسلام  
الممتاز أو هيئته .  
انما يمتد عطاؤه إلى الطيور والوحوش .  
يريد ان تمتلئ حواصل الطيور بأجزاء من جسده .  
ويريد ان تمتلئ بطون السباع بأجزاء من جسده .  
انه يقدم بعد موته دليلا على كرمه .. فيجعل من جسده مائدة للطيور  
والحيوان .  
حتى لو كانت الطيور جارحة .. وكان الحيوان وحشا .  
اليس هؤلاء بعض الخلائق ..  
فليعط الخلائق اذن حتى بعد موته .  
ويسير عتبة الغلام قاصدا الشام ..  
« يعرف ان حياته على الارض مثل طائر عذب النغم وقف ساعه على  
عصن .. ففنى ثم طار » .

كان عتبة الغلام يريد ان يغنى بصوت له صليل سيوف تدافع من الاسلام والانسان ..

وظل مسافرا حتى وصل الى شمال الشام . .

**المكان : اسمه المصيصة ..**

**الزمان : بعد صلاة الظهر ..**

موجيء قادة الجيش بهذا الزاهد العابد النحيل الضعيف داحلا عليهم سالوه ! ما جاء بك ؟ .

**قال عتبة الغلام : جئت اغزو .. رايت في المنام انى آتيت اغزو فاستشهد .**

**قال مظف بن الحسين :** ما من هذا اسال ولكننا نصول بنى الاصغر . وهم قوم اشداء ، لا ينفع في نزالهم شبح انضته العبادة والسهر مثلك .. ولا احسب ان عودك هذا الخفيف يستفر على صهوة جواد اذا كربه وفر ..

استمع عتبة الغلام لهذه الكلمات بما تضمنه من سخرية خفيفة .. ونظر الى القائد العسكرى نظرة اصابت قلبه كأنها سهم .. وعلون وجهه وقال :

يا ابن الحسين . ليس العجب ان ينفر الهزيل الشاحب لقتال اعداء الله ، وانما العجب ان ينفر اليهم مشوش الايمان زائف القلب والمقل ، وان النصر لا يبطيء عن جيش من جيوش الله الا ان يكون فيه من غره شيطانه عن ربه ، يا ابن الحسين . لو اتنا نقاتل القوم بمثل ايمانهم لكان من احمق الحقق ان تلقاهم وعددنا قليل ، وسلاحنا قليل ..

ولكن شتان بين ايمان وايمان ..

وبارب نفس رمقت جلال الله فذهب عنها غرورها ، فلم تشهد الا فقرها اليه وعجزها بين يديه ، فأمدتها بسر من بأسه ، وأبدتها بكوكبة من جنده . فاذا هي في الميدان يصول فيها سر الله ويجول ، فوالله لان يتبت الكافر لجبل ينقض عليه اهون من ان يثبت لضربة من صرباتها ..

يا ابن الحسين .. انك لن تنصر الله في معركة حتى تنصره في نفسك

بتغليب امره على هواله ، فان كنت فارس هذه المعركة فانت فارس الاخرى  
بإذن الله .. فانظر ماذا يغنى لحكمك وشحمتك اذا انت خذلته في الارض  
وجئت تطلب نصره في الثانية .. وهو الذي جعل هذه بتلك جزاء وفاقا  
ووعدا حقا في قوله سبحانه « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم »  
انتهى عتبة الغلام من كلامه لقائد الجيش .

قال مخلد بن الحسين : فوالله لقد انكسرت لما قال .. وكأنا اهدى  
الى نفسى فقلت له : يرحمك الله يا اخى .. انما كنت امزح . وحين رأى  
عتبة في اجابة مخلد انه يتضعضع له حياء مما اتى .. انشئ يجبر ما انكسر  
من نفسه فقال عتبة : ان بسطة الجسم من اجل مواهب الله ، وانها لمن  
ملقيات الرعب في قلوب اعدائه ، والمؤمن القوى خير وأحب الى الله من  
المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، وما غاب عني والله ضعف جسمي وان  
ليس فيه ما يرهب عدو الله ، ولقد اهمنى ذلك ، ( اقلقنى ) وحدثت به  
نفسى فقلت حين نزلت حلب : اذا قصر جسمي ان يرهب عدو الله  
فلألقينهم بجواد يكون ارهب لهم من سرية ..

وقلت لبعض اخواني اشتروا لى فرسا يفيظ المشركين اذ راوه  
فاشتروا لى ذلك الجواد ..

اشار عتبة بيده نحو جواد عربى أصيل جواد حرب لا يفرعه صليل  
السيوف وأما يرفع صاحبه ليكون أقدر على ان يهوى بسيفه على  
خصمه ..

.....

وانضم عتبة للجيش المحارب .

كانت هناك فترة ترقب وتأهب ..

كانت ساعة الهجوم لم تحدد بعد .

واكتشف الحرس الليلي للمسلمين ان عتبة الغلام يغنيهم عن السهر ..

كان هو الساهر يوميا حتى اذان الفجر .. كان الحرس في خيمته ينام

اعتمادا عليه . كان يكفيهم مثونة السهر .

هو السامر دائما ، اما قارنا للقرآن او مصليا او ذاكرا .. كان الجيش يضم يحيى الواسطي ايضا وهو من الراهدين ورأى مخلص بن الحسين في منامه ذات ليلة حلما .

رأى ان ملكا نزل من السماء ومعه ثلاثة اكفان من اكفان الجنة ، فالبس عتبة الغلام كفنا ، والبس يحيى كفنا ، والبس رجلا ثالثا كفنا ، فلما جاء الصباح واستيقظ فكر ان يحدثهم عن حلمه ، ولكن عتبة الغلام قال له :

يا ابا محمد .. انتظر . لا تحدث برؤياك الآن .

ودهش مخلص ، ولكنه سكت ..

كان القوم مرابطين ، ولم يكن هناك غزو فلتحم فيه الجيوش .. واستمر الحال على ذلك شهرا ..

وجاءت ليلة ، واحس مخلص ان احدا يحركه في سريره . فتح عينيه واستيقظ فوجد عتبة الغلام ..

سال : ما حاجتك ؟

قال عتبة : اجلس فقص على الرؤيا ، فما احسب الا ان قد دنا الموعد .. وحده مخلص برؤياه ، وانصرف عتبة .. لم يكذب ينصرف حتى نودى بالجهاد . وفزع مخلص الى جواده فأسرجه ، فلما بلغ باب القلعة كان عتبة قد سبقه اليه ..

وفتح القائد الباب وبدا الهجوم الليلي يحكى مخلص القصة « بلغنا مكانا به بعض آثار العدو .. قلت : من يجيئنا بخبر هؤلاء .

وثب عتبة .. وقال : انا .

واختفى عتبة في جوف الليل ..

« اذا الهتم الدعاء ألهمت الاجابة معه » .

« انا احمل هم الدعاء لا هم الاجابة » .



« اللهم احشر عتبة في حواصل الطير وبطن السباع » .

« اللهم اوزق عتبة اليوم شهادة في سبيلك تقر بها عين المسلمين »

لا أحد يعرف أى شيء كان يفكر فيه عتبة ..

كل ما راوه حضائه وهو يقوص في قلب الليل الاسود ..

وسيفه وهو يرتفع كالتضاء والقدر ..

اسفرت المعركة عن قتل عتبة الغلام .. بعد ان روت الاساطير طرفا من شجاعته في المعركة وعدد قتلاه من المشركين .. انطلق يصول فيهم ويجول بسر الله .. وايده الله بكوكبة من عنده ، فبدأ حصانه الاشهب مثل برق ينسف اشجار الغابة ويشقها ويشعل فيها حمرة النار والدم ، ثم استجاب الله دعاءه ..

كان قد لهم الدعاء فوردت الاستجابة .

وهكذا هز أحد الأعداء حربته ، حتى اذا رضى مكانها في يده ، ارسلها الى ظهر البطل فمرقت في جوفه حتى احس سناتها بين ثدييه ..

وصرخ يكبر الله هائلا : فزت ورب الكعبة ..

وفازت الطير والسباع بعشائها ..

وبات كل الخلائق راضيا من نفسه ..

سنجد صورة عتبة مكررة في عمرو بن عتبة .. وهو ليس ابنا لعتبة كما يبدو من تشابه الأسماء . انما هو ابن أمير ماسبطان وهو ابن أمير حاكم ، وابوه يريد ان يكون الابن حاكما من بعده ، والاب لا يستطيع العثور على ابنه .. فهو اما ساهر يتعبد ، واما مسافر يفزو في سبيل الله ..

او هو على حد تعبير الاب « كثير التجوال والترحال والسفر ، اذا افام بيننا اقام كانه غريب ، لا ياكل مما ناكل ، ولا ينام كما ننام ، ولا يأخذ فيما نأخذ، ونفسي تكاد تذهب من الرقة كلما رأته في نحوله وعذابه .. »

ويسوق الاب على ابنه بعض الزاهدين والصالحين والعلماء ليحدثوه  
ان يرفق بنفسه ، ويرد الابن على أبيه كأنما يضرع اليه .

— يا ابت .. انما انا عبد اعمل في فكاك رقبتى فدعنى اعمل في فكاكها .  
ويتركه الاب لشأنه ..

وكان شأنه يسيرا على نفسه .

كان لعمرو بن عتبة وغيفان كل يوم ، يتسحر بأحدهما ويفطر بالآخر  
واغتناه عما للناس من اسرة وفرش واثاثك ووسائل اغناه عن هذا كله  
حصير عتيق يريح عليه جسمه ساعة من الليل او بعض ساعة .

وكانت له عبارة يقولها عن صديقه معضد العجلي « لولا ظلمنا الهواجر ،  
وطول ليل الشتاء : ولذة التهجد بكتاب الله عز وجل ما باليت ان اكون  
عشبا » .

وقال اصحابه « كنا اذا خرجنا للعدو لا نتحارس بالليل لكثرة صلاة  
عمرو وقيامه » .

وحدث عمرو عن نفسه فقال : «سالت الله ثلاثا فاعطاني اثنتين ..  
وانا انتظر الثالثة . سألته ان يزهدي في الدنيا ، فما ابالي الان ما اقبل  
منها وما ادبر ، وسألته ان يقويني على الصلاة فرزقني منها وسألته  
الشهادة فانا ارجوها » .

خرج يوما على بعض رفاقه في جبة جميلة ومباعة حسنة ، واشار  
باصبعه لوضع في الجبة وقال « ما احسن ان يتحدر دمي على هذه الجبة  
ويجري عليها هنا وها هنا . »

والمعروف في العقيدة الاسلامية .. ان قلب المؤمن حين يدعو ، انما  
يدعو بصدى ما يحسه من قرب مقادير الله .. وسرائر المؤمنين في الارض  
هي المرأة التي يتراءى فيها ما يشاء الله ان يظهره من مقاديره الموشكة  
.. وحين يدعو المؤمن بأمله الحقيقي ، يكون القدر على قيد خطوتين منه  
وقد حضر بما يريد ..

خرج عمرو مع صحابته ، فاستقبلهم واد ضاحك مبتهج طلق الهواء  
لين النسائم وتحرك في نفسه وجد هائم .. وقال « ما احسن هذا

الوادی .. ما احسن الان لو ان مناديا نادى .. يا خيل الله اركبى » .

وما اسرع ان نادى المتادى : ياخيل الله اركبى ..

يعنى يا خيلا ستجاهد فى سبيل الله فليركب فرسانك ..

وعلم ابوه بركوبه فى سبيل الله .. وارسل وراءه من يستدعيه ولم  
يصل اليه رسول ابيه الا بعد ان اصيب ..

كانت اصابة من الصعب ان تقتل .. اصابه جرح صغير فجعل  
يخاطبه :

« .. والله انك لصغير .. وان يشا الله تعالى يبارك فى الصغير » .

.....

وجاء المساء يجزر اقدامه المحطمة ..

وبارك الله فى الجرح الصغير ..

مات عمرو بن عتبة .

تحدث الدم على عباةته فى نفس الموضع الذى تمناه .. رزقه الله  
الشهادة التى كان ينتظرها .

.....

كان بحر الخوف يلد شجاعة هائلة .

ليس هذا قانونا من قوانين الايمان . ليس للايمان قوانين تتحرك  
وتعمل عملها فى النفوس ..

ان الخوف العظيم من الله ، يخيف الخوف ذاته من المؤمنين بعد ذلك  
.. لا يعود المؤمن يخشى بعد الله احدا ..

ان توحيد الخوف يعنى ان تقصر خوفك على شىء واحد ..  
هو « ان تفضب الله تعالى » .

ومن هذا التوحيد تولد الشجاعة .. شجاعة الشهداء .

وقد كان معظم المارقين بالله شهداء .

ولم يكن التصوف بمعناه المقيد قد بدأ في الظهور ..  
وقد استغرق ميلاده اكثر من مائتي سنة بعد هجرة الرسول ..  
يرى ابن خلدون في مقدمته ان الاسم لم يكن معروفا في الاسلام قبل القرن  
الثاني ، ويقول ابن تيمية في رسالته « الصوفية والفقراء » .

« اما لفظ الصوفية ، فانه لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة ، وانما  
اشتهر التكلم به بعد ذلك . وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الائمة  
والشيوخ كالامام احمد بن حنبل وابي سليمان الداراني وغيرهما . وقد  
روى عن سفيان الثوري انه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن  
البصري » .

.....

كانت احوال المجتمع الاسلامي مهياة تماما لنشوء التصوف حين نشأ  
ولهذا نشأ ..

تتباين آراء العلماء في نشأة الزهد والتصوف ، يرى الدكتور المرحوم  
ابو العلا عفيفي ان العوامل التي ساعدت على نشأة الزهد في الاسلام  
كانت اربعة ..

**العامل الاول :** هو تعاليم الاسلام نفسه ، فقد حث القرآن على  
الورع وهجر الدنيا وزخرفها ، ودعا الى العبادة والتبتل وقيام الليل  
والتهجد .

قال تعالى : « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » المزملة اية ٧

**والعامل الثاني :** في نشأة الزهد في الاسلام هو ثورة المسلمين الروحية  
ضد نظام اجتماعي وسياسي قائم ، ذلك ان المسلمين عندما اتسعت  
فتوحاتهم وكثرت غنائمهم اقبل الكثيرون منهم على الدنيا وجنحوا اليها ،  
وشجعهم على ذلك الثراء المفاجيء الذي اصابوه ، وكانت نتيجة ذلك ان  
قامت في نفوس اتقيائهم ثورة داخلية محورها الصراع بين نفوس لا تزال  
على ايمانها القوى ، والدنيا المقبلة بمغرياتها ..

**اما العامل الثالث :** فقد كان الرهينة المسيحية ، فكثرا ما نقرأ عن  
زيارات العابدين من المسلمين للرهبان في صوامعهم واخادعهم عنهم بعض

تعاليمهم من ذلك ما روى عن ابراهيم بن ادهم انه قال « تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان » ..

اما العامل الرابع : فكان الثورة ضد الفقه وعلم الكلام .. فان انقياء المسلمين لم يجدوا في فهم الفقهاء والمتكلمين للاسلام ما يشبع عاطفتهم الدينية فلجأوا الى التصوف لاشباع هذه العاطفة .

هذه هي العوامل الاربعة المسئولة في رأى الدكتور ابو العلا عفيفي عن نشوء الزهد في الاسلام ، ويفرق الباحث بين الزهد والتصوف رغم اتصالهما اتصالا وثيقا ، فيرى أن مصادر التصوف الاسلامي خمسة :

١ - القرآن والحديث ..

٢ - علم الكلام ..

٣ - الافلاطونية الحديثة ..

٤ - التصوف الهندي ..

٥ - المسيحية ..

وسوف نلاحظ من هذا النظر ان الدكتور عفيفي لم يذكر الشيعة كمصدر من مصادر التصوف .. ولا أشار اليهم كمصدر من مصادر الزهد ..

ولو رجعنا الى الدراسات التي قام بها المستشرق نيكولسون ، وهي دراسات ترجمها الدكتور عفيفي نفسه ، فسوف نجد المستشرق يتحدث عن اصل التصوف ونشأته الاولى وتطوره فيقول تحت عنوان الشريعة والطريقة والحقيقة :

« في القرآن عدد غير قليل من الآيات التي تدل على ان محمدا ( صلى الله عليه وسلم ) كان على حلف من التصوف ، ولكن القرآن في جملته شأنه في ذلك شأن اسفار موسى الخمسة - لا يصلح ان يتخذ اساسا لأي مذهب صوفي ، ومع ذلك استطاع الصوفية « متبعين في ذلك الشيعة ، ان يبرهنوا بطريقة تاويل نصوص الكتاب والسنة تاويلات يلائم اغراضهم ، على ان كل آية ، بل كل كلمة في القرآن تخفى وراءها معنى باطنا لا يكشفه

الله الا للخاصة من عباده الذين تشرق هذه المعاني في قلوبهم في اوقات وجدهم ، ومن هنا نستطيع ان نتصور كيف سهل على الصوفية بعد ان سلموا بهذا المبدأ ، ان يجدوا دليلا من القرآن لكل قول من اقوالهم ونظرية من نظرياتهم ايا كانت ، وان يقولوا ان التصوف ليس في الحقيقة الا العلم الباطن الذي ورثه علي بن ابي طالب عن النبي ، ويلزم من هذا المبدأ ايضا ، مبدأ التأويل ، ان تأويل الصوفية لتعاليم الاسلام قد يأتي على انحاء واشكال لا حصر لها ولا لعمدها .. وربما أدى الى تناقض في العبادات والمسائل العملية ، وكل ذلك مفروض صدقه في النوع لا في الدرجة ، لان معاني القرآن لا حصر لها ، وهي تنكشف لكل صوفي بحسب ما منحه الله من الاستعداد الروحي » ..

هذا نص كلمات رينولد نيكولسون في كتابه « التصوف الاسلامي وتاريخه » ولقد كان مدهشا اشارته الى التصوف كعلم باطن ورثه علي بن ابي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

كان مدهشا ايضا ان يمر الدكتور أبو العلا عفيفي على هذه العبارة مرور الكرام فلا يتحدث عن علي بن ابي طالب أو الشيعة في حديثه عن مصادر التصوف ..

على ان ما لم يحققه الاستاذ قد حققه واحد من تلاميذه فيما بعد ، هو الدكتور كامل مصطفى الشيبى ، فقد تقدم برسالته لنيل درجة الماجستير في الآداب تحت اشراف الدكتور أبو العلا عفيفي ، وكان موضوع الرسالة هو « الصلة بين التصوف والتشيع » ونالت الرسالة الدرجة العلمية ، وطبعت في كتاب ثم نظر الباحث فيما كتب وعاد يسد الثغرات ، ثم عاد يعيد النظر بالزيادة والنقص فأخرج لنا كتابه الذي استغرق ١٤ عاما حتى ظهر بشكله النهائي ..

والكتاب بالغ الأهمية رغم ان الدكتور كامل الشيبى لا يعتبره مرضيا لغروره ، وترجع أهمية الكتاب لكونه يدرس موضوعا صعبا ، وينتهى فيه الباحث لآراء هدفها هو الامانة العلمية والرغبة المخلصة في اكتشاف الحقيقة .

ولعل الجديد في الكتاب ، الى جوار ما فيه من جهد علمي مخلص -

انه استعان بعدد من مراجع الشيعة انفسهم ، فلم يكن ممكنا له وهو يدرس هذا الموضوع ان يتجاهل مؤلفات الشيعة ..

وفي بداية الكتاب يعترف المؤلف بصعوبة البحث ، فيقول ان موضوع الكتاب يدور حول الصلة بين التصوف والتشيع ، وليس من السهل تبين هذه الصلة بين العالمين ، لان امورا قد جدت على كل منهما منذ بدا في الاسلام حتى صار كل منهما مستقلا مستغنيا عن الآخر ..

ومن الغريب انه قد ظهر في الحياة الاسلامية ثلاثة اتجاهات ما تزال ثابتة ظاهرة للعيان ، فقد نجد ناحية من العالم الاسلامي تسوده مذاهب اهل السنة ، ونجد مكانا آخر تسوده مذاهب الشيعة ، وتلمع مناطق ثالثة يغلب عليها التصوف مختلطا باحدى هاتين المجموعتين من المذاهب ، ومن الملاحظ ( لم يزل النص للدكتور كامل الشيبى ) ان المسلم يستطيع الاستغناء عن مذاهب اهل السنة اذا كان شيعيا ، وعن مذاهب الشيعة اذا كان سنيا .. ويستطيع كل من السنى والشيعى ، ان يحيا حياة اسلامية دون ان يتصل ذهنه بالتصوف ونظرياته وعملياته ، غير ان المتصوف لا يستطيع الاستغناء عن احد هذين الاتجاهين الاسلاميين .. فلا بد ان تتصل الطرق الصوفية باتجاه من هذين الاتجاهين ، فمن المعروف ان النقشبندية مثلا من الطرق الصوفية السنية ، والبكتاشية من الطرق الشيعية ، فتدخل الاولى في فرق اهل السنة ، والثانية في فرق الشيعة .

وقد بين كثير من الباحثين القدماء اتصال المتصوفة باتجاه اهل السنة والجماعة ، وهو الاتجاه الوحيد الذي نعترف له بالصحة في الاسلام ، وقال القشيري في رسالته التى وجهها للمتصوفة سنة ٤٣٠ هجرية .

« اعلموا - رحمكم الله - ان شيوخ هذه الطائفة - يقصد الصوفية - قد بنوا قواعد امرهم على اصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم

عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف واهل السنة من توحيد » .  
وكان الجنيد يقول .. « مذهبنا مقيد باصول الكتاب والسنة » ..

ورغم ان معظم العلماء يرون ان التصوف كان بمره اسلاميه لها اللون السننى دون الشيعى . الا ان احدا لم يلتفت الى علاقه التصوف فى بدنه بالتشيع .. وهذا ما دفع الدكتور كامل مصطفى الى دراسة هذا الموضوع فى كتابه ..

وسوف نعرض لوجهة نظره ثم نقول رايانا فيها بعد ذلك ..

الشيعه فى راي ابي الحسن الاشعرى هم الذين شايعوا عليا رضى الله تعالى عنه ، وقدموه على سائر الصحابة .

وقد ذكر ابن حزم ذلك فى وضوح وراى ان « من وافق الشيعة فى ان عليا رضى الله عنه - افضل الناس بعد رسول الله فهو شيعى وان خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون ، فان خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا » ..

وابن حزم متعصب على الشيعة - كما هو معروف - ولكنه هنا يحدد ويجمع ويمنع ، فرايه هنا شهادة باحث .

.....

هذا راي الشيعة كما يورده الدكتور الشيبى ، وهو راي يعلا المسلم بالحزن ، لان المفاضلة بين الصحابة والفلو فى احدهم امر جر على المسلمين عديدا من الفتن والمحن ، وكان سببا فى انقسام المسلمين ، ودينهم دين توحيد لله وتجميع لعباده ..

ليس هنالك مسلم سننى ينكر فضل على بن ابي طالب .. ومن ينكر فضل احد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اثم اثما عظيما . لكن عدم انكار الفضل لا يعنى الفلو ، ولا يعنى اسباغ صفات القداسة على احد من المسلمين ، ان عظمة الدين الاسلامى تتمثل فى انه دين توحيد يعرف حق الله عز وجل على عباده ، ولا يجعل لرسوله صلى الله عليه وسلم رغم انه رحمة للعالمين بنص الايات .. لا يجعل له اى نوع من انواع القداسة ، انما هو رغم فضله البشرى انسان يعيش فى الاسوالى وياكل الطعام ويجوع ويعطش ويمرض ويصح ويحيا ويموت .. شأنه شان البشر فى اى مكان وزمان ..



ان نضاعة التوحيد الاسلامى وبشرية الرسول صلى الله عليه وسلم  
آيتان من آيات الدين الاسلامى الحنيف ..  
وهما آيتان يصمت بهما كل حديث او اجتهاد .

.....

مهما يكن من امر ..

لم يكن الواقع فى ظروف الفتنة الاولى مناخا هادئا للتفكير ، وكانت  
الاحداث والدماء تسدل ستارة على الهدوء العقلى والوجدانى اللازم  
لادراك الامور .. ومن هنا تحول على بن ابي طالب كرم الله وجهه فصار  
دون ان يعرف او يقصد او يريد - فتنة كبيرة افتتن به الشيعة ،  
وغالوا فيه غلوا كبيرا ..

ولفت الدكتور كامل مصطفى الشيبى الاذهان الى حقيقة قد تكون  
خافية وهو يبدأ بحثه فى الكتاب عن الامام على .

ذلك ان الامام عليا شخص له جانبان . جانب تاريخى يعرفه الناس  
وتعرض له الكتب العامة .. وجانب روحى دخلت فيه اضافات قد تكون  
اسطورية ، ويبدو هذا الجانب عند الشيعة اولاً ثم عند المتصوفة بعد  
ذلك ..

ويسمى الدكتور الجانب الاول بالجانب العام . والثانى بالجانب  
الخاص .

اما الجانب العام فمعروف خلاصته ان الامام على بن ابي طالب ولد  
بعد النبى بثلاثين سنة .. واسلم وعمره عشر سنين فى اليوم الثانى لبعثة  
النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعد خديجة رضى الله تعالى عنها مباشرة ،  
وانه لم يعبد الاصنام قط لصغره وانه كان اقرب الناس الى الرسول  
صلى الله عليه وسلم .. وكان ربيبه وكان خليفته على ودائمه وكان  
صاحب لوائه وكان خليفته فى اهله ، وكانت منزلته منه بمنزلة هارون  
من موسى بنص الحديث عن النبى نفسه ..

ومن المعروف ان النبى اخى بينه وبين على .. وقال فيه من كنت  
مولاه فعلى مولاه .. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وقد رأى الشيعة في هذا الحديث ترشيحا له لتولى الأمر بعد النبي صلى الله عليه وسلم .. ولكن بغيصة المسلمين لم يوافقوه على ذلك مستندين الى حديث آخر لقائه النبي في آخر لحظة من حياته ..

من المعروف او المشهور ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في علي « انا مدينة العلم وعلي بابها » ..

ايضا يروى عن علي انه كان مغاليا في الزهد والعدل ، الى حد انه قسم رفيقا سبعة أسهم ، وروى أبو طالب المكي انه كان ازهد الصحابة .. وانه لم يترك صفراء ولا بيضاء الا سعمائة درهم بقيت من عطائه اراد ان يشتري بها شيئا لاهله .

هذه هي الجوانب العامة المعروفة عن علي بن أبي طالب ..

اما الجانب الخاص الذي عني به الدكتور بالمثل العليا والاصناف والجوانب الروحية التي اضافها اليه الشيعة اولا ، ثم المتصوفة بعد ذلك حين جعلوا عليا مرجعهم ورأسهم في التصوف والزهد ..

ويرى الشيعة في علي ما يراه المسلمون فيه ، ولكنهم يضيفون اليه اشياء تميزه عن زملائه من الصحابة ..

يرى الشيعة انه لا يقاس بال محمد من هذه الامة احد ، ولا يسوى بهم احد ..

وفي التفسير المنسوب الى الامام الحادي عشر للشيعة يقول « ان الله لما خلق آدم وسواه وعلمه اسماء كل شيء وعرض على الملائكة جعل محمدا وعليا وفاطمة والحسن والحسين اشباحا خمسة في ظهر آدم وكانت انوارهم تضيء في الافاق . الى آخره » .

وينسب الشيعة الى علي بن أبي طالب قولهم « انا آدم وانا نوح وانا موسى وانا عيسى انتقل في الصور كيف اشاء من رأي فقد رأهم » .

وتلك صورة تذكرنا بمقالة الحلاج المشهورة ..

**فاذا ابصرتنى ابصرته واذا ابصرته ابصرتنى**

ويلاحظ الباحث كيف تلقف المتصوفة امثال هذه النصوص واخبروا

افكار الفلاة وجعلوها مستند طريقتهن ومثالا للنسج على منواله ..  
وقد وردت عن علي بن ابي طالب الوان من الحوار نسبها اليه كميل  
ابن زياد الراهد الشيعي المشهور ( المقتول سنة ٨٣ ) ..  
قال علي : الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير اشارة .

قال كميل زدني بيانا ..

قال علي : محو الموهوم وصحو المعلوم .

قال كميل زدني بيانا ..

قال علي : هتك الستر لقلبة السر .

قال كميل زدني بيانا ..

قال علي : نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره .  
قال كميل زدني بيانا ..

قال علي : اطفئوا السراج فقد طلع الصبح ..

وبلاحظ الباحث امتلاء هذا الحديث بمصطلحات صوفية تجعل  
اختراع الحديث أمرا مؤكدا .

.....

ايضا نسب الى علي بن ابي طالب قول يوضح منهجه في المعرفة .

قال : « العقل لماسم العبودية لا لادراك سر الربوبية .. »

وهذا الحديث يعني ان علما يرى ان اللوق هو المنهج الذي يصل به  
الانسان الى الحقيقة الالهية ، اما العقل فهو الذي يستعمل في ادراك  
الحلال والحرام وفهم العبادات وما جرى مجراها ..

ايضا روى عن علي بن ابي طالب انه قال « سلوني قبل ان تلتقوني فانا  
بطريق السماء اعلم مني بطريق الأرض » .

ايضا روى عنه انه قال « ان امرئ صعب مستصعب لا يحمله الا عبد  
امتنع الله قلبه للإيمان ، ولا يعي حديثنا الا صدور أمينة واحلام رؤينة » .

.....

لو نحينا جانباً ما سبب الى علي بن ابي طالب .. ونظرنا الى شخصيته فسوف نرى انه عاصر الفترة التي تحول فيها الاسلام من فكرة متالية الى صراع عمل سياسى . وقد وجد علي بن ابي طالب نفسه مطالبا بان يسدد الخطا وان يدل على الحق ويخوف من المزالق . وان يفغ وفتنه الصلبة مدافعا عن الاسلام ..

ودفع دمه تمنا لاسلامه وتقواه ..

وصار دمه بحرا تشرب منه انهار الصوفية ..

يلاحظ كتاب « الصلة بين التصوف والتشيع » ان كلام علي بن ابي طالب يتداخل مع كلام اسلاف المتصوفة من الزهاد . وانه يتداخل مع كلام الصوفية انفسهم ..

✽ واول نص يورده في هذا المقام ما قاله عامر بن عبد قيس الزاهد البصرى ( المتوفى في خلافة معاوية ) فقد قال هذا الزاهد : لو كشف القطاء ما ازددت يقينا .

وتلك عبارة وردت مسندة الى علي بن ابي طالب .. وهى مأخوذة من الآية التى تقول « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد » .

✽ سمع سعيد بن جببر الزاهد المحدث ، قتل بامر الحجاج سنة ٩١ هجرية ، يقول لجماعة فى أعلى المسجد ليلا : سلونى قبل ان لا ترونى ..

وفى ذلك تكرار لعبارة على المشهورة « سلونى قبل ان تفقدونى » .

ايضا نسب لسفيان الثورى مقالة تشبه هذه المقالة .. ايضا نسب نفس القول الى جعفر الصادق .

✽ اما الحسن البصرى فقد قال معاصروه فى كلامه انه مأخوذ لفظا ومعنى او معنى دون لفظ من كلام امير المؤمنين على بن ابي طالب ..

✽ روى عن سفيان الثورى ( المتوفى سنة ١٦١ هجرية ) وهو شيخ الزهاد فى الكوفة انه قال : الزهد فى الدنيا قصر الامل ، وليس باكل

الغليظ ولا يلبس العباء » ، وذلك متصل بقول على بن ابي طالب ان  
اخوف ما اخاف اتباع الهوى وطول الامل .

\* وروى عن عبد الواحد بن زيد قوله : مثل المؤمن كالولد في الرحم  
لا يحب الخروج ، فاذا خرج لا يحب ان يزجج ، فكذاك المؤمن في الدنيا .

وذلك تعبير ضعيف عن قول على بن ابي طالب « واعلموا انه ما من شيء  
الا ويكاد صاحبه ان يشيع منه ويمله الا الحياة » .

\* وترد لرابعة العدوية ( المتوفاة سنة ١٨٠ هجرية ) عبارة قالتها  
« ما عبدته خوفا من ناره ولا طمعا في جنته فاكون كالاجير السوء ..  
عبدته حبا له وشوقا اليه » ..

وقد وردت هذه المعاني في عبارة على بن ابي طالب ( وهى عبارة  
تنسب الى حفيده ابن الحسين على زين العابدين ) ..

قال على : ان قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وان قوما  
عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد . وان قوما عبدوا الله شكرا فتلك  
عبادة الاحرار » ..

\* كان مالك بن دينار الزاهد البصرى ( المتوفى سنة ١٨١ هجرية )  
يقول في كلامه كثيرا من المعاني التى استمدتها من على بن ابي طالب ..  
فقد قال لوالى البصرة وهو يقف وسط جنوده وابته حين ساله : الا  
تعرفنى ؟ ..

قال مالك من اعرف بك منى . اما اولك فنطفة مدرة ، واما آخرك  
نجيفة قلدة . وهذا الكلام يتصل بما قاله على بن ابي طالب « ما لابن  
ادم والفخر واوله نطفة وآخره جيعة » .

وكان منبة الغلام ينظر الى قول على المشهور للدنيا « قد هجرتك  
ثلاثا ولا رجعة لى فيك » حين قال فى خطابه لحورية تخيلها « طلقت  
الدنيا ثلاثا ولا رجعة لى فيها حتى القاه » ..

وقال شقيق البلخى ( المتوفى سنة ١٩٤ هجرية ) اذا كان العالم  
طمعا وللمال جامعا فبمن يقتدى الجاهل ؟ واذا كان الفقير المشهور

بالفقر راغباً في الدنيا والتنعيم بها فبمن يقتدى الراضب حتى يخرج من  
رغبته ؟ وإذا كان الرامى هو الذئب فمن يرعى الغنم ؟ ..

وهذه العبارة الطويلة التى تضرب الامثال على اهمية الزهد وكونه  
قدوة ، هذه العبارة لخصت في قول اسسند الى على بن ابي طالب  
« ان الله اخذ على ائمة الهدى ان يكونوا في مثل ادنى الناس ليقتدى بهم  
الفنى ولا يزرى بالفقر فقره » ..

.....

يلاحظ كتاب الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل مصطفى  
الشبيبي ان التداخل لم يقتصر على ما اخذه الزهاد من اقوال على - وإنما  
تمدها الى بناء التصوف ومؤسسيه أيضا ..

لقد شرب كثير من الصوفية من بحر الامام على بن ابي طالب ،  
ووضعوا كثيرا من كلامه او ( بتحديد ادق ) وضعوا كثيرا مما نسب اليه  
من كلام في عبارات جديدة من تأليفهم ، وكان مستواهم في البلاغة والفن  
اقل كثيرا من مستوى الامام على ، فقد كانت عباراتهم أطول واقل  
حساسية ، وكان على بن ابي طالب مشهورا بالصمت ، فاذا تكلم اوجز  
الحكمة فيما يقول .

حين تولى الاشر النخعي عصر عهد اليه على بن ابي طالب عهده  
المشهور الذى قال فيه « اذا حدث لك ، ما أنت فيه من سلطانك أبهة او  
مخيلة ( يعنى اذا اغتررت وملاك الغرور ) فانظر الى عظمه ملك الله فوقك  
وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فان ذلك يطامن من طماحك  
( يقلل من غرورك ويكف عنك غربك ) يحول بين الغرور وبينك ) وبفى ،  
اليك بما عذب عنك من عقلك ( يرجع اليك بما ذهب من عقلك ) .

نفس هذه الفكرة تداولها الصوفية .. فيها هو ذو النون المصرى  
( المتوفى سنة ٢٤٥ هجرية ) يقول « من اراد التواضع فليوجه نفسه  
الى عظمة الله فانها تلوب وتصفو ، ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان  
نفسه ، لان النفوس كلها فقيرة عند هيئته » .

ويريد ان نلفت انتباه القارئ الى ان فكرة على بن ابي طالب بالدعوة الى التواضع هي احدى الافكار الاساسية للصوفية ، ولقد تناول الصوفية فكرة ضالة الانسان امام الله وجعلوا منها جوهرها اساسيا من جواهر افكارهم ..

فالصوفي من لا يرى لنفسه مكانة ولا مقاما ولا وجودا امام الله ، وشيوخ التصوف السني كالجنيد يريدون من الصوفي ان يذهب ويضيع ويتلاشى ويعود الى الصفاء الذي كان عليه قبل ان يخلقه خالقه ، حين كان ذرة في عالم الدر ..

والتصوف بمعنى تصفية القلب لله ينطوي على العبودية لله ، ومعنى العبودية ان يسجد العبد لله هذا السجود المزدوج ، مرة بجسده ومرة بجماع روحه .

بل ان تواضع الصوفية يجعل هدف تجاربهم الروحية هو الفناء في خالقهم . وهكذا اثر على في الصوفية ..

فهم احيانا ينقلون عنه نص معانيه بعد وضعها في اساليب جديدة ، وحيانا يأخذون افكاره الاساسية ويبنون عليها ابناء جديدة .

قال ذو النون المصري « ان الله تعالى انطق اللسان وامتحنه بالكلام وجعل القلوب اوعية للعلم » .

وقال على بن ابي طالب القلوب اوعية فخرها اوعاها ..

هذه الفكرة التي تتضمن ان القلب وعاء . جعل منها الصوفية مدارا من مدارات افكارهم .. وها هم يقولون « سبحان من جعل قلوب العارفين اوعية للذكر وجعل قلوب الزاهدين اوعية للتوكل ، وقلوب المتوكلين اوعية للرضا . وقلوب الفقراء اوعية للقناعة وقلوب اهل الدنيا اوعية للطمع » .

واذا كان على بن ابي طالب قد الملح بهجرانه للدنيا ، فهام الصوفية يصرحون بانهم قد طلقوا الدنيا ثلاثا وهجروها هجرانا بلا عودة . ومثلما كان على بن ابي طالب يقسم الناس الى ثلاثة اصناف من حيث عملهم فيقول « الناس ثلاثة فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجات ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق » ..

فكذلك يفعل الصوفية ، وها هو ذو النون يقسم المعرفة الى ثلاثة أقسام « الأولى خط مشترك بين عامة المسلمين ، والثانية معرفة خاصة بالحكماء والعلماء ، والثالثة خاصة بالاولياء الذين يرون الله بقلوبهم » .

وقد بلغ ولع الصوفية بعلى بن ابي طالب مبلغا عظيما ، فنسبوا اليه اقوالا لم يقلها مثل « الصوفي من لبس الصوف على الصفا واطعم الهوى طعم الجفا ، وكانت الدنيا منه على القفا واستوى عنده الذهب والحجر ، والا فالكلب الكوفي خير من الف صوفي » .

ومن الواضح ان العبارة منحولة لان لغة على بن ابي طالب لا تسمح له باستخدام هذا التعبير المتأخر « كانت الدنيا منه على القفا » .

ولم يتوقف ولع الصوفية به عند حد ..

اخذوا منه .. وزادوا فيما اخذوه منه .. ونسبوا اليه .. وقالوا فيه كلام حب عظيم ، ونسبوا علمه الى علم يشبه العلم اللدني او علم الاسرار ..

يصفه أبو نعيم في الحلية فيقول :

« سيد القوم ، محبوب المعبود .

باب مدينة العلم والعلوم ، ورأس المخاطبات ومستنبط الاشارات .  
نور الطيعين وراية المهتدين ، وولي المتقين وامام العادلين وزينة العارفين ،  
المنبئ عن حقائق التوحيد المشير الى لوازم علم التفريد .. الى آخره » .

وهذه الاشارة الى التوحيد والتفريد تعنى علم الصوفية المخصوص .  
يقول ابو طالب المكي « وكان عند اهل العلم ان علمهم ( يقصد الصوفية ) مخصوص لا يصلح الا للمخصوص » .

ويرى السراج في شرحه لتقسيم على بن ابي طالب للعلوم بعد ان تبنى هو الآخر تقسيما ثلاثيا للعلوم ..

يرى السراج ان اول العلوم علم بين للخاصة والعامة وهو علم الحدود



والامر والنهي وعلم حص به موم من الصحابة دون غيرهم وهو العلم الذى كان يعلم به حديفة بن اليمان . . . وعلم خص به رسول الله لم يشاركه فيه احد . وقد وصع السراج عليا في المنزلة التي كانت لحديفة . . . بل انه وضعه بعد الرسول مباشرة لان الرسول علمه سيعين بابا من العلم لم يعلم ذلك احدا غيره . . .

وبسند الصوفية الى علي بن ابي طالب قوله « ما من اية الا ولها اربعة معان ظاهر وباطن وحد ومطلع . فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد احكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله تعالى من المبدأ بها . »

ويرى الامام الجنيد ان الامام عليا قد اعطى العلم اللدنى . . . ويرى عن الجنيد انه قال : « رضوان الله على امير المؤمنين » لولا انه اشتغل بالحروف لافادنا من علمنا هذا معان كثيرة » ثم يقارن الجنيد بين علي والخضر ويجعلهما بمنزلة واحدة ويبين ان هذا العلم اللدنى حظي به الخضر بقول الله « وعلمناه من لدنا علما » . . . وبهذه الرؤية كان الجنيد يعتقد ان علم علي بن ابي طالب لم يات به تعلم . وانما هو توفيق الهى حظي به . . . وباسف الجنيد لان عليا اشتغل بالحروب . ولولا هذا لاستفاد منه الصوفية وتعلموا الاسرار التي عرفها . . .

وينبها نيكلسون الى ان التصوف ليس في الحقيقة الا العلم الساطن الذى ورثه علي بن ابي طالب عن النبي . . .

ويرى ابن الفارض نفس الراى . فهو يقول في تائيته الكبرى :

**واوضح بالتاويل ما كان مشكلا على بعلم ناله بالوصية**

اما ابن عربى فهو يفسر النبا العظيم في قوله تعالى « هم يتساءلون عن النبا العظيم » بان النبا العظيم هو القيامة الكبرى ولذلك قيل في امر المؤمنين على هو النبا العظيم وفلك يوح « اى الجمع والتفصيل — باعتبار الحقيقة والشرعة لكونه جامعاً لهما » .

اما جلال الدين الرومى فيقول في علي بن ابي طالب  
منذ كانت صورة تركيب العالم كان علي . . .

منذ نقشت الأرض وكان الزمان كان على ..

الفتاح الذى انتزع باب خيبر بحملة واحدة كان على ..

من كان هو الوجود ولولاه لسرى العدم فى الوجود اياه كان على ..  
ان سر العالمين الظاهر والباطن الذى بدا فى شمس تبريز .. اياه  
كان على ..

وكلما تقدم الزمن ، كان على بن ابي طالب يتحول الى اسطورة عند  
الصوفية ..

لقد وصلوا الى القول بان على بن ابي طالب لم يميت ، وانما رفع الى  
السماء كما رفع عيسى بن مريم وسيئزول كما نزل عيسى .

وهذا نص يرويه الشعرانى عن ولى يحمل اسم على وفا ..

وجدنا بعد القرن السادس والسابع صوفية يزيد من مقامهم انهم  
علويون كمبد القادر الجبلى والسيد احمد الرفاعى والسيد احمد البدوي  
وابو الحسن الشاذلى وابراهيم الدسوقي وعبد الوهاب الشعرانى واستلا  
الشعرانى الشيخ على الخواص وابن قضيب البان الموصلى وغيرهم  
كثير ..

ولقد كان قتل على بن ابي طالب سنة ٤٠ هجرية ، وكان استشهاده  
رائعا ، فصار موته كحياته مرتين ، مونا طبيعيا عاما ومونا اسطوريا  
خاصا ، مثلما كان علمه علما طبيعيا عاما وعلما سريا خاصا « وقيلت فى  
موته اساطير كثيرة » ..

قيل انه حمل فى تابوت على جمل فضل الجمل طريقته ..

ويذكر ابن حجر عن ابن عساكر انه قال : « لما قتل حملوه ليدفنوه مع  
رسول الله ، فبينما هم فى مسيرهم ليلا اذ ند ( تاه ) الجمل الذى هو عليه  
فلم يدر اين ذهب ولم يقدر عليه ، ولذلك يقول اهل العراق هو فى  
السحاب ، وقال غيرهم انه وقع فى بلاد طيء فاخذوه ودفنوه » واتكر  
البكتاشية هذا كله ، فهم شيعة وصوفية معا ، ولذلك قالوا انه بعث  
من جديد « وظهر مثلما على جمل وقاد حنازته بنفسه الى مدقنها » ..

وبهذه النهاية الفنية المسرحية ، يضع الصوفية على بن ابي طالب  
سدا لهم جميعا .

يرى الدكتور كامل الشيبى ان عليا دخل التصوف حتى صار اساسا من اسسه لا يعارى فيه احد ، حتى ان ابن خلدون يصول في معرض تناوله تأثير الشيعة على التصوف ان الصوفية يلبسون الخرقه ، لان عليا رضى الله عنه البس الخرقه للحسن البصرى واخذ عليه بهذا بالانتماء الطريقه ..

.....

ما هى مسئولية على بن ابي طالب من هذا كله ..

ما هى حقيقة نسبه للصوفية والتصوف ..

هل كان على بن ابي طالب عالما بالاسرار قد اوتي من العلم اللئلى كما اوتي العبد الذى يتحدث عنه الله تعالى فى قصة موسى والسفينة والغلام والجنار .. ؟

هذه كلها اسئلة هامة .

نعتقد — وهذا راينا الخاص — ان على بن ابي طالب لم يكن مسئولا عن دخوله عالم الصوفية والتصوف ..

فلم يؤثر منه بسند معقول ما يؤدى الى القول بانه كان يرى فى نفسه امتيازاً خاصاً او علماً خاصاً اوتيه من لدن الله ..

لم يكن لمدلول الصوفية والتصوف معنى فى ذهنه « لان التعبيرين نشأ بعد استشهاد بفترة » ..

لم يكن على بن ابي طالب رضى الله عنه كثير الكلام « انما كان دائم الصمت فان نطق طواعته الحكمة » ..

لم يكن يعتقد ان قرابته من النبى تجعل له وضعاً خاصاً فى الاسلام ، وانما كان يعرف ان الفضل فى الاسلام للتقوى « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وكان رجلاً تقياً بحق ..

وحين تقدم على بن ابي طالب لحكم المسلمين لم يكن يتقدم لانه قريب الرسول او من آل البيت ، وانما تعمد لانه رأى فى نفسه القدرة والفضل

لحكم المسلمين .. وكان قادرا وفاضلا ..

نريد ان نقول ان على بن ابي طالب ليس مسئولاً عن الغالين فيه او المنتسبين اليه او الآخذين منه .. تماما مثلما كان عيسى ابن مريم عليه السلام بريئا ممن نسبوه الى الله بالنبوة او الثاوث او اى اسلوب .

**والاسلام دين واضح .. ومن يعرف الاسرار عهد الى الصمت ، وهذا شرط ورد في القرآن الكريم عن العبد الصالح الذي يعتقد العلماء انه الخضر ..**

من يعرف لزمه الصمت ..

ولقد كان على بن ابي طالب عارفا . ولهذا لم يتحدث عن علم الاسرار « انما ضرب للمسلمين بسلوكه نموذجا راقيا لما ينبغي ان تكون عليه حياة المسلم » ..

وهو نموذج سرعان ما تناسى الناس وضوحه ، وان افاضوا في الحديث مما صمت هو عنه او دثره بالكتمان ..

ان طبيعة السر في الاسلام انه سر .. لا ينكشف الا لافراد .. وعليهم بالصمت ، وبذلك يبقى للسر معناه ..

نحن نسلم جدلا بأن على بن ابي طالب كان يعرف كثيرا من الاسرار ، ولكن كيف نناقش ما صمت هو عنه . اليس الافضل ان ننظر في حياته لنرى كيف عاشها ..

كانت حياة على بن ابي طالب باختصار .. محاولة راعيه لصب الاسلام في القالب الذي اراده له الله والرسول ..

لقد اعطى حياته للاسلام والمسلمين ، وتكبر على الدنيا بجاهها وماله ، ورفض ان ينزل عن مبادئ الاسلام وهو يدخل صراعه الذي دخله « وبسبب ثقائه ومثاليته هزم في الصراع .. وكانت هزيمته نصرا هائلا للاسلام ، فقد كان مع الحق وكان الناس يعرفون انه على الحق ، وكان استشهاداه من اجل هذا الحق اعلا ، صارما لضم الحق واعلامه ..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم احب الخلق عنده ، والدليل على ذلك ان عليا سمي ابتداء بعد الحسن والحسين باحب الاسماء اليه .. محمد .. ثم العباس ثم ابا بكر ثم عمر ..

وفي الوقت الذي كان الاسلام فيه ينتشر وكان الصراع على أشده حول الحكم ، كان علي بن ابي طالب يقوم بالقاء محاضرات أسبوعية في مسجد الكوفة لتوجيه الشباب الى حقيقة الاسلام ، وكان هذا يحدث مع ابن عمه عبد الله بن عباس .. وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية التي تزعمت وازدهرت بعد ذلك في بغداد عاصمة العباسيين ..

ولقد كان في موت علي بن ابي طالب شيئا يثير الانتباه .. ومن المدهش ان هذا الشيء لم يزل موجودا ..

كان علي بن ابي طالب يعرف حين خرج انه خارج ليقتل ، كان يتوقع هذه النتيجة ، أو كان يراها بقلبه ، ورغم ذلك ، وربما ذلك ، وربما بسبب ذلك خرج ..

لقد أدرك علي بن ابي طالب ان الاسلام الذي يمثلته معاوية هو القشرة الاسلامية مع لب الكسروية والقيصرية ، قشرة اسلامية وجوهر رئاسي لا يعبا بشيء سوى الرئاسة ..

وحين وقف ضد هذا كان يدرك انه سيقتل .. وقد أدان على يده هذا النظام الى الابد .. ونبه المسلمين في ذات الوقت الى أهمية الجوهر .. وكان موته في حد ذاته كافيا لاعلان الحقيقة ..

لم يكن موته عاديا ..

كان كل شيء يجابهه بهدده بسحق طموحه ، ولم يكن طموحه شخصا انما كان اسلاميا ، وأدرك انه يجب ان يحرق في الخوف دون خوف . وصار شجاعا الى مقتله ..

ولقد أدرك علي بن ابي طالب هذه الصفة الخاصة التي تثبت للشهداء ، وهذه الطبيعة الخاصة التي يخلعها التاريخ على التضحية بالذات .. ولهذا خرج ولهذا استشهد ..

أراد بموته أن يحى مبادئه ويزيد من جمع الناس حولها ، وأراد باستشهاده أن يعرف الناس أن الاسلام يستحق أن يموت من أجله أمثال علي بن أبي طالب وقد وصى المسلمون الدرس بعده ..

وبسبب عنفه في الحق وجهه للإسلام .. غالى فيه الناس ونسبوا اليه ما لم يقله وتوسعوا في ذلك ..

هذه هي مسئولية علي عن التصوف ، وهذه نسبته الى الصوفية .. لقد صنع دون أن يقصد مثالا اسطوريا بالغ السمو .. كان فتوة في حرية .. والفتوة تعبر يستدعى معاني القوة القادرة ، واكتشف الناس فتوته ، وصار تصير الفتوة من تعبيرات الصوفية .

جاء في المنشور الذي أصدره الخليفة العباسي الناصر لدين الله حين أصدر الفتوة وجعل نفسه رأسها « بسم الله الرحمن الرحيم .. من العلوم الذي لا يتمارى في صحته ولا يرتاب في براهيته أن أمير المؤمنين كرم الله وجهه هو أصل الفتوة ومنبعها ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها ( وعنه تروى محاسنها وأدبها ، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، واليه دون غيره ينسب الفتيان ) وعلى منوال مؤاخاته النبوية الشريفة نسج الرفقاء والأخوان » ..

ومن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخى بينه وبين علي بن أبي طالب ..

### ويبقى سؤال ..

هل كان علي بن أبي طالب عالما بالأسرار قد أوتي من العلم اللئني كما أوتي الخضر ..

### هذا سؤال نجعل الإجابة عليه بصراحة ..

لم يرد عن علي ما يشير صراحة الى أنه قد أوتي من علم الأسرار اذا جار أن يكون للأسرار علم .. اذ مفاد الأسرار ومعناها أن تظل خافية .. لم يرد عن علي ما يشير صراحة الى أنه أوتي من لدن الله علما ..

ربما كان الرسول يؤثره ببعض اسرار النبوة .. هذا محتمل وقائم، وربما كان الله يقذف في قلب على بالعلم . هذا محتمل وقائم ، ولكن هذا كله لا دليل عليه سوى الصمت ، ومن ثم تصعب الاجابة على السؤال، ولعل اميل الى ترجيح الظن بأنه اوتي من هذا العلم الالهى .. لانه صمت تاما ولم يتحدث عنه ..

وتبقى اجابة السؤال مستعصية ..

لا نعرف ..

كل ما نعرفه انه كان بحرا عظيما من البحار التي سقاها محيط النبوة ..  
ومن البحار تولد السحب والأنهار والبحار مرة اخرى .

على طريق الحياة ..

تمضى أعظم الشخصيات الانسانية وهي لا تتركى سوى عبادة الفكر ، ولا تحمل في يدها سوى شموع الحقيقة ..

وينسدل الظلام فتتحرك الايدي الائمة بالخناجر المسمومة وتضرب ..  
وتسقط الشمعة من يد حاملها ..

ويسيل الدم .. ويخطو احد الشهداء خطواته الاخيرة من دنيا الباطل الى عالم الحق ..

هذه المأساة الانسانية تتكرر في حياة النوع البشرى كثيرا ، منذ ان خلق الله تعالى آدم ، الى ان يرث الله الارض ومن عليها ..

لم يسلم الانبياء وكبار العارفين منها .

ولقد كان ميسى عليه السلام موشكا على القتل لولا ان رفعه الله تعالى اليه . ومن المدهش ان الناس تشترك سواء بالصمت او خضوعا للمصالح الشخصية في جرائم اغتيال هذه القمم الانسانية ، فاذا سقطت احدى هذه القمم ، بدأت أنهار البكاء .. وبدأ الحزن المرير .. وبدأ تمزيق الوجوه والصدر ، وراحت الاساطير تعمل عملها بالاضافة والحذف والتعديل والتبديل الى شخصية الشهيد ، فاذا نحن امام

شخصيه اسطوريه تختلف تماما من حقيقة الشخصية الاصلية .

ولقد حدث شيء يشبه هذا تماما في أيام الفتنة الكبرى ..

تقاعس الناس عن علي بن أبي طالب واسلموه لسيوف القتلة ،  
وتقاعسوا عن الحسين بن علي واسلموه لسيوف الخيانة .

فلما ذهب الشهيدان الى الله ، نسجت الأساطير حولهما خرافات  
عديدة ، وبدأت حركة الغلو والفلاة ، فاذا النور الالهى قد تسرب من نبي  
الى نبي حتى حل في جسد علي ، واذا علي لم يميت وانما هو حي يعرق  
تحت الدثار الثقيل ، الى امثال هذه الخرافات التي جاء الاسلام أصلا  
لحربها ، وموقف الشيعة المعتدلين من الفلاة واضح وحاسم ..

قال الصدوق القمي استاذ الشيخ المفيد .

« اعتقادنا في الفلاة انهم كفار بالله جل اسمه » .

قالها الشيخ ثم قرا قوله تعالى في سورة آل عمران : « ما كان لبشر  
ان يؤتية الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عبادا لي من  
دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون .  
ولا يأمركم ان تتخلوا الملائكة والنبیین اربابا ايامكم بالكفر بعد اذ انتم  
مسلمون » .

ولقد أدرك علي بن الحسين بن أبي طالب ان الناس ستختلف حوله  
وتحاول استغلال اسمه سواء في الدعوة اليه أو الدعوة لخرافة الغلو ..  
أدرك هذا جيدا فابتعد تماما ..

لم يمكن لاحد من استغلال اسمه أو الدعوة اليه ..

أعطى ظهره للعالم وللدنيا وانصرف الى العبادة ..

أدرك وسط جو الفتن والخيانة والدسائس والحقق وسائر الصفات  
الدنيوية ، ان مهمته ان يبتعد عن هذا كله ويصير نموذجا للاسلام الذي  
نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

كان الحزن قد سجع له سماء والقاهها على كتفيه ..



قتل جده علي بن أبي طالب وعمره سنتان .  
 وقتل أبوه الحسين في كربلاء وله ثلاث وعشرون سنة ..  
 وشهد بعينيه - وكان مريضاً في المعركة - مصرع اخوانه وأعمامه ..  
 وحفرت الأحداث الدامية في نفسه نهراً من الحزن طالما فاض من عينيه .  
 ثم أنه شهد ما زاد حزنه أضافاً مضاعفة .  
 رأى الناس يبايعون يزيد بن معاوية .. وعاصر ضرب الكعبة الشريفة  
 بالنجانيق .. وشهد عصر الحجاج في حكمه الظالم للعراق ..  
 وعاصر حركات أفرقت العالم الإسلامي في بحار من الدم ..  
 وشاهد بدايات حركة الفلو والغالين .. وأدهشه ان الذين قتلوا  
 أباه وجده أو اشتروا في قتله أو تقاعسوا عنه هم الذين ينسبون اليهما  
 صورة ليست هي الصورة الحقيقية ..  
 ووسط سحائب الفتن قرر علي بن الحسين ان يثأر بنفسه من هذا  
 كله .. لم يكن موقفه سلبياً ، ولا كان يهرب من معركة ، إنما كان بموقفه  
 يمثل الإيجابية الإسلامية الرفيعة ..  
 كان ميدان المعركة قد تحول الى ساحة مضطربة من الأكاذيب  
 والخيانات والفلو .. وكان المثل الإسلامي الأعلى الذي ابتعد من عيون  
 المسلمين بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابتعد بوفاة الصحابة  
 الكرام ، كان هذا المثل في حاجة الى البعث من جديد ..  
 وكان في حاجة لان يرى الناس هذا المثل حياً أمامهم .. وكان علي  
 زين العابدين هذا المثل ..  
 كان يكره أهل العراق ويحمل عليهم كثيراً لسببين .. الأول انهم  
 أسلموا والده وجده للقتل ، والثاني انهم يغفلون في والده وجده وينسبون  
 اليهما ما نسب به بعض اتباع الانبياء السابقين لاثبيالهم من الوهية .  
 ورد في طبقات ابن سعد ان نفراً من أهل العراق اثنوا عليه فقال لهم :  
 « ما اكذبكم وما اجراكم على الله تعالى . نحن من صالحى قومنا وبحسبنا

ان تكون من صالحى قومنا » .

ايضا كان حربا على كل الفلاة ، وكان يمقت الفلو ولا يحب ان يرفعه  
أحد فوق منزلة أحد من المسلمين .

وقال يوما لمن زادوا فيه بالثناء « ايها الناس احبونا حب الاسلام  
فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا » .

ونفى السمو عن نفسه ، وحين بلغته انباء ما يقوله عنه أهل العراق  
أشار بيده الى العراق وقال : « ليس لنا ما برمينا به هؤلاء » .

رغم هذا كله .. لم يسلم الرجل من الأذى الذى جاءه فى صورة الفلو  
والثناء الحراقى . كان على بن الحسين ابن اميرة فارسية من أميرات  
آل ساسان ، وسب اليه البعض حقه فى حمل تاج العرب والعجم ، فقد  
كانت عقائد الفرس الدينية أنهم ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات الهية  
اصطفاهم الله للحكم وجعلهم ظله فى الأرض ..

وهذه العقيدة الوثنية التى لم يكن عليها نزاع عند الفرس ..  
التصقت زورا وعدوانا بعلى بن الحسين ، ف قيل أنه يملك وحده حق  
حمل التاج ، لان امه هى الشهريانو ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس وابوه  
هو الحسين بن على .. ويبدو ان ما حمل القائلين بهذا على قولهم شعر  
ابى الأسود الدؤلى :

**وان غلاما بين كسرى وهاشم لأكرم من نيطت عليه التمايم**

وحقيقة هذا الامر أبعد ما تكون عن على بن الحسين .. فلم يعرف  
عنه طوال حياته أى اتصال بالوالى ، ولا كان فى تصرفاته ما يبدى اتجاهه  
فارسيا لديه . لقد نفى الرجل طوال حياته بعيدا كل البعد عن كل شبهة  
الحكم أو الرئاسة أو رغبة فى الحكم أو الرئاسة ..

كان الرجل راهدا بحق . ولم يكن زهده نابعا من هجران الدنيا ،  
فان المسلم الحقيقى لا يهجر الدنيا ، انما ينبع زهده لسبب أخطر ..

كان يدرك ان وجوده فى هذا الجو من الفتن العاصية كقيل بان يسوء

الى الصورة الاسلامية الناصعة التي يمثلها ..

ولهذا ابتعد ..

ولم يسلم رغم ابتعاده من كلام غلاة الشيعة الذين نسبوا اليه ما لم يقله وما لم يكتبه في الحقيقة ..

ولكنه فعل ما ينبغي أن يفعله أى مؤمن يخشى الله عز وجل .

تبرا من الغلاة والفتن ، وابتعد تماما عن مسرح الصراع الرهيب الذى بدا ..

كان يدرك بوعيه الاسلامى انه لا يأمن على القيم الاسلامية التى يمثلها لو دخل ساحة الصراع ..

وكان الصراع يومئذ يثير الدهشة مثلما يثير الحزن .

ان الغلاة من الشيعة يتحدثون بكلام لم ينزل الله به سلطانا ، والموالى من المسلمين يأخذون أفكارا وثنية ساقطة ويطبخونها مع الاسلام ويقدمون للناس هذا الطعام باعتباره ينتمى الى الاسلام .. والسياسة هى التى تحكم الساحة الاسلامية ..

والسياسة لها أساليبها الخاصة فى الحكم ، وخاصة اذا كان الساسة يأخذون بقول معاوية بن أبى سفيان « أن لله جنودا فى العسل » يقصد أن العسل لو أضيف اليه السم لاغنى عن معركة كاملة ..

كانت الاغتيالات .. والحروب .. والدماء .. والاكاذيب .. والحزن

المبالغ فيه .. والحب المغالى فيه .. كان هذا كله يقف على مسرح الحياة الاسلامية ..

واذا فمن حق زين العابدين أن يبتعد .. ليس هذا مجاله ولا مستواه ولا ميدانه ..

انصراف الرجل للعلم .. والعبادة .. زهد فى الدنيا بصورتها التى كانت عليها ، وأى مسلم كان يتصرف بنفس تصرفه لو كان فى عباءته ..  
.....

تتهيا الشمس للاخفاء وراء افق الصحراء ..  
بعد قليل يبدل المغرب ثيابه ثوبا بعد الآخر ..  
الشفق القانى يملأ اطراف السماء بلون يشبه لون دم الشهداء ..  
زين العابدين يشق طريقه قاصدا المسجد لصلاة المغرب مع الجماعة .. لا يرتدى الصوف كالزهاد المتأخرين او الصوفية فيما بعد ..  
انما يرتدى عباءة ثمينة ، ويطل من وجهه نبل طبيعى لا يكون الا في  
وجوه الصادقين .. يرفع عينيه الى السماء ويتأمل الافق الداس ..  
ينقلب اللون بفترة ليوم كربلاء ..  
كانت السماء والأرض يومها مخضبتيه بدم الشمس ودم الحسين  
ويذكر أهل بيته الشهداء فيبكي ..  
تحدرد دموعه على وجهه في صمت نبيل مستسلم لقضاء الله وقدره  
.. ويسأله بعض أصحابه عن كثرة بكائه فيقول :  
« لا تلوموني ، فان يعقوب فقد سبطا من ولده فيبكي حتى ابيضت  
عيناه ولم يعلم انه مات ، وقد نظرت الى اربعة عشر رجلا من أهل بيتي  
يقتلون في غزاة واحدة .. افترون حزنهم يذهب من قلبي » .  
هذه الاشارة الموحية الى يعقوب تفسر كلمته التي قالها فيما بعد ..  
وصارت شعارا للمارفين بالله والصومية « فقد الاحبة غربة » .  
يكون الانس حين يكون في الارض من تحب .. فاذا كان حبتا في الله ،  
وسقطت السيوف تحصد رجال الله ، وتصادف ان كان هؤلاء الرجال  
هم الاب والاخ والعم ، فمن الطبيعى ان يجتمع حزنا على القريب الذى  
غاب ، على احزان العقيدة التى توجه اليها الطعنات ، ويتكاثف الشعور  
بالحزن في النفس ..  
ويولد الاحساس بالغربة .. يؤدى فقد الاحبة الى الغربة ..  
ذلك ان الحب يحتوى على شيء غامض يشبه السحر ، شيء يجمل

للحياة مذاقا خاصا من الانس والبهجة ، هذه البهجة هي سطح البحر الأزرق الجميل الهادئ ، وليس هناك كنوز عظيمة تمشي فوق سطح البحر ، تختار كنوز المعاني ان تختبئ مع لآلئ القاع تحت اعماق من المياه والصخور والمخاطر والضغط والمماناة ..

وليس امام من يريد اكتشاف اللآلئ الا ان يغوص نحو القاع ..  
ولا بد لمن يريد الحقيقة ان يترك سطح البهجة الأزرق اللامع ويمضي وراء الخوف حتى يحدق فيه دون خوف ..

ولقد دفع زين العابدين ثمن زهده ومعرفته ..  
قاده الحزن العميق الى حال الاسلام وغربته كمسلم الى حقيقة اليقين .. فكان مسلما يشرف بالاسلام ويشرف به المسلمون .

كان يدعو الله تعالى بدعاء وجيز يعبر عن مقام العبودية الذي يقف فيه « اللهم كما اسأت واحسنت الي ، فان عدت فعد علي » ..

وكان يبخل على نفسه وأهل بيته ، فلما مات وجدوه ينفق على مائة اسرة من اسر المدينة الفقراء ، وظل ينفق عليهم سرا فلم يعلم بذلك أحد الا بعد ان مات وجأوا ببيكونه ويسألون عن نفقتهم ..

وكان يرى ان صدقة السر تطفئ غضب الرب ..  
وحين مات وجدوا بظهره آثارا تكشف عن حملته لأحمال الخير الثقيلة التي كان يضعها على ظهره ويحملها الى المساكين أثناء الليل .

وكان اذا نهض للصلاة اصفر لونه وتغير وجهه .. فسئل في ذلك فاجاب انه ينهض للوقوف بين يدي رب العالمين ، ومن حقه ان يصفر لونه خوفا وحبا ..

ولقد روى سفيان الثوري شيخ الزهاد في القرن الثاني . ان رجلا جاء الى علي بن الحسين فأخبره ان فلانا قد ذمك ووقع فيك .. فقال علي بن الحسين : انطلق بنا اليه .. فاطلقنا معا وهو يظن ان علي بن الحسين سوف ينتصر لنفسه ، فلما اتاه دعا له بقوله :

« ان كان ما قلت حقا فغفر الله لى ، وان كان ما قلت فى باطلا فغفر الله لك » ..

.....

وعاش على بن الحسين او زين العابدين كما اشتهر حياة تفرغ فيها للعلم والمعبادة ..

وتنسب الى زين العابدين الصحيفة السجادية التى تتضمن ادمية ومناجيات حفظها الشيعة ونشروها ، وجاء فيها فى المقدمة انها بخط الامام زيد بن على وباملاء ابيه زين العابدين ..

ويرى كثير من العلماء المدققين ان جزءا من الصحيفة السجادية صدر من زين العابدين .. ولكن الاضافة والاستطراد والتعليق والزمن قد صيرها الى ما صارت اليه هذه الصحيفة ..

ونلاحظ مع الدارسين ان الادعية فى الصحيفة السجادية طويلة بعض الشيء ، وليس من طبيعة الدعاء ان يكون طويلا ، لان ذهن الانسان لو انصرف الى محاولة تذكر الدعاء فسوف تتسرب منه معانيه كما يتسرب الماء من اصابع المرء ..

وفى القرآن ادمية كثيرة ، وسوف نلاحظ عليها الاجاز العميق الوافى بالفرض ..

والله تبارك وتعالى هو الذى يلهم الدعاء ..

وقد حدثنا الله عز وجل عن دعاء ادم وحواء حين اكلا من الشجرة المحرمة ومصيا الله ..

« ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »

وحدثنا عن دعاء ذى النون فى جوف الحوت .

« لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين » ..

وحدثنا عن دعاء المؤمنين المختصر .

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تغافوا

ولا تحزنوا ..

ومعظم الأدمية التي انتهت لايدينا طويلة .. ونحن نشك في نسبتها  
اليه ونتفق في ذلك مع شواهد الحال وطبيعة الدماء ..

لكن فيها سطورا تضيء كالنجوم ولا تصدر الا من قلب زين العابدين .

« اللهم ان كنت عصيتك فاني قد اطعتك في احب الاشياء اليك ، وهو  
الايمان بك تكرما منك لا منا عليك » .

.....

في المدينة التي نورها رسول الله صلى الله عليه وسلم بامامة دولته ،  
توفي زين العابدين وترك ولده محمد الباقر .. الذي سيخرج من بعده  
حفيده جعفر الصادق ..

والذي سيكون لكل واحد منهما دوره في الزهد المؤدى الى التصوف .

انتهت أيام علي بن الحسين أو زين العابدين على مسرح الحياة .

ووقف ابنه المسمى محمد الباقر على المسرح .. والباقر ليس اسما  
من اسماء محمد ، انما هو وصف له ، كما كان زين العابدين وصفا لابيه ،  
وقد سمي محمد بالباقر اشارة الى انه يبقّر العلم بقرا ، او يشقه شقا  
ويصل الى قلب الحكمة .. وقد مات الباقر في الثمانية والستين من عمره ،  
بعد ان صارت له الامامة ٢٤ سنة . ولهذا ترك علامة بارزة في تاريخ الزهد  
الذي امان على نشوء التصوف .. حين ظهر محمد الباقر على مسرح  
الحياة ، كانت سماء الحياة ملبدة تماما تملؤها الغيوم الكثيفة ..

ان الصراع بين شيعة علي بن ابي طالب والدولة الاموية لا يتوقف ..  
سواء بالانقضاء بالسيف أو الخروج بالكلام .. ورغم ان ابناء الحسين  
قد ابتعدوا تماما عن دائرة الصراع وانصرفوا الى العلم ، الا ان احزابا  
من الشيعة نهضوا لمقاومة الدولة بالسيف وخرجوا عليها بالقوة ..

وعلى المستوى الفكري كان الصراع على أشده بين علماء الكلام وعلماء  
السنة ، وكان المعتزلة يرون تقديم العقل على النقل ، ويشيرون مشكلات  
تنصل بالحرية والجبر والقضاء والقدر ، ويتحدثون هل القرآن مخلوق  
ام لا ، ويدخلون الصراع حول صفات الله واسمائه ، وكان اهل السنة

يتفون في الطرف الآخر من الصراع ..

ومثلما ابتعد أبناء الحسين عن صراع السيف ، ابتعدوا أيضا عن صراع الترف العقلي ، سئل محمد الباقر عن الجبر والاختيار فقال :

« ان الله ارحم بخلقه من ان يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها ، والله اعز من ان يريد امرا فلا يكون .. »

سئل : هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة :

قال : نعم .. اوسع مما بين السماء والارض ..

رواضح من هذا النص ان الباقر لا ينفي ولا يثبت ، ولا يفلو ولا ينقص ، انما يقف موقف الوسط العدل من الامور ، فهو ينفي ان يكون الانسان ريشة في مهب الرياح بلا ارادة ، وينفي ان يكون الانسان مطلق الاختيار في التكون ، وبذلك بعيد المياف الى مجراها الاصيل ويضع قاعدة للاشاعة فيما بعد .

نشأ محمد الباقر في هذا الجو الملبد المليء بالسحاب والصراع والمفاجآت .. وانصرف تماما الى العلم والزهد ..

ترك كل الامور التفصيلية التي يتقاتل عليها المسلمون .. واهتم برحلة الانسان نحو الله تعالى « يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقية » ايضا ابتعد الباقر عن الفلو وكرهه كراهية شديدة ، وكانت الدولة الاموية تلحق على ابن طالب على منابر المساجد في الامصار ، كجزء من خطة دعائية ضد الشيعة ، وغلا بعض الشيعة فكانوا يسبون عمر بن الخطاب وابا بكر الصديق كرد فعل لهجوم الدولة الاموية ، وبلغت محمد الباقر أبناء الشيعة الذين يسبون ابا بكر وعمر بن الخطاب ، واصدر تصريحه الشهير الذي يعيد فيه الامور الى مجاريها ..

قال الباقر : بلغني ان قوما بالعراق يزعمون انهم يحبوننا وينالون من ابي بكر وعمر رضي الله عنهما يزعمون انني امرتهم بذلك ، فابلفهم اني الى الله منهم بريء ، والذي نفس محمد بيده ، لو وليت لتقربت الى الله بدمائهم ، ولا نالني شفاعة محمد ان لم اكن استغفر لهما « يقصد ابا بكر وعمر » ..



وبهذه الكلمات يتبرأ الباقر من غلاة الشيعة ، ويرمى بالكفر من يسبون أبا بكر وعمر ، ويؤكد أن الأمور لو صارت إليه لقتلهم وتقرب إلى الله بدمائهم ..

رغم اعتدال الباقر الشديد .. لم يسلم بعد موته من صب حياته في قالب صوفي زهدي بحيث صار واحداً من الصوفية أو زاهدي الصوفية ..  
حكوا عنه أن دمعته لم تجف طوال حياته شأن أبيه ، وروى عنه أنه قال ما أغرورقت عين بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار . بل أنه يقسم بالبكاء كما قسم المعرفة فيقول :

« فإن سألت الدموع على الخدين لم يرهق وجهه قطر ولا دلة ، وما من شيء إلا له جزاء إلا الدمعة ، فإن الله يكفر بها بحور الخطايا ، ولو أن باكياً بكى في أمة لحرم الله تلك الأمة على النار .. »

والجديد الذي يضيفه الباقر أو يضيفه له معاصروه هو ربط الذكر الإلهي بالبكاء .. يقول أن الصوامق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولا تصيب الذاكر .

ومن الصعب وسط جو الحياة المضطرب أيامها أن نعرف اليوم ماذا قال الباقر حقيقة ، وماذا نسبته الناس إليه .. وسنجد هذه المسألة عالقة بكل الشخصيات الزاهدة التي نسبت إلى الصوفية ..

وفي تصوري أن الباقر كان زاهداً فحسب ، ومباراته التي تدين القلوب والغلاة هي التي يتصور صدورها منه حقاً ، لأنها تتفق مع روح الإسلام السني ، أما ما أضيف إلى شخصيته ونسج عنه من أساطير ونسب إليه من كلمات غامضة تدخل في لب التصوف ، فأقلب الظن أن هذا كله منحول ومضاف إليه ..

وقد رويت عن الباقر حكايات تجعله كالخضر عليه السلام ..

قال ابن المبارك « توفي سنة ١٨١ » أنه قابل بين مكة والمدينة شبحاً يلوح في البرية . سألته ابن المبارك من أين قال من الله ، قال إلى أين قال إلى الله قال علام قال على الله ، ويظل ابن المبارك يدقق في السؤال حتى

يكشف انه يحدث محمد الباقر . وبعد عدة ابيات ركيكه من التسمر  
يكشف الباقر عن شخصيته ويختفى في ضباب الصحراء فلا يعلم ابن  
المبارك هل صعد الى السماء ام انشق عنه الهواء ..

ونحن نعرف الآن ان الباقر مات قبل صاحب القصة بخمسين سنة .  
فهل كان ما رآه الراوى شيئا ام حقيقة ؟

واضح ان هذا الشبح ظهر في مخيلة ابن المبارك الخصبة ولا اثر له في  
الحقيقة . ومن هذه الاشباح التي تذهب وتجيء في المخيلة . تمتلىء كتب  
التصوف واخباره بالكثير ..

وهذا كله اختراع فني لا يلزم احدا ولا يمر عن حقيقة ..

.....

مات الباقر فلم يسلم من هذه العباد الخرافية التي القاها غلاة  
الشيعة على صورته ..

وبرز الى المسرح ابن محمد الباقر جعفر بن محمد بن علي بن  
الحسين بن علي بن ابي طالب . وسمى جعفر بالصادق لصدقه . وعلى  
عادة الشيعة صارت الصفة اسما ثانيا له .. فهو جعفر الذي يصدق  
اذا حدث او عمل او سكن او تحرك هو جعفر الصادق اذا ..

وكانت الظروف التي صاحبت ظهوره على المسرح اشد قسوة من  
ظروف ابيه محمد الباقر ..

كانت حركات العنف في قمتها . سواء على المستوى السياسي او  
الفكري .. وهكذا عاصر الصادق حركة الفلو في ائمتف مراحلها ، ف وقعت  
في حياته حركة ابي مسلم الخراساني وحركة عبد الله بن معاوية ، كما  
وقعت حروب مروان بن محمد وحركات الخوارج وحركات الزيديين ،  
والاصل في حركات الزيديين ايمانها بقول ريد بن علي امامهم الاول  
« ما كره قوم قط حر السيوف الا ذلوا » .. وهكذا خرج زيد على  
الدولة بالسيف فقتل في الكوفة سنة ١٢١ هجرية ، و صلب بعد قتله  
خمسين شهرا عريانا ثم احرق كما يقول مروج الذهب

وفي هذا الجو المضطرب الثائر - تفرغ جعفر الصادق تماما للعلم ، وترك السياسة والملك لطالبيهما وما كان أكثرهم انصرف جعفر الصادق الى التأمل والزهد والقراءة والتدريس والذكر والعلم ، ومع الوقت صار الرجل استاذاً روحياً لجيله المعاصر .. وكانت كلماته في العقيدة والاسلام باللغة العمق والاحكام والوعى معا ..

كانت الآراء متناحرة تتقاتل حول صفات الله والجبر والاختيار والفضاء والقدر ، وكان المجتمع يهوج بتيارات ثقافية متعددة ، فقد انتشر الاسلام وبلغت امواجه اقصى شواطئ الارض البعيدة ، ودخلت في الاسلام امم مختلفة لها تصورها ومقائدها واسلوبها في الفكر ، كما صارت الفلسفة اليونانية جزءاً من نسيج بعض العقول المسلمة ، وكان فلاسفة هذا الوقت العقلانيون هم المعتزلة .. واحتدم الصراع الفكري بين اهل العقل والبحث والنظر واهل التسليم والتفويض مثلما احتدم الصراع بالسيوف بين الخارجيين على الدولة والمؤيدين لها ..

وسئل جعفر الصادق عن ارادة الله وارادة الفرد ، سئل من الجبر والاختيار ، وقال كلمته البليغة :

« ان الله تعالى اراد بنا شيئاً واراد منا شيئاً ، فما اراده بنا طواه عنا ، وما اراده منا اظهره لنا ، فما بالنا نشتمل بما اراده بنا عما اراده منا » .

وبهذه الكلمة يمتنع الجدل تماما في الموضوع المتنازع عليه .. تسقط الدموى والخصومة ولا يبقى غير جوهر الزهد الصافي ..

ان البحث فيما اخفاه الله عنا لا معنى له ، لان هذا ما اراده بنا ، ولا حساب على هذا ، انما يكون الحساب على ما اراده منا من تقوى وعبادة وتوقير . ايضا اجاب جعفر الصادق على المتكلمين في الله ، وكان المقصود علماء الكلام من المعتزلة ومن انجر في الصراع معهم من علماء السنة ..

قال جعفر الصادق : « الكلام في الله لا يزداد صاحبه الا تحيراً » .. وبهذه الكلمة الهجامة المانعة تسقط القضية والخصومة ولا يبقى الا

ان ينصرف الناس الى العمل ..

ان الكلام في الله لا يزيد صاحبه الا تحيرا ..

ما هو الاسلوب الذى يزيد من ثبات الثابتين اذا ؟

**الاسلوب هو العمل .. وليس الكلام ..**

ومضى جعفر الصادق في حياته كعالم وزاهد .. ويرى بعض الدارسين من المستشرقين انه كانت له مدرسة شبه سقراطية ..

وفي مسجد الكوفة وحده كان له تسمائة شيخ من تلاميذه .. وكان من تلاميذه جابر بن حيان .. المشهور في التاريخ بصناعة الكيمياء وتحويل المعادن .. ولقد كان جعفر الصادق يرسم بكلماته علما بالغ الشفافية والعمق ، وكان صورة رائعة من ابيه واجداده ، فهو يحافظ على الاسلام ويبتعد عن صراع الافكار التى لا تزيد المرء الا تحيرا ، ويكف عن دس عقله فيما طواه الله واخفاه عن عباده كالغيب ..

وهو بذاته صورة للمسلم الذى يشرب من نبع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثلما اضيف الى اجداده ونسج حولهم وقعت نفس الاضافات لجعفر الصادق . يروى الكليني حديثا ينفي فيه جعفر الصادق علم الغيب عن الائمة ، ويقابله حديث آخر ينسب الى جعفر الصادق يقرر فيه « ان الامام اذا اراد ان يعلم علم ، وان سليمان ورث داود ، وان محمدا ورث سليمان ، وانا ورثنا محمدا » .

ويسأله احد السائلين عن العلم ، هل هو ما ورد في الكتب السماوية وحدها فيكون جواب الصادق « ليس هذا هو العلم ، ان العلم الذى يحدث يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة » .

وقد انكر عمر بن الرياح امامة الصادق لانه اجاب عن سؤال واحد اجابتين مختلفتين وروى الصادق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « انا معاشر الانبياء تكلم الناس على قدر عقولهم » ..

ويبدو من هذا أن الصادق كان يكلم الناس على قدر عقولهم ، وهذا تقليد من تقاليد الاساتذة الموهوبين ، فإن الاستاذ لو كلم الناس على قدر فهمه هو أو عقله هو فربما لم يفهم عنه أحد ، فربما ضاعت الفائدة فيما يقوله .

لا غرابة إذا في هذا ، إنما تثور الغرابة مما يشتهه بعض المؤرخين لجعفر الصادق ، بحيث يبدو فيه متناقضا مع إحدى جوهريات الاسلام .. كمعرفة الغيب ، أن أحدا لا يعرف الغيب ، النص القرآني على أن الجن لا يعلمون الغيب ، وعلى أن الملائكة لا تعلم الغيب ، وعلى أن الأنبياء لا يعلمون الغيب ، فهل يقصد جعفر الصادق هنا هذا الغيب المحجوب أو أسرار الله تعالى .. ؟

لماذا لا يكون ما يقصده جعفر الصادق هو غيب العلوم والعبادات ، وهذه أمور لا بد أن يعرفها من كان استاذًا مثله ، وربما كان العلم الذي أوتي جعفر الصادق علما اكتسبه ، وربما قذف الله تعالى في قلبه بنور علوم أخرى ، هذا كله جائز الوقوع ومحتمل ، أما أجايبه أجابته مختلفتين بحسب عقلية السائل مرة ، ومحافظة على التقية مرة أخرى .. فليس أمرا بالغ الغرابة في جو مضطرب يهيج بالفتن كالجو الذي عاش فيه جعفر الصادق .. ولعل هذا كله يوضح ما قاله الصادق يوما « وددت لو أني افتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي .. النزق وقلة الكتمان » ..

ويبدو من ذلك أن التشيع كان قد دخل في الطور السري لاشتداد الفتنة ، ومهما يكن من أمر فإن ما أضيف لجعفر الصادق وما نسب اليه من كلام كان شيئا ضخما ، لقد وصل بعض أتباعه من الجهلاء في الرواية عنه والكذب عليه ونسبة ما لم يقله اليه مبلغا كبيرا .. وقد علل مصنفو الشيعة الأوائل سر تضعيف أحاديث الصادق هذا التعليل المعقول ، قال الكشي :

« كان جعفر بن محمد رجلا صالحا مسلما ورعا ، فاكنته قوم جهال يدخلون عليه ويخرجون من عنده ويقولون : حدثنا جعفر بن محمد ، ويحدثون بأحاديث كلها منكرات كذب موضوعة على جعفر يستاكئون الناس بذلك ويأخذون منهم الدراهم » .

وهذا هو رأينا الخاص في جعفر الصادق .

كان الناس يدخلون عليه فيحدثهم حديث الاسلام لا يريد ولا يتقص ،  
فاذا خرجوا من عنده وانتشروا قال كل واحد ما فهمه أو قال كل واحد  
ما يريد قوله ونسبه الى الصادق على انه حديث نبوي حدثهم عنه .

هذا الراى الوحيد يفسر لنا سر تناقضات تراث جعفر الصادق ..  
كان الرجل مسلما صالحا ولكنه لم يسلم من الكذب عليه ونسبة  
الخرافات اليه ..

ولدينا منهج لا يغفل شيئا لمعرفة ذلك هل كان الصادق مسلما  
أم لا ..

كان الرجل مسلما عظيما .. اذا فلا مجال للارتياح - وكلماته تقاس  
بمعيار الاسلام الصحيح ، ما زاد عن ذلك نبرته منه ..

ولسوف نجد في سيرة جعفر الصادق نفس هذه الرقة والصفاء اللذين  
كانا سمة مميزة لاجداده ، فهو يقول عن الدموع التي يبكيها العبد في  
سجوده لله :

« ما من شيء الا وله كيل ووزن الا الدموع ، فان القطرة تطفئ بحارا  
من النار ، فاذا افروقت العين بمائها لم يرهق وجهها قطر ولا ذلة ،  
فاذا فاضت حرمه الله على النار ، ولو ان باكيا بكى في امة لرحموا » .

ويصطبغ زهد جعفر الصادق بمصبغة علمية عميقة ، فهو القائل حين  
سئل عن المعروف « لا يتم المعروف الا بثلاث ، تعجيله وتصغيره وستره »  
وسئل الصادق بأى شيء يعلم المؤمن انه مؤمن قال : « بالتسليم له والرضا  
فيما ورد عليه من سرور أو سخط » ..

وهو مسلم يلوم نفسه يوما حين حدثه أحد جلسائه بأن جده شفيح  
الخلائق فقال : « انى لاخجل من افعالي الى حد اننى استحي ان اواجه  
جدى يوم القيامة » « يقصد رسول الله » ..

ونسب لجعفر الصادق انه كان يدعو نفس دعاء النبی الياس ..

اتراك معذبي وقد اظلمات لك هواجرى .. اتراك معذبي وقد اسهرت  
لك ليلي ، اتراك معذبي وقد اجتنبت لك المعاصي ..

ولسنا نعرف من أين عرف بدعاء النبي الياس ..  
اشياء كثيرة لا تثبت للتمحيص ، واشياء تتفق مع روح الاسلام  
نقول جعفر الصادق :

« من خاف الله اخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله اخافه الله  
من كل شيء » ..

ولقد كان هذا هو جوهر التوكل الحقيقي ، ومثال ذلك قوله ايضا :  
« من اعطى ثلاثا لم يمنع ثلاثا ، من اعطى الدعاء اعطى الاجابة ، ومن  
اعطى الشكر اعطى الزيادة ، ومن اعطى التوكل اعطى الكفاية » .

ومن كلماته الخطيرة الجامعة قوله : « لقد تجلّى الله عز وجل لخلقه  
في كلامه ولكن لا يبصرون » .

حين مات جعفر الصادق .. ومرو الزمان .. اعتبر اكبر مفسري  
الصوفية ان جعفر الصادق هو امام التأويل الباطن .. وظهره الصوفية  
كاستاذ لهم وامام .. ومن تفسيراته الآية الكريمة التي تقول في سورة  
الكهف : « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا وللت منهم رهبا » قوله  
لو اطلعت عليهم من حيث انت لوليت منهم فرارا ، ولو اطلعت عليهم من  
حيث الحق لشاهدت فيهم معاني الوجدانية والربانية .

وهو يرى ان « يس » معناها : ياسيد .. ايضا يفسر « والنجم اذا  
هوى ما قبل صاحبكم وما هوى » بقوله النجم هو محمد صلى الله عليه  
وسلم ، ومعنى اذا هوى اى اذا اتقطع عن جميع ما سوى الله تعالى ،  
وما ضل هنا بمعنى ما ضل من قربته تعالى .

ايضا يروى القشيري عن جعفر الصادق في تفسير قوله تعالى  
« فإوحى الى عبده ما أوحى » .. قال : سر الحبيب مع الحبيب ، ولا  
يعلم سر الحبيب الا الحبيب » ..

خلال حياة جعفر الصادق ، تنبأ يوما للمنصور بان امر الخلافة  
سيكون للعباسيين بعد الامويين .. وتنبأ بالقتل للثوار العلويين .. وحين  
وقع الامر الاول سماه الخليفة المنصور باسم جعفر الصادق ، وصار

الوصف له اسما ..

والثابت تاريخيا ان جعفر الصادق كان يلبس الصوف ، وقد سئل مرة لماذا ترتدى الحرير ، فكشف عن ثياب الحرير فاذا تحتها ثوب من الشعر الصوفي الخشن .

وصار الصوف لباسا للزاهدين والصوفية ..

استغرق الصوفية وقتا حتى صار الصوف لباسا عاما لهم .. وينقسم العلماء في لفظ الصوفية الى اكثر من فريق ، يرى بعضهم ان الصوفية لفظ مشتق من الصفاء ، ويستبعد البعض هذا الرأي ويروى ان الصوفية لفظ مشتق من الصوف ، ويرى البعض ان الكلمة اليونانية « سوفيا » بمعنى الحكمة هي اصل كلمة التصوف ..

وربما كانت الكلمة مشتقة من هذا كله .. غير ان هناك دلائل تشير الى ترجيح الصوف ..

نحن نعرف من تاريخ الايام الاولى للاسلام كيف كره الاسلام ان يلبس الرجل الحرير ، ويبدو ان خشونة الرجولة في الاسلام وترفعها على لبس الحرير كانا امرين مستقرين تماما طوال بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطوال فترة الخلفاء الراشدين ..

ويذكر ابن سعد ان النبي لم يسمح لاحد من الرجال بلبس الحرير الا لعبد الرحمن بن عوف وذلك لانه كان رجلا مصابا بمرض جلدي « او حساسية جلدية » . ومعنى هذا ان لبس الحرير كان محرما على الرجال في بداية الاسلام ، ثم مر الوقت ، ووليت الدولة الاموية الحكم ، وعاد الحرير الى الظهور مره اخرى . ولم يكن الحرير صافيا هذه المره انما كان منسوجا بالذهب والفضه ..

يلفت د . كامل الشيبى نظرنا لما كتبه المسعودي في وصف سليمان ابن عبد الملك الذي ولى الخلافة سنة ٩٦ اى بعد موت الحجاج بافاعيله في الكوفة .. قال المسعودي « وكان يلبس الثياب الرقاق ( يقصد الرقيقة الغالية ) وثياب الوشي « يقصد الحرير الموشى بالذهب والفضة والقصب » وفي ايامه عمل الوشي الجيد في اليمن والكوفة والاسكندرية ، ولبس



الناس جميعا الوشى جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس . وكان لا يدخل عليه رجل من اهل بيته الا فى الوشى ، وكذلك عماله واصحابه ومن فى داره . وكان لباسه فى ركوبه وجلوسه على المنبر ، وكان لا يدخل عليه احد من خدامه الا فى الوشى حتى الطباخ فانه كان يدخل اليه فى صدره وشى « صديرى منقوش » وعلى رأسه طويلة وشى « غطاء رأس موشى » وامر ان يكفن فى الوشى المثقلة .

### ما الذى نفهمه من سطور السمودى .. ؟

واضح ان الترف كان قد تسلل الى قمة النظام الاسلامى الحاكم يومئذ .. وواضح ايضا ان لبس الحرير اصبح يمثل سياسة عامة اتخذتها الدولة الاموية وامرت بها خلفاؤها وعمالها .. ولم يكن الخليفة يرضى بلبس شئ غير الحرير المنسوج بالذهب او الفضة او القصب ، وصار هذا النموذج سائدا بالنسبة للحكام وعمالهم وخدمهم حتى الطباخين منهم ، فقد كان الطباخ الاموى يرتدى الحرير المنسوج بالقصب ولا يدخل على الخليفة او امير المؤمنين او الحاكم الاعلى الا وهو يرتدى هذه الثياب ، فترتاح عين الخليفة ولا يجرحها لبس الصوف الخشن ..

وكانت الكوفة مركزا من مراكز صنع الحرير فى العالم الاسلامى مع الاسكندرية ، ولا زالت كلمة « الكوفية » التى تغطى الرقبة مشتقة اصلا من الكوفة ومنسوبة اليها ، واراد الزاهدون فى الكوفة ان يبتعدوا اسلوبا للمعارضة لا تستطيع سلطة ان تؤاخذهم عليه .. وهكذا لبس الزهاد الصوف ليميزوا انفسهم عن حكام الدولة الاموية ، وكان لبس الصوف يتفق مع المعارضة السلبية التى يتخذها قادة الزهد وزعماءه .. وقد راينا كيف انصرف ابناء على بن الحسين بن على الى تحصيل العلم ونشره والبعد تماما من السياسة وبحارها المضطربة ، وسلك الزهاد مسلكهم هذا ، فابتعدوا عن دنيا الفتن وارادوا اظهار معارضتهم للحرير المنسوج بالذهب والفضة ، فارتدوا الصوف ..

ولم يكن الصوف يومئذ غالى الثمن كما هو اليوم ، ولا كان ناعس الملمس كما هو اليوم ، انما كان يصنع من صوف الحيوانات واوبارها ، ليحيى خشن الملمس رخيص الثمن ..

وفي كبار الزاهدين من كان يلبس الصوف ويخفى لبسه للصوف ،  
اتقاء للمظاهر الكاذبة ، وقد حكى لنا كتب القدماء أن سفيان الثوري لم  
جعفر الصادق على لبسه الحرير ، فأراه جعفر تحت الحرير ثوبا من  
الصوف الخشن أو الشعر الخشن .

وهناك من يعتقد أن الصوفية قلدوا الرهبان المسيحيين في ارتداء  
الصوف ، وكان هؤلاء الرهبان يرتدون الصوف معظم الوقت ، ولكن  
الآراء تميل مع الكفة التي تقول أن لبس الصوف لم يكن تقليدا للرهبان ،  
وانما كان مقاومة سلبية للاتجاه الأموي الذي يحاول بث الرفاهية في  
الملابس والمجتمع ..

وقد كان الصوف مادة لا يعبا بها العرب ، انما كان شيئا مهملا  
لا قيمة له ولا سعر ، ولم يكن العرب يلبسون الصوف المنسوج حتى في  
الشتاء ، انما كانوا يتغلبون على برد الشتاء بارتداء الفرو أو القميصان  
المبطنة أو المشوة . « وهو لباس من القماش يحشى القطن داخله ليقى  
من البرد » ..

وقد أهملت كتب العصور القديمة التي تتحدث عن ثياب العرب  
الصوف أهمالا يكاد يكون تاما ، ويبدو أن الصوف كان لباس الفقراء  
والعلمين .. وحين ارتداه الزاهدون والصوفية ، كان هذا إشارة موحية  
بأنهم يتبنون المظاهر الأموية والترف السائد ، ويختارون طريق الفقراء  
ولباس الفقراء ..

ولسنا نعرف على وجه التحقيق من هو أول رجل أطلق عليه لقب  
الصوفي ، لقد اختلف الباحثون على ثلاثة أشخاص ، جابر بن حيان  
وأبو هاشم الكوفي ، وعبدك الصوفي ..

أما جابر بن حيان فتلميذ جعفر الصادق ، أو عبده كما ورد في خلاصة  
الأثر ، وكان يلقب بالصوفي ، واختلف الناس في أمره ، فالشيعة يزعمون  
أنه واحد منهم ، والفلاسفة يدمونه لأنفسهم ، وأهل صناعة الذهب  
والمعادن يرون أنه كان واحدا منهم ، وكان جابر بن حيان يشتغل يعلم  
الكيمياء ، ولم يعرف عنه أنه كان صاحب مجاهدات في الصوفية ، أيضا

لم يعرف عنه انه نطق بأقوال الزاهدين . ويرجع في حقه ان لقب الصوفية الصق به نتيجة اخذه من الحكمة اليونانية « سوفيا » وعلموما .

اما أبو هاشم الكوفي فقد كان معاصرا لسفيان الثوري ، ويقول عنه سفيان « لولا أبو هاشم ما عرفت دقائق الرياء » .

ويورد بعض المؤلفين ان أول من تسمى بالصوفى هو أبو هاشم الكوفى سنة ١٥٠ وكان من النساك يجيد الكلام وينطق بالشعر كما وصفه الجاحظ ..

ويعلق بعض المؤلفين على تسميته بالصوفى بأنه كان يلبس لباسا طويلا من الصوف كما يفعل الرهبان ، ويقول بالحلول والاتحاد مثل النصارى ، غير ان النصارى اضافوا الحلول والاتحاد الى عيسى عليه السلام وازافهما هو الى نفسه ، وكان مترددا بين هاتين الدعوتين ، ولم يعلم على ايهما استقر فى النهاية « كما يورد صاحب طرائق الحقائق » .

والاخبار الواردة عنه مضطربة ، وتعدل فى اضطرابها الاخبار الواردة عن جابر بن حيان او يزيد .. وينقلون عن جعفر الصادق انه قال فيه « انه فاسد المعقيدة جدا وهو ابتدع مذهبها يقال له التصوف وجعله مغرا لعقيدته الخبيثة » .

اما عبدك الصوفى فكان آخر شيوخ فرقة نصف شيعية صوفية تأسست فى الكوفة ، وقد كان عبدك هذا رجلا زاهدا منزويا توفى فى بغداد سنة ٢١٠ تقريبا ، ويحدثنا عنه كتاب الرد على اهل الاهواء والبدع انه « اى عبدك الصوفى » كان على رأس فرقة من الزنادقة ، وأهم ما فى قصة عبدك الغامضة انه كان أول كوفى يطلق عليه اسم صوفى بعد انتقاله الى بغداد .

ولعل من المسمر اليوم ان نعرف أول من اطلق عليه لقب الصوفى ، او تقطع فى هذا البحر برأى نظمئن اليه .. كل ما نريد ان نلاحظه جيدا ان هناك احتمالا قويا ومؤشرات عديدة لخروج التصوف من الكوفة .. وقد مر الزهد بمراحل عديدة حتى صار الى التصوف ..

وبعد ان كان الزهد حلا سعيدا - او حلا وحيدا بمعنى اصح - امام  
ابناء الحسين ، وبعد ان كان البكاء الطويل والدموع التي لا تجف هي  
اول بحار سبغ فيها الزهد ، دخل الزهد طورا جديدا بدحول شخصيات  
جديدة فيه ..

وينسب لسفيان الثوري « الذي ولد سنة ٩٧ هجرية » بدء هذا الطور  
الجديد الهادي .. فبعد ان كان الزهد سباحة في الدموع وغربة سببها  
فقد الاحبة ، صار الزهد هادئا متأملا صامتا مفكرا ..

بدأ الاتجاه الى التفكير بدلا من الهرب منه ..

وهكذا سئل سفيان الثوري يوما بعد ان ذاع واشهر صيه : ارى  
الناس يقولون سفيان الثوري وانت تنام الليل ..

يريد السائل ان يقول لسفيان انك لا تتعب اثناء الليل عبادة تفسر  
شهرتك بالعبادة ..

وكان رد سفيان عليه وجيزا مختصرا وجامعا في نفس الوقت .. قال  
سفيان « اسكت .. ملاك هذا الامر التقوى .. »

يريد ان يقول له ان اهم ما في الزهد هو التقوى ، وليس السهر  
والعبادة وكان سفيان متفرغا للعلم ، ويبدو انه قطع شوطا طويلا من  
العلم فصار اكثر ميلا الى الحزن .. وكان يؤثر عنه قوله :

« لو لم اعلم لكان حزني اقل .. »

كان سفيان الثوري سائحا من السائحين في الارض .. وكانت  
السياحة في الارض يومئذ بدعة ، ولكن سفيان الثوري كان يسبح رغبة  
في العزلة ، قاصدا التأمل والتفكير ..

كان وايه ان من خاطب الناس داراهم . ومن داراهم راداهم ، ومن  
راداهم وقع فيما وقعوا فيه ، فهلك كما هلكوا .

وكان سفيان زيدا ، وناصر محمد بن عبد الله بن الحسين الثائر  
بالمدينة ، وبايع له واكتسب عداء الدولة بهذا الموقف ، وكان السلطان

يطلب رأسه ، ولكن سفيان لم يشترك في القتال لانه آثر السلم كما يقضى بذلك مبدأ الزهاد .

ويبدو أن اختيار سفيان للزيدية جاء نتيجة اتفاق الزيدية مع تفكيره الحر فالزيدية لا تجعل الامام معصوما ، وهو ليس بالضرورة اعلم المسلمين اما التفوق في العلم فبابه مفتوح للجميع .. من شاء أن يدخل دخل .

وقد دخل سفيان الثوري باب العلم وتفوق فيه : وكان جريئا في الحق ، فقد سلم على الخليفة المهدي تسليم العامة ، ورفض أن يظهر للسلطان أى مراعاة خاصة .

بعد سفيان الثوري جاء داود الطائي وهو رجل اتم تعلمه على يد شيخه فلما امتحنه الشيخ قال له معقبا : **بقي العمل به** .

يقصد الشيخ بقي العمل بما تعلمته ..

ونازعته نفسه الى الوحدة والعزلة ، واعتزل داود الناس واتخذ التبتل منهجا لسلوكه وحقيقة .. ولم يتزوج داود وبقي أعزب أربعة وستين عاما ، وتردد في سيرة داود اشارة الى كونه شيخا لمريد آخر ..

**كان العور الذي لعبته الكوفة في نشأة التصوف بارزا بغير شك ..**

ان حركات الفلاة من الشيعة ، وحركات الإمامة ، وفكرة الشيخ والمريد ، والمقاومة السلبية التي تأخذ شكل ارتداء الصوف ، والعاطفة الدينية التي كانت تستغرق الكوفيين ، واللون الشيعي الذي كان يصبغ الكوفة .. استطاع هذا أن يمين على نشأة الزهد وتطوره الى التصوف ، ولم تكن البصرة بمعناى عن تيارات تجعلها هي الاخرى حضانة للزهد المفضى الى التصوف ..

ورغم قرب البصرة والكوفة ، فقد كان بين البلدين تضاد قوى ، يتضح في كون الكوفة مغلقة على نفسها ، وكون البصرة مفتوحة على التيارات الأجنبية الوافدة .. وكانت البصرة تسمى بأرض الهند ، كما كانت من الناحية الادارية مركز حكومة خراسان أيام الامويين ، وعلى حين اتصفت الكوفة بالاصالة العربية ، اتصفت البصرة باختلاط الثقافات .. وقد كانت البصرة على تخوم فارس ، ولهذا نشأت فيها دراسات اللغة

العربية كأصول الصرف والنحو لتعليم الاماچم الداخلين فى الاسلام واصبح التلاميذ مع الوقت اساتذة لهذه العلوم ومن حملتها ، وظهر فى البصرة أول واضع للنحو العربى أبو الأسود الدؤلى .. وكان فى اساتذة اللغة العربية من يقوم بتفسير القرآن ، فيفسر للعرب باللغة العربية ، ويفسر للذين انحدروا من دماء فارسية باللغة الفارسية .

ولعل أطرف ما قيل من الفرق بين الكوفة والبصرة ما قاله كتاب مروج الذهب . فقد شبه البصرة بأنها عجوز أوتيت من الحلى والزينة ، أما الكوفة فشابة حسناء جميلة لا حلى عليها ولا زينة ..

وكانت الحياة فى البصرة سهلة طيبة ، ويبدو ان الاسمار فيها كانت رخيصة حتى وصفها أحد الكتاب بأنها خير البلاد للجائع والغريب والمفلس .. كما كانت الأحوال فيها أكثر استقرارا من الكوفة ، وكان أهل البصرة أكثر أموالا وأولادا وأطوع للسلطان ، ولعل أخطر فرق بين المدينتين هو الفرق بين ضميرهما ، فعلى حين ظل الزهد فى الكوفة مشوبا بالتوجس والخوف استطاعت بدور الزهد فى البصرة أن تنتج لنا زهور الحب ..

وكان جو الكوفة مليئا بغبار المعارك التى أدت الى عكس النتائج التى يريدها الكوفيون ، ولهذا لم يستطع الزهد الكوفى أن يخرج من نطاق الخوف الى نطاق الحب ، فقد كان ضمير الكوفة مشغلا بالآلم الذى يمانيه أهلها ، وكانت خطيئة الكوفيين تتصل بخيانة المبادئ والتخلى عن المثل العليا عندما تحين ساعة الجذ والقنال ، أما البصرة فكانت ذنوبها فردية لا تتصل بخيانة المبادئ أو الكبائر المتصلة بالمثل العليا ، ولهذا قطعت البصرة المسافة بين الخوف والحب أسرع من الكوفة ..

كما ان تشيع الكوفة كان يلتصق بآل البيت ، وكانت خيانتهم لآل البيت هى السر فى عدم استطاعتهم الارتفاع بحب آل البيت الى الله ، على عكس البصرة التى لم يكن لها ارتباط شيعى بامام يفترض فى اتباعه ان يعتبروا حبه جزءا من عقيدتهم .

وكان الحسن البصرى هو مؤسس مدرسه الزهد فى البصرة ، وكان

الرجل زاهدا يصدر عن روح الاسلام الحقيقي ، وقد ولد الحسن البصري في المدينة وحفظ كتاب الله في خلافة عثمان وسمعه يخطب مرات ، وكان ابوه من الاسرى ، ولم يكن عربيا ، ويقال انه ولد على الرق ، وكانت امه خادمة لام سلمة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يسلم الحسن البصري ، وقد نسب الى اسم المدينة التي اشتهر فيها علمه وزهده ، لم يسلم من اساطير الصوفية فهم يحكون عنه انه اطلع على الاسرار الدينية وعلم الباطن ، ومهما يكن من امر فقد كان الحسن زاهدا رقيق القلب بالغ الحساسية عميق الحزن ..

كان اذا اقبل فكانما اقبل من دفن حبيبه .. واذا ذكرت النار . فكانما خلقت من اجله ، وكان يقول ان طول الحزن في الدنيا بمثابة تلقيح للعمل الصالح . وحين سئل عن سر احزانه قال :

« ان المؤمن لا يسعه سوى الحزن لانه بين مخالفتين .. ذنب قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، واجل قد بقى لا يدرى ما يصيب فيه من المهالك . وكان الحسن البصري يلبس الصوف .. »

وكان الحسن البصري يبكي اذا نصب قامته للصلاة في جوف الليل .. وكان المجتمع البصري مليئا بالذنوب والانحلال الخلقي .. من مواخير منصوبة اثناء الليل ، وحقوق منهوبة في النهار المبصر ، كما اشار الحسن البصري الى الشلوذ الجنسي الذي كان منتشرًا في البصرة ..

وطوال حياة الحسن البصري كان الزهد لم يزل يسبح في مياه الخوف .. وحين جاء عامر بن عبد الله بن عبد قيس .. كان هذا ايلانا بخروج الزهد من منطقة الخوف من الله .. الى منطقة الحب لله عز وجل ..

كان عامر اول زاهد تخلص من احزانه وهمومه واغرق نفسه في بحار الحب حين قال :

« احببت الله حبا سهلا على كل مصيبة ، وودعاني بكل قضية ، فما ابالي ما اصبحت عليه » .

وخرج الزهد من حدوده الضيقة التي تحاصرها الاحزان والبكاء الى

عالم أكثر رحابة .. وأدمى الى التفاؤل ، وأعمد وأكثر تركيبا ..  
ذلك عالم الحب ..

وبدا الزاهدون يتجهون الى الله بالحب .

قال الزاهد : يا اخوتاه هل فيكم من احد لا يحب ان يلقي حبيبه ،  
الا فاحبوا ربكم وسيروا اليه سيرا كريما .

وجاء عتبة القلام فكان أكثر اندفاعا في الحب واقدر على التعبير عنه  
في قوله : « ان تعذبني فاني لك محب ، وان ترحمني فاني لك محب »  
وقال : العرس في الدار الآخرة ، اشارة الى انه لا يفكر في الاعراس التي  
تنعقد على هذا السطح الترابي للأرض ..

وبدأت الكلمات التي تربط الزهد بالحب تطفو على سطح الحياة ..

وقال القائل : « والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » ..

ولم يعد الخوف من الله تعالى هو الذي يحكم قلوب الزهاد والصوفية ،  
ولا صارت الرغبة في الجنة أو الخوف من النار هو السر في التقوى ..  
صار الحياء من الله تعالى وجهه حبا خالصا لوجهه هو المسيطر على  
القلوب .. ودخل الزهد في مياہ التصوف بهذه الماطفة القوية ..

وبدأت بحار الحب عند الصوفية تستكمل شكلها من أمطار الزاهدين  
القدماء ودموع الخائفين .

ومع القرن الثالث للهجرة .. كان الاحساس بالاسلام قد صار  
احساسا معقدا مركبا كما تقول بلغة الفن ..

لم يعد هو الطاقة الدافعة المؤثرة التي تستولي ببدايتها على الروح ،  
انما صار مؤسسات تلاحمت مع الواقع بثقافته المختلفة ورؤاه المتنوعة  
.. وكان بحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغ الشفافية والصفاء ،  
ورغم صمته العظيم ، كانت العين تستبين في قامة المسك ولآله المحارات ..  
ولم يكن ممكنا ان يفرق احد في هذا البحر ، بعد ان ابلغ رسول الله صلى  
الله عليه وسلم رسالة الله ، وصار القرآن الكريم هو سفينة نوح التي  
ينجو من يلوذ بها ، ولا يخشى اللأثم بها من امواج العواصف أو أمواج



الزمن ..

ولم يكد هلال القرن الثالث الهجرى يستكمل استدارة القمر حتى  
كان الوضع قد تغير ..

لم يعد بحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يكشف عن قاع المسك  
ولآله المحارات ، قد أربقت في هذا البحر الكريم دماء أهل بيته ،  
وتصاعد ربح المسك من دم الشهداء المراق ، واخترع الحب الذى ينقصه  
النضوج كلما كثيرا سب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منه  
برى ..

ومن الطبيعى ان حركة الوضع فى السه ، او الكذب على رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، ونسبة الاحاديث اليه ، نشطت مع نشاط الفتنة  
وانقسام الفرق واقتتال المقاتلين ، ومن المدهش ان الحديث المتواتر عن  
رسول الله هو الحديث الذى يقول فيه .

.. من كذب على عامدا متعمدا فليتبوا مقعده من النار ..

ورغم هذا النص الحاسم الذى يتوعد الكاذبين على الرسول ، فقد  
نشطت حركة الكذب ووضع الاحاديث ، كما كان الناس اذا استحسنوا  
قولا نسبوه للرسول ، كما كان الوعاظ يحكون الحكايات الطويلة المؤثرة  
ذات المضمون الوعظى وينسبونها للرسول ، وزاد ركام الاحاديث المنسوبة  
للرسول .

ونشط اليهود الذين اعتنقوا الاسلام الى وضع الحوادث والاساطير  
والحكايات الخرافية التى عرفت باسم الاسرائيليات وكان هدفها تحطيم  
الاسلام من داخله كقنابل الأعماق ، وراحت كل فرقة تأخذ من هذا  
الركام ما يتفق مع أغراضها ..

ومع القرن الثانى للهجرة كانت كلمة الزهد قد صعدت لبؤرة  
الشعور ، ومن الغريب ان هذه الكلمة لم ترد فى القرآن الكريم غير مرة  
واحدة فى قصة يوسف عليه السلام فى قوله تعالى « وشروه بشمن بعض  
دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » . وليس لها هنا كما يقول  
يكولسون اى معنى سوى . وانما هى مستعملة فى معام اللوم والتأنيب .  
ولكن كلمة السبل وهى اقدم من كلمة الزهد . وردت فى القرآن فى قوله

تعالى « واذكر اسم ربك وتبطل اليه نبيلا » سورة المزل ، والمراد بها نوع من أنواع العبادة التي أمر بها الله ، كما أن السباحة في الأرض وردت في القرآن الكريم لقوله تعالى « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف » سورة التوبة ..

ايضا وقف القرآن الكريم ضد الرهبانية ، ووصفها بأنها بدعة ابتدعتها المسيحية .. قال تعالى « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله » ..

ايضا صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بان الاسلام يخلو من الرهبانية « لا رهبانية في الاسلام » .

ويخطيء نيكولسون حين يتصور ان في المسلمين الأوائل من سلك هذا الطريق ، ويحتج بما جمعه جولدسمير من طائفة من الأمثلة على نماذج كانت معاصرة للنبي أو قريبة من زمنه ، عرفوا بالتكفير عن معاصيهم بهذه الطرق ..

من هؤلاء بهلول بن ذؤيب الذي خرج الى جبل بجوار المدينة ، وليس لباس الشعر الخشن وربط يديه خلف ظهره بسلاسل من حديد وجعل يصيح « يا رب » أنظر الى بهلول يرسف في الأغلال » ..

وكذلك أبو لبابه حين ندم على خيائة ارتكبها ، فقد ربط نفسه الى عمود في مسجد المدينة وبقي على هذه الحال حتى ايقن ان الله غفر له ، وهناك أنواع أخرى من أساليب الندم والتوبة كانت متصلة بشعائر الحج الى البيت الحرام ، فكثيرا ما ذهب الحجاج الى مكة مشاة حفاة الأقدام ، أو طافوا بالكعبة وهم مقودون كالجمال بحلقات في أنوفهم ، وقد سمعنا بحجاج قطعوا على أنفسهم عهد الصمت وان أبا بكر أبطل هذه العادة واعتبرها من أعمال الجاهلية .

هذا ما يسوقه نيكولسون في الدلالة على وجود الزهاد في العصر النبوي ، وليس هذا التصور فهما سليما لما حدث ، فان هذه النماذج القليلة التي أوردها المستشرقان لم تكن نماذج للزهد ، وإنما كانت نماذج للندم التابع من معصية مؤقتة ، وكان يزول بزوال أسبابه ، ولم يكن الرسول يتدخل فيه لمعرفته صلى الله عليه وسلم ان هذا ندم مؤقت

سرعان ما يروى بقبول التوبة ، وليس زهدا منظما له طقوس وتقاليد ،  
وليس رهبانية لها قوانينها الحاكمة ..

.....

ثمة سؤال يطرح نفسه هنا ..

إذا كان هذا الندم البالغ الذى يأخذ شكل تعذيب النفس ليس هو  
الزهد الذى جاء به الاسلام .

فما هى نوعية الزهد الذى حملته الاسلام كمقيدة .. إذا سلمنا جدلا  
بان الاسلام حمل الزهد فى ثيابه كمقيدة ..

.....

سنبدأ برأى الاستشرق أولًا .. ثم نعرض لرأى أحد الدارسين  
العرب ثم نقول ما نعتقد أنه وجه الصواب فى الرايين ..

يقول نيكولسون فى كتابه « التصوف الاسلامى وتاريخه » ..

انفرد القرن الأول فى الاسلام بالموامل الكثيرة التى شجعت على ظهور  
الزهد وانتشاره ، فالحروب الاهلية الطويلة الدامية التى وقعت فى عهد  
الصحابه وبنى امية ، والتطرف العنيف فى الاحزاب السياسية ، وازدياد  
التراخى والاستهانة فى المسائل الخلقية ، وما عاناه المسلمون من عسف  
الحكام والمستبدين الذين يعملون ارادتهم وآراءهم الدينية على خيهم ممن  
اخلصوا فى الاسلام ورفض هؤلاء الحكام علانية كل فكرة تتصل بالخلافة  
الدينية « الثيوقراطية » التى حاول المسلمون ارجاعها ، كل هذه عوامل  
حركت فى نفوس الناس الزهد فى الدنيا ومتاعها ، وحولت انظارهم نحو  
الآخرة ووضعت آمالهم فيها ، ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية عنيفة ،  
وانتشرت على مر الأيام ، فكانت زهدا دينيا خالصا فى بادىء الامر ، ثم  
دخل اليها بالتدرج بعض العناصر الصوفية حتى تحولت فى النهاية الى  
القدم صورة تعرفها للتصوف الاسلامى ، وفطت هذه الحركة تعمل طابع  
ملهب اهل السنة الدقيق طيلة حكم بنى امية ، اى نحو من قرن من  
الزمان .. وكان القائمون بها من اشهر انقياء المسلمين ، بل كان كثير منهم

من القراء واهل الحديث وعلماء الدين ، ومن هؤلاء جميعا استمدت قوتها وشبابها ، واشهر شخصية في الزهد تمثل روح العصر الذي نتكلم عنه هو المتكلم المعروف الحسن البصري ( نوى ١١٠ هجرية ) ، والذي يعتبر مؤسسا لمدرسة البصرة في الزهد والتصوف .. وتدل اقواله واقوال غيره من اوائل المسلمين بوجه عام ، دالة لا تدع مجالا للشك على ان العوامل التي دفعتهم للزهد هي :

اولا : الرعب الذي القاه القرآن في قلوبهم من هول يوم القيامة وعذاب النار ..

ثانيا : ما استولى على نفوسهم من الغم والحزن لشعورهم بالمعاصي ، مما دعاهم الى قضاء حياتهم في التوبة والاستغفار .

قال سفيان الثوري ( متوفى سنة ١٦١ هجرية ) ما اطاق احد العباد ولا قوى عليها الا بشدة الخوف ..

انتهى رأى بيكولسون . وهو رأى بواقعه على اسانه .. ولكننا نرى نتيجة مضطربة اعظم الاضطراب متوافقة اشد التهامت ..

ان الرجل يورد اسبابا حقيقية يستمد منها بامانة من المحيط الخارجى الذى احاط بالاسلام ، ولكنه يقفز - في الظلام الى نتيجة مفاجئة ، يرى ان هناك دالة لا تدع مجالا للشك في سببين نشأ منهما الزهد .. هما .

١ - الرعب الذى القاه القرآن في قلوبهم من هول يوم القيامة .

٢ - ما استولى على نفوسهم من الغم والحزن لشعورهم بالمعاصي ..

وهذان السببان داخليان تماما . ولا علاقه لهما بظروف الاسلام الخارجية ..

ولقد اخطا المستشرق حين تصور ان القرآن يلقي الرعب في قلوب المسلمين . كما انه اخطا حين تصور ان الغم والحزن نتجا من تمزق المسلمين بين رعب التخريف وسوء الحال ..

ان هذا التصور الاستشراقى يجعل القرآن أداة قمع لقوى الانسان وطموحه ، ويجعله سلاسل تكبل انطلاقه

وهذا التصور ليس صحيحا لحسن الحظ ..

ان القرآن - بكل آياته المرمبة التي تخوف من عذاب النار - ليس موجها الى المسلمين ، انما هو موجه للكافرين ، وليس للمسلم الموحد بالله ان يخشى النار ، لانه ليس مقصودا بها ، كما ان القرآن لا ينشئ في نفوس من يقرؤه أى غم أو حزن ، بل لعله ينشئ عكس ذلك تماما ، ولو كان صحيحا ما يذكره المستشرق من تكبيل القرآن للمسلمين وتخويفه لهم ، ما انتشر الاسلام بالسرعة التي انتشر بها ، ولما اخضع له الحضارتين الكبيرتين في هذا الزمان البعيد .. ان القرآن صنع للمسلمين اجنحة من الأمل والاشراق طاروا بها في سماء الحياة - على حين قعدت بقية المبادئ باصحابها واخذت بهم الى الأرض .. ولم يكن القرآن يحمل الى النفوس دفعات من الغم والحزن نتيجة الشعور بالمعاصي ، لان الله تبارك وتعالى نص في القرآن الكريم على قبول توبة التائبين ، كما نص على ان الله تعالى « يغفر الذنوب جميعا » ، كما نص على ان الله عز وجل « لا يغفر ان يشرك به » ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » كما نصت اصول العقيدة الاسلامية على ان الاسلام يجب ما قبله ، ويلغى تماما كل شرك أو كفر كانا قبله ..

من أين يجيء الغم والهم اذا ، ومن أين يأتى هذا الرعب الذي يزعم نيكولسون ان القرآن القناه في القلوب ..

وى بيان حب الكافرين أو المشركين لمقاتلهم ومبادئهم - اشار القرآن الى حقيقة جوهرية غابت عن العالم الباحث ..

قال تعالى « والذين آمنوا اشد حبا لله » ..

وقال تعالى في بيان حقيقة الصلة بين المسلمين الموحدين بالله وخالقهم الأمر الأكرم « يحبهم ويحبونه » ..

فاشار سبحانه وتعالى الى ان حقيقة الصلة بالله هي الحب .. لا المهر .. وهي الأكرام .. لا الخوف ..

وعقيدة هذا شأنها لا تحمل رعبا ولا هما ولا غما ..

.....

ولننظر الآن في رأى احد الباحثين من العرب .. يقول الدكتور كامل

الشبيبي في التفرقة بين زهد الاسلام الاول والزهد المنظم الذي نادى به رهاد الكوفة والبصرة والشام وصار مقدمه للتصوف . .

سنرى ان الاسلام كان من اصول الزهد الاولى ، ذلك ان الاسلام قد جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرفع بمستوى الاجراء والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحية ، وقد كان صبغ الاسلام دعوته بالزهد والتقشف هو العلامة المميزة له عن النظام القرشي في مكة والشعائر الذي يلتف بمقتضاه الضعفاء والمحرومون والعبيد حول النبي ويدخلون في دين الله افواجا . ذلك ان الاسلام لم يكن منجما من الذهب ولم يكن شركة لها اموال وتجارة ، وانما كان دعوة تهدف الى اقرار مثل من العدالة والمساواة لم تكن موجودة ، ولو استندت الدعوة الى النظام السائد واشبهته ما راينا المستضعفين والفقراء والعبيد انصارا له ، ولكان حركة انقلاب يقصد بها الاستيلاء على السلطة ، ولهذا عجزت قريش عن تحطيم الاسلام المكي ، وكانت مقاومته محاطة بالاشواق . وقد كان الزهد الذي اصطبغ به الاسلام مانعا لارستقراطية قريش من الدخول فيه وتفويضه ، فقد كانت ضريبة دخول القنى في الدعوة ان يخرج عن امواله وان يساوى زملاءه في الفقر ، والامثلة على نزول المسلمين الصادق الايمان عن ثرواتهم مشهورة ، وهذا ابو بكر وعثمان من الامثلة الناصعة على ذلك ، ولمسه ليس من الغريب ان نجد حركة الزهد فيما بعد تعكس لنا هذه الصورة ذاتها بنزول محمد بن سوقه الزاهد مولى بجيلة ، عن مائة وعشرين الف درهم من امواله ليدفع بها البلاء عن اهل الكوفة . . وبهذا يتبين لنا ان الزهد صورة اصيلة من صور الاسلام ، وفقرة هامة في منهجه التطبيقي ، اريد به نزول القادة الى مستوى الفقراء لجمعهم وكسب عطفهم وحماسهم ، فاصطبغ زهد الاسلام بصفات الداخلين فيه من الفقراء والعبيد ، فكان المسلمون الاولون وحتى خلفاءهم يلبسون اللباس الخشن ويتناولون الطعام البسيط ولم يكن ذلك منهم نوعا من العبادة الزائدة او شيئا مضافا الى الايمان المتميز ، وانما كان من طبيعة الاسلام التي دخلت نفوسهم وتقمصتها .

ولعل ابداع مثال ضرب للتدليل على هذه الحقيقة ما اورده ابو طالب

المكى من انه « لما جاء عبد الله بن عامر بن ربيعة في بومه الى ابي ذر رضى الله عنه وسأله عن الزهد واخذ يتكلم فيه جعل ابو ذر يضرب به في كفه ثم اعرض عنه ولم يكلمه ، فغضب ابن عامر وكان قرشيا شريفا وشكاه الى ابن عمر رضى الله عنه فقال له : « هذا ما فعلته بنفسك ، تأتي الى ابي ذر في هذه الثياب وتسأله عن الزهد . »

وهكذا اوضحت صراحة ابي ذر معنى الزهد وحكت لنا قصته الحقيقية واوضحت حقيقة اللبس بالاسلام من الارستقراطيين القدامى الذين جاء الاسلام لمحقهم . »

انتهى كلام الدكتور الشيبى ، ورغم ان فيه جزءا كبيرا من الصحة ، الا اننا لا نستطيع موافقته على النتائج القاطعة التى ينتهى اليها دون معاودة الروية ..

ليس صحيحا ان الاسلام جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرتفع بمستوى الاجراء والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحية.

الصحيح ان الاسلام كان دعوة حضارية لتصحيح صورة البشر عن الله عز وجل .. وكان رسالة الهية ترسم للبشر طريق الخلاص الروحي والاجتماعي ، واذا كانت الارستقراطية القرشية مستقف ضده ، فالذنب ذنبها انها تقف ضد حضارة الانسان المؤيدة من الله ..

لكن الاسلام لم يات ليمحق اغنياء مكة او الارستقراطية القرشية ، بهذا المفهوم الضيق يتحول الاسلام الى ثورة تشبه ثورات الاشتراكية التى يقوم بها الفقراء ضد الاغنياء مدفوعين - ومعهم كل الحق - بدوافع اقتصادية . نحن نرفض هذا التفسير الاقتصادي لنزول الاسلام ، كما نرفضه لتفسير زهد المسلمين ، كما نرفض تفسير المستشرق النفسى الخاطئ لزهد المسلمين ، ونرى ان الاسلام لم ينزل لضرب اغنياء مكة او الارستقراطية التجارية فيها ، فهؤلاء كانت تكفيهم ثورة يقوم بها الفقراء والجبايع ، ولا يستلزم القضاء عليهم ان ينزل الله تبارك وتعالى رسالة هي آخر رسالاته الى البشر ، هذا تضيق لنطاق الاسلام وحصر لميدانه .

ايضا لم تكن ضريبة الدخول فى الاسلام ان ينزل الفنى عن امواله

ويخرج من ثرائه ، لم يكن هذا النزول عن الثروة شرطا للدخول في الاسلام ، انما كان نتيجة تترتب على فهم حقيقة الاسلام . و الفرق بين المعنيين بعيد ، لان القهر متصور في الحالة الاولى ، بينما الحب هو الدافع في الحالة الثانية . ايضا لم يكن نزول قادة الاسلام الى مستوى الفقراء لجمعهم وكسب عطفهم وحماستهم كما يقول الدكتور الشيبى ، انما كان نزول القادة لمستوى الفقراء حياء من الله تعالى ورغبة في كسب رضائه سبحانه ..

لم يكن الزهد في الاسلام تكتيكا يقصد به ضرب مجموعة من الاغنياء ، كما لم يكن تكتيكا الفرض منه اقناع الفقراء بأننا منكم ومعكم ، انما كان الزهد في الاسلام جوهر اساسه الحياء من الله تعالى .. فلا يأكل المسلم وجواره مسلم جائع ..

ولا يرتدى المسلم ثيابا ثمينة وجواره مسلم عار اما الدين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله من المسلمين .. اما هؤلاء فقد وردت في حقهم آيات تسلكهم مع الكافرين وتجعل لهم امتياز اذهب في العذاب .. فان الذهب والفضة التي ادخرت ولم تنفق في سبيل الله ، قد تحولت يوم القيامة الى هذا الغيب المروع الذي يطلعنا عليه الحق ..

**قال تعالى :**

**« والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فلو قوا ما كنتم تكتزون » .**

.....

نفهم من هذا ان اكتناز الذهب والفضة ليس من طبيعة المسلم .. لانه وقف لنمو المجتمع الاسلامى وحبس للمال الذى هو ملك الله تعالى وعدم انفاقه في خير المسلمين . وليس هذا من قيم المسلم ..

الزهد اذا طبيعة وجوهر من جواهر الاسلام .. ولكنه ليس هو الاسل المنشئ لنزول الاسلام ، انما هو عنصر داخلى من عناصر القيم في



هذا الدين ، وهو عنصر ظهر في بداية الاسلام ظهوره الطبيعي ، وكان جمالا يضاف الى جلال الاسلام ، فلما انحرف المسلمون كان طبيعيا ان ينحرف الزهد ويولد في شكله الفنى الجديد الذى نعرفه باسم التصوف .

كان انحراف الزهد عن طريقه وسيره في طريق التصوف مسألة طبيعية اقتضتها عشرات العوامل المختلفة ..

كما كان الطريق الجديد ممهدا لهذا التحول .. وبغض النظر عن الظروف الموضوعية التى ساهمت في ميلاد التصوف ، فهناك ظروف شخصية كانت تكفى وحدها لميلاده .. هذه الظروف هى اختلاف مشاعر الخلق وطباعهم لقد خلق الله تعالى وجوه الخلق وليس فيها وجه يشبه الآخر . وصور النفوس اشد تنوعا من صور الوجوه . نحن نعرف ان الله تبارك وتعالى لم يخلق الناس سواء في العقول او المشاعر او القلوب او الاحساس بالاشياء ..

نعرف ان الله تبارك وتعالى لم يخلق انسانا يشبه انسانا آخر في تكوينه النفسى او اسلوبه في الاحساس ..

صحيح ان بين الناس اشياء عديدة مشتركة ، لكن الحس الداخلى يختلف من انسان الى آخر ..

في الناس المعتدل .. وفيهم المتطرف ..

وفي الناس من ينمو عقله الفلسفى ، وفيهم من ينمو وجدانه الروحى . وفي الناس ذو الطبيعة السوية ، وفيهم ذو الطبيعة الفنية . وتطلعنا الدراسات الحديثة في تكوين الفنانين على انهم من طينة تختلف كل الاختلاف من طينة البشر العاديين ، ان الاعتدال الذى يميز الانسان السوى او العادى يخلق الفنان . وعلى حين يؤمن الانسان العادى بالحياة الوسطية المعتدلة ويعتقد ان خير الأمور الوسط ، يرى الفنان ان المتطرف مبدؤه ، وهو لا يقتل ذلك افتعالا والا كان كاذبا ، والاصح انه يولد بهذه الطبيعة التى تظهر نتيجة الثقافة وقوى البيئة ..

والى جوار الانفعالات العنيفة التى تشتمل في روح الفنان ، يملك

الفنان رؤية تختلف عادة عن رؤية الإنسان العادى . ويملك الفنان هذه القدرة على الانتقال من أقصى اليمين الى أقصى اليسار دون جهد . ويختار الفنان دائما أن يحيا في قلب الفلو ، والمبالغة ، والاختطار ، والقلق .. وهو مسير في اختياره لان قوى داخلية تختار له وتفرض عليه .. ولو ركزت حياة الفنان واستقر وعثر على الجنة فانه ينتهى كفنان .. ولعل الفرق بين الفنان ورجل الشريعة هو الفرق بين رابعة العدوية مثلا وفقهه مثل أحمد بن حنبل ..

كان أحمد بن حنبل في محنته خلال السجن يتسم برضا ويحسن بالرضا .. وحين اشفق عليه بعض تلاميذه وحدثوه ان يصبر على عذاب السجن قال « انا جنتى في صدري » .

وحدد بكلمته الوجيزة الفرق بينه وبين غيره ..

ان أحمد بن حنبل يحمل جنته في صدره .. انه رجل يعيش في جنة الرضا عن الله ، وليس يعنيه أن يوضع في السجن أو في قصر .. فهو في الجنة سواء وضعوه في قلب النعيم أو قلب العذاب .

هذه الطبيعة المستقرة الراسخة العارفة ، ليست طبيعة فنية .. لقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن الشعراء ، وهم رمز للفنانين ، والاشارة اليهم لم ترد في القرآن الكريم صدفة أو اتفاقا . انما وردت لحكمة .. كان الله تبارك وتعالى ينفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة الشعر « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » يريد الحق تبارك وتعالى ان يقول ان الشعر موهبة يعلمها الله لبعض عباده ، ولم يكن الرسول - بما وهب من نبوة - في حاجة لهذه الموهبة الاقل .. ايضا لم يكن من المصلحة ان يكون في النبوة أى اثر لموهبة الفن ، لان الفن أو الشعر هيام بين الأودية « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » والأودية كما اتفقنا ليست أودية مادية ، انما تنطبق على القلق المتصل بالمكان ، كما تنطبق على القلق المتصل بالزمان والأفكار ..

ولقد حدد الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم طبيعة الشعراء والفنانين عموما ، وبين خصائصها الجوهرية التي لا تتفق مع النبوة ،

وانكر ان يكون النبي شاعرا او يعلم الشعر او علمه الله الشعر .  
النبوة افق اطلى من كل الافاق ..

النبوة فوق كل تصور بشرى ، فهي اصطفاء من الله تعالى ، وحفظ  
من الله تعالى ، وعصمة من الله تعالى ؛ واختيار من الله تعالى ..  
والنبي بشر .. ولكنه المثل الأعلى للبشر ..  
وليس كل البشر انبياء ..

وفهم النبي للعقيدة الاسلامية هو الفهم اللائق بجلال النبوة ..  
وليس كل البشر انبياء كما تقول ..  
واذا .. فمن الطبيعي أن يختلف فهم البشر العاديين للعقيدة من  
فهم النبي ..

ومن الطبيعي حين يلتقى الاسلام بالإنسان يملك طبيعة فنية ، من  
الطبيعى لهذا الفنان أن يفهم الاسلام فهما يختلف فيه عن فهم النبي ،  
وربما غلا بعض الشيء ، وربما بالغ بعض الشيء ، وربما كانت له رؤياه  
الخاصة التى تختلف عن رؤية غيره ..

لهذا كله نحسب ان التصوف كان سينشأ لأسباب شخصية وبشرية  
حتى ولو لم تساعده الأسباب الموضوعية في المجال الاجتماعي ..

وليست مصادفة بحتة أن معظم الصوفية شعراء وكتاب ، ليست  
هذه مصادفة ..

انما تثير هذه الحقيقة الى حقيقة اخطر .. وهى ان معظم الصوفية  
فنانون . ، أو اصحاب طبيعة فنية ، وفيهم من كان يستسلم لفنّه ، وفيهم  
من كان يلزم فنّه بأصول الكتاب والسنة ..

ومن هنا جاء اختلافهم ..

اذا سلمنا بذلك ، فسوف نفهم كثيرا جدا من تناقضات الصوفية  
ومبالغاتهم ، فان التناقض جزء من طبيعة الفن .. وجزء من تكوين الفنان

تأمل قوله تعالى عن الشعراء « **وانهم يقولون مالا يفعلون** » ..

ان هذه الآية الكريمة ليست انتقاصا من الشعراء او سباً لهم ، انما هي كشف لهذا التناقض الذى هو جزء من الطبيعة الفنية ..

والشعر اداة من ادوات التعبير ، والاداة لا توصف بالخير او الشر ، انما يتعلق الخير والشر بما يفصح به الروح الانسانى خلال استخدامه للاداة .. وهناك شعراء قالوا الحكمة كلها فى بيت واحد من الشعر كما صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اصدق بيت قالته العرب قول لبيد .

« **الا كل شيء ما خلا الله باطل** » ..

وهناك بالمثل شعراء حاربوا الاسلام ووقفوا ضده ، والعبرة بما يقوله الشاعر وما يفعله ..

نريد ان نخلص الى الحقيقة التالية ..

ان معظم الصوفية فثاتون ..

نقول معظم الصوفية ، ولا نطلق الكلام ليستوعب الجميع ..

ومعظم الصوفية ذوو طبيعة فنية ..

ومعظم التراث الصوفى ادب من ارقى انواع الادب وارفعه .. بكافة المقاييس النقدية القديمة والحديثة ، وسواء عرضنا هذا الادب على نقاد العصور القديمة او نقاد القرن العشرين ..

ونحسب ان هذا الراى الجديد فى مجال الدراسات الصوفية يمكن ان يصطدم بمعتقدات شتى .

وربما كانت هذه العقبات صادرة من هذه الهالات المقدسة التى اضفاها الزمن على مشايخ الصوفية وكراماتهم ..

ولكننا لا نعرف هالات مقدسة حول احد من رجال الاسلام .. واشرف خلق الله واكرمهم عليه هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

والتراب الذى يسير عليه النبى صلى الله عليه وسلم على راسى ، ودمى  
كله فداء قطرة من عرقه .. ولكنه ليس مقدسا ..

كانت عظمة النبى صلى الله عليه وسلم انه افهمنا ان القداسة  
الوحيدة لا تنصرف الا لله عز وجل .. ولا تقال الا عن الله عز وجل ، فهو  
القدوس سبحانه ، وهو المقدس المتعالى وحده ..

وثمة فرق هائل بين الخالق والانسان ..

ولا قداسة لاحد من رجال الاسلام ..

فكلهم بشر يصيب ويخطئ .. وفيهم من يملك طبيعة مترنة عاقلة  
وفيه من يملك طبيعة فنية متوهجة ..

وفى الصوفية من كان يملك هذه الطبيعة الفنية .

وسوف نحاول خلال تعرضنا للصوفية وآثارهم ، ان نبين هذه  
الطبيعة الفنية ، سواء فى أسلوب حياتهم أو ابداع عقولهم من الادب  
والشعر ..

كما سنحاول ايضا ان نقول .. متى يبدأ الفن ومتى ينتهى فى كلام  
الصوفية ؟ ومتى يبدأ الدين ومتى ينتهى فى كلام الصوفية ؟

ونسأل الله تبارك وتعالى ان يوفقنا الى النجاة فى هذا البحر الذى  
ننوى خوضه ..

.....

### لتبدأ برابعة العدوية

بحر رابعة العدوية ..

امراة .. صوفية ..

ليست مفاجاة ان نعرض على امراة صوفية ؟

ليست مفاجاة اذا كنا نعرف طبيعة الاسلام ، فان الاسلام دين النوع  
البشرى كله ، وليس النوع البشرى قاصرا على الرجال دون النساء ،  
كما ان المواهب التى وزعها الله تبارك وتعالى لم تولد على الرجال دون

النساء ..

كانت رابعة العدوية امرأة تملك طبيعة فنية مرهفة ..

وكانت لها رؤية خاصة في جوهر العبادة .. وكانت الى جوار ذلك من الفنانين المثاليين رغم حياتها التي كانت في جزء منها لا تنتمي للمثالية. وسنرى هذا كله في تاريخ حياتها المليء ..

**وأول ما نحب ان نلفت اليه النظر .. رؤاها الخاصة للشخصية الالهية ..**

الشخصية الالهية مسألة اهتم بها المسيحيون اهتماما اكبر من اهتمام المسلمين .. هذا رأى نيكولسون .. وهو رأى صحيح اذا نظرنا للقرنين الاولين بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن هذا الرأى لا يثبت للصحة فيما تلا ذلك من قرون ، فقد كان موضوع التصوف هو البحث في الشخصية الالهية ، بل ان علم الكلام قبل التصوف انصرف الى هذا البحث ، ونقصد بمعنى الشخصية هنا القدرة على الاتصال ..

يقول وب في كتابه الشهير « الله والشخصية » : « اننا لا نصف الله بالشخصية الا اذا تصورنا امكان وجود صلات شخصية بينة ، من حيث هو معبود ، وبين الانسان من حيث هو عابد ، وان هذه الصلات الشخصية بمتنوع وجودها اذا بولغ في جانب تنزيه المعبود او بولغ في جانب تشبيهه وتجسيده » ..

ولقد امتنق نيكولسون هذا الرأى ، وان تحفظ عليه بقوله انه لا يظن ان هذا يقنع علماء الكلام من المسلمين ، لان العقيدة الاسلامية تنص صراحة على ان الله تعالى مخالف للحوادث ..

ولست أرى في رأى نيكولسون او رأى وب ما يصعب الاقتناع به ، ان الرأى يسلم كل السلامة .. اذ تؤيده آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن تنزيه الله « ليس كمثله شيء .. » وتحدث في نفس الوقت عن سمعه سبحانه وبصره تعالى .. « وهو السميع البصير » ..

الصورة التي يقدمها القرآن لله عز وجل صورة ولا صورة ..

نعرف من القرآن ان الله تعالى يسمع ويرى « اسمع وارى »  
ونعرف ان « يد الله فوق ايديهم » .. ونعرف انه « وما رميت اذ رميت  
ولكن الله رمى » ونعرف ان الله يخالف الحوادث « ليس كمثله شيء » ..

ويحدثنا كبار العارفين بالله عن الله فيقولون :

« كل ما دار في وهمك ، وتصوره عقلك ، واستشرف اليه خيالك ..  
فالله غيب ذلك » ..

سبحانه وتعالى ..

كلمتان من كلمات التنزيه والتقديس يسوقهما المسلم اذا اراد ان  
يتصور الله تعالى او يتحدث عنه ..

ولقد اصاب المستشرق « وب » حين كتب ان الاسلام يميل الى  
تصوير العلاقة الشخصية بين الله والانسان بصورة العلاقة بين السيد  
الذى لا مرد لامره وبين عبده ..

اصاب تماما في هذه وان اخطاه التوفيق فيما بنسأه على ذلك من  
نتائج ، يستوى في ذلك حسن نيته ..

نريد ان نقول ان صورة تعالى والسيادة وصورة المبودية والخضوع  
.. هما حقيقة الصلة بين الرب الخالق الاحد ، والعبد المخلوق الخاضع  
.. هذه هي حقيقة العلاقة بين الله والانسان في عمق الاسلام والقرآن ..  
ورغم عظمة الله وحقارة الانسان - بالقياس الى هذه العظمة الالهية ..

رغم تعالى الله وتقديسه وتدنى الانسان وبؤسه وضعفه واخطائه رغم  
هذا كله . لم يشأ الله سبحانه وتعالى ان يترك الانسان قائما في موضع  
الرهبة والصالة والخوف ..

انما سمى الله تعالى نفسه « الودود » ..

وهي اللمة نحب ان يتأملها القارىء ويقف عندها طويلا طويلا ..

ان الود هو اصفى ما في الحب ..

وتسمية الله تعالى نفسه بالودود اشارة رحيمة لخلقته . وهو سماح

لهذا الخلق ان يحبوه ..

ولقد كان الصوفية اول من فتحوا هذا الباب ..

كانت رابعة العدوية اول من استعمل - بغير تهيب - كلمة الحب في العشق الالهى ..

واليها تنسب الايات الشعرية التى تقول :

**احبك حين حب الهوى      وحب لانك اهل للدا**

ان الشطر الاول من البيت يقول انها تحب الله حب الهوى .. نحن امام حب انسانى يتجه الى الله ..

صاحبه امرأة تعدت كثيرا واحبت كثيرا واشتعلت بنار الفن كثيرا وحين فاض بها الشوق صرحت بمشامرها ، ووضعت هذا التصريح في قالب من الفن يستطيع الصمود للزمن .. ولقد قالت هذه المرأة كلماتها منذ اكثر من الف سنة ، ورغم بعد المسافة وجدت كلماتها من يغنيها من مغنيات هذا القرن الشهيرات ، ووجدت كلماتها من يهتز لها من جمهور هذه الايام ، يطيب للانسان ان يحس انه يحب خالقه ..

وليس في هذا الاحساس ما يصطدم بالشريعة الاسلامية او العقيدة الاسلامية ..

ولا بأس ان يقف المسلم في مقام الرهبة او مقام الحب ..

المهم ان يكون في طريقه الى الله ..

تتعدد الطرق فى الأرض وتعدد الطرق فى القلوب ، واشرفها الطرق التى توصل الى الله ..

كانت رابعة العدوية هى اول من اخترق مجال الخوف الى مجال الحب ، وهى امرأة من البصرة .

اسمها رابعة واسم ابيها اسماعيل ، والعدوية اسم قبيلتها ، ويقول عنها المستشرق ماسينيون انها كانت فى اول امرها تعزف بالمعازف ، ثم تابت ، وقد خلفت مقطوعات شعرية تعبر عن حدة عشق مؤثرة ، وقضت



حياتها بالبصرة وكأنها مسجونة ، وفي البصرة ماتت بعد ان وصلت الثمانين ، وتركت في الاسلام شدا من ولايتها لا يزال أريجا ..

ويذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه عن رابعة العدوية اننا لا نعلم عن حياتها الاولى شيئا الا عن طريق العطار في تذكرة الأولياء .. ويذكر الدكتور بدوي ان رواية العطار عن طفولتها ونشأتها وخطبتها قبل التوبة مستفيضة ، ولكنها لا تقبل في عين المؤرخ الا اذا طرحنا منها جانب الخوارق والكرامات ..

ويذكر العطار ان رابعة ولدت في بيت فقير كل الفقر .. فلم يكن لدى ابويها قطرة سمن حتى يدهنوا موضع خلاصها .. واصل أسرتها غير معروف ، كل ما نعرفه ان الأسرة انتسبت الى آل عتيك ، أما ديانة آباؤها قبل الاسلام فمجهولة ايضا .. ولا ندري اكثروا من الفرس ام لا ..

ويفترض الدكتور عبد الرحمن بدوي المصدر المسيحي اصلا لكلامها في الحب الالهي ..

وقصة حياتها انها هامت على وجهها بعد فحط حدث بالبصرة .. هي واخواتها الثلاث ، فآخذها ظالم وأسرها وباعها لرجل بستة دراهم ، واقل عليها الرجل العمل فعاشت حياة بالغة العذاب .. واتخذت رابعة مهنة العزف على الناي ( لاحظوا الجانب الفني في شخصيتها ) ، وكانت هذه المهنة في رأى الدكتور بدوي « من المستحيل ان تستقل بنفسها ، ولا ان تكون بمنجاة من ألوان الاغراء » ..

ويخيل الى الدكتور بدوي انها قطعت شوطا طويلا في طريق الالم ، لانها ثابت بعد ذلك ، وهذه التوبة اصدق دليل على اندفاعها الى ابعد حد في طريق الشهوة .

ويؤكد الدكتور بدوي انها لم تكن معتدلة ، لان الاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين ، اما التطرف فمن شسيمة المعتازين الذين يدعون ويخلقون في التاريخ ، لهذا ادعو الى التطرف المطلق كل من يريد ان يكون خالقا للقيم ..

وقد اعترض الدكتور عبد القادر محمود على هذا الحماس غير العلمي

.. ورأى أن هذا الكلام يجوز أن ينطبق على البعض ، ولا يجوز تطبيقه على الكل ، ومهما يكن من أمر فقد كانت رابعة العدوية فنانة في الأصل .. كانت امرأة متاجعة المشاعر ، عنيفة في الاتجاه والاختيار ، متقلبة في حياتها المادية والنفسية على السواء ، أخطأت وانقادت ثم صحت ذات يوم على التوبة ..

ولكنها توبة غريبة ..

إنها لا تبكى خطيئتها في تواضع ، إنما تفخر بحبها لله وهواها له .. وهي تقسم حبها حبين ، وتطلع بهذين الحبين إلى الله ..

أحبك حبين حب الهوى . وحب لأنك أهمل لنا  
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عن سواك  
وأما الذي أنت أهمل له فكشفك لي الحجب حتى أراك  
فلا العهد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك

اختلف القدماء حول الأبيات الشهيرة التي نسبت لرابعة العدوية . كما اختلف المحدثون حول مضمون الأبيات ، وهمل هو مذهب في الحب الإلهي أم مجرد امتداد لنظرية سابقة .

وجرى نفس الاختلاف على شخصية رابعة العدوية ، فنسب إليها المطار كرامات كثيرة ، وحدثت كثير من الكتب من الخوارق التي جرت على يديها ..

وفي البداية ..

نحب أن نستبعد موضوع الكرامات والخوارق من مجال البحث لسبب بديهي أننا ندرس فكرها كفكر ، ونحلل أشعارها كأدب صوفي ، ولن يزيد هذا الفكر أو ينقص منه أن تكون لها كرامات أو لا تكون ..

موضوع الكرامات قد يلتقي ضوءاً على شخصيتها ، ويبين إلى أي حد لم تسلم شخصيتها من أضغاء مسحة أسطورية عليها ، ولكن هذا الموضوع لا يضيف إلى أدبها وفكرها ولا ينقص منه ..

تقول رابعة العدوية :

أحبك حين حب الهوى      وحب لانك اهل لذاكا  
تصرح في البداية أنها تحب الله تعالى نوعين من الحب : حب تسميه  
الهوى .. وحب لانه سبحانه وتعالى اهل لذلك .

والهوى كلمة مشتقة من اندفاع لا يقاوم نحو شيء .. وقد وردت  
الكلمة في القرآن الكريم في دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال :  
« فاجعل الفتنة من الناس تهوى اليهم » ..

والاصل في استخدام الكلمة هو المجال البشرى . واستخدامها في  
المجال الالهى هو الجديد الذى يلفت الانتباه ..

تريد رابعة العدوية أن تقول ان حبها البشرى أو قدرتها على الحب  
البشرى قد تحولت الى الله عز وجل ، وأضيفت هذه الطاقة الى الطاقة  
العادرة على الحب الالهى ..

الحب مزدوج ..

ثنائى ..

حب بشرى كان المفروض أن تصرفه للناس .. ولكنها قدمته لله ..  
وحب الهى الله سبحانه وتعالى اهل له ..

وفي البيت الثانى تشرح رابعة العدوية سر حبها البشرى الذى تحول  
الى الله .

وأما الذى انت اهل له      فكشفك لى الحجب حتى أراكا  
تريد ان تقول ان انشغالها بالذكر .. قد صرفها عن الناس .. ولانها  
انصرفت عن الناس ، فقد اتكشفت لها الحجب .

وأما الذى انت اهل له      فكشفك لى الحجب حتى أراكا  
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى      ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا  
انها ترجع الامر كله والحمد كله لله تعالى ..

هذه الأبيات الأربعة انارت جدلا لم يزل ماضيا الى اليوم ، واتارت عددا من المناقشات لم تغلق الى اليوم ..

.....

في البداية ، اختلف القدماء حول نسبة الأبيات اليها ..

قال الكلاباذي « توفي سنة ٣٨٠ هجرية » أن هذه الأبيات لمجهول ، اما الزبيدي فقد نسب الأبيات السابقة لسفيان الثوري . وعبد الواحد ابن يزيد .. ولم يلتفت الطوسي الا لكرامات رابعة العدوية ، واهمل الأبيات ..

ومعنى ذلك ان الأبيات الأربعة التي قيل ان نظريتها في الحب الالهي تعتمد عليها .. مشكوك في صدورها منها ..

اذا افترضنا أن رابعة هي صاحبة هذه الأبيات .. فهل ينطوي هذا الشعر على نظرية في الحب الالهي .. أم ان الأمر مجرد كلام في الحب الالهي ..

اختلف الدارسون والباحثون على هذا الموضوع .. اعتبر الاستاذ « ماسينيون » - وهو واحد من أكبر المستشرقين الذين كتبوا في التصوف - ان رابعة العدوية صاحبة نظرية في الحب الالهي ..

انه يقول « وكان تهمسها لحياة الزهد مؤديا الى معالجة احوال صوفية مختلفة ، والى البحث في فروض دقيقة في العلميات والعقائد »

واختلف معه الاستاذ مصطفى عبد الرازق .. فهو يرى « ان من التعسف ان ننسب الى رابعة العدوية التصدي لدقائق المسائل الفقهية والكلامية والصوفية » .

وقد وقع نفس الاختلاف بين الدكتور عبد الرحمن بدوي والدكتور عبد القادر محمود حول رابعة العدوية ، كتب عنها الدكتور بدوي في كتابه « شهيدة العشق الالهي » ونقد الكتاب د. عبد القادر محمود ونفى عنها المسحة الاسطورية التي التصقت بها ..

والمشهور عند كثير من القدماء والمحدثين أن رابعة العدوية هي واضعة مذهب الحب الإلهي في التصوف الإسلامي ، وقد بين د. عبد القادر محمود تهاافت هذا الرأي ، وذهب إلى أنها مجرد امتداد لنظرية الحب الخالص التي تطورت من مدرسة جعفر الصادق ، وبهذى من النص للمسيحي .

ولو نظرنا في نقد د. عبد القادر محمود لكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي « شهيدة العشيق » ، فسوف تكتمل أمامنا الصورة الحقيقية لرابعة العدوية .

ربط الدكتور بدوي تجربة رابعة الروحية نحو الله بثلاثة عناصر .

أولها الندم من حياة الشهوات ، وثانيها حضورها مجالس الوعظ وخاصة الزاهد العالم الحسن البصري ، والواقع أنها لم تلتق به ، وقد ماد الدكتور بدوي فذكر هذا صحيحا ، وثالث العناصر اليأس من الدنيا ، ولا شك أنها عاشت مع قول إبراهيم بن أدهم المعاصر لها « الحر من خرج من الدنيا قبل أن يخرج منها » . . ويؤكد الدكتور بدوي أنه لا مقياس لمعرفة تطور توبتها سوى درجة حرارة التضرع من حين إلى حين فيما حكاها العطار .

ويعتبر الدكتور بدوي نبرة الضراعة العنيفة دليلا يؤكد أن فترة ضلالها أيام كانت تعزف على الناي لشهوات الجسد هي العامل الأوحد في تكييف النظرية الصوفية عند رابعة ، وهي النظرة التي تحولت إلى حب للذات الله لا طمعا في ثواب أو خوفا من عقاب . .

ونحن مع الدكتور عبد القادر محمود في أن توكيد نبرة الضراعة كمقياس لدى الدكتور بدوي يؤكد لنا عدم كفايته كدليل وحيد في تكييف النظرية الصوفية لدى رابعة .

هذا دليل يحتاج إلى حجج قوية من آراء رابعة التي كان أدق ما في تراثها موضع شك في صحة نسبته إليها ، وكان غيره جملا رائعة من النجوم المنيرة والعبون النائمة ، سوى عين يقظى وقلب ساهر قلق جزوع . فإذا عدنا إلى العطار على رغمنا مرة أخرى ، فإننا نجده يشر مشكلة

لدى « ماسينيون » ، مشكلة يربط فيها بين العلاج ورابعة .

يقول المطار في تذكرة الأولياء ان رابعة العدوية كانت بسبيل الحج ، فرأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء فقالت : لا أريد الكعبة ، بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها .

قام الدكتور بدوى بالتعليق على هذه الحادثة التى يرويها المطار فقال « ليس بمستبعد أن تكون صحيحة » ومن المعروف أن هذا هو رأى العلاج ، وقد كان سببا فى تكفيره ثم صلبه قال العلاج « ان شوقنا الى الله يجب أن يمحو عقليا فى نفوسنا صورة الكعبة ، كيما نجد من أقامها ، وأن نحطم ممبد بدننا كيما نبلغ من جاء اليه ليتحدث الى بنى الإنسان »

ويمضى الدكتور بدوى فيقول ( ولعل هذا قد بلغ أوجه فيما رواه ابن تيمية حين قال « قال على الحريرى ، قيل عن رابعة أنها حجت فقالت هذا « أى البيت الحرام » الصنم المعبود فى الأرض ، وأنه ما ولجّه الله ولا خلا منه » ، يقول الدكتور بدوى « وهذا يؤيد الرواية التى ذكرها المطار ، وفيه من الجراءة فى التعبير قدر هائل يدل على أى مدى بلغه فكر رابعة من جسارة لا نجد لها نظيرا فى هذا القرن ولا القرن الذى يليه عند الصوفية ، فهى ترى أن فى الكعبة صنما ، وفى التبرك بها وثنية ، وليس بين هذا وبين أن تعلن سقوط التكاليف الظاهرية فى الحياة الدنيا الا خطوة واحدة » .

يرى الدكتور عبد القادر محمّود أن الدكتور بدوى قد أسرف فى حكمه ، وأعطى لرابعة بمقارنتها بالعلاج مكانا ليس لها ، فبعد أن قال عن حكاية الكعبة التى رأتها رابعة العدوية وهى قادمة نحوها ، أنه ليس بمستبعد أن تكون هذه الحادثة صحيحة ، بعد هذا الفخ الذى وقع فيه الدكتور بدوى ، أجرى المقارنة بين رابعة والعلاج ، وراها استأذة للعلاج فى أخطر آرائه ، ووقف مع رأى المطار ، وهو ليس مؤرخا ولا عالما ، وكتابه يمتلىء بالأساطير والخرافات ..

ويفسر الدكتور عبد القادر محمّود هذا كله بذكر الحقائق التالية ،

توفي المطار سنة ٥٨٦ هجرية ، وهو تلميذ لمدرسة الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هجرية ، وكل ما كتبه المطار مصدره عصره والمصر الذي قبله ، ولما كانت روايات المطار من رابعة ، وخاصة في نظرية تحطيم الوثنية في صنم الكعبة لمباداة رب الكعبة ، لما كانت هذه الرواية لم ترد الا مع المطار ، والمطار تلميذ في مدرسة الحلاج ، فمن المؤكد انه خلع عليها شيئا من هذه الرواية او اعطاها نسبا منها ، لان رابعة من الناحية الموضوعية لا تصل في ثقافتها الى هذه النظرة ، خاصة وان ادق مانسب اليها في نظرية الحب الخالص مشكوك في صحة نسبته اليها ، وما اورده المطار وغيره من احاديث وقصص عباداتها يؤكد انها كانت لا تنقطع عن الصلاة ، فكيف نقيم لها نظرية او مطلع نظرية في اسقاط التكاليف الشرعية ..

من الصعب ان يكون هذا رأيها .. اما عند الحلاج فهو تخريج لراى القرامطة الذين اعدوا قصة الفيل في محاولتهم هدم الكعبة في صورة متطورة ..

يقول ذ. عبد القادر محمود « لو سرتنا وراء امثال هذه الروايات التي اوردها المطار وتبعه المستشرقون وغير المستشرقين ، لوجدنا انفسنا ونحن في القرن العشرين وقد عدنا الى عقلية ما قبل القرن العاشر والحادي عشر الميلادى في نظرتنا النقدية غير السليمة .. ولو سايرنا هذا المنطق لجاز لنا ان نقول ان رابعة في نظريتها في الحب الخالص الذى لا يطمع في ثواب او يرهب عقابا تصل بنا لا محالة الى القول بعدم اهمية التكاليف الشرعية التى هى في نظر الوصوليين او العوام سلم الوصول الى الجنة والبعد عن النار ، ولكان من الجائز ان تكفر ونقول انه ليس من الضروري الاعتماد عليها في طريق الوصول ، ولكننا لن نساير هذا المنطق ، ولن نجدف وراءه في اعطاء رابعة ما ليس لها وما لا يجوز ان ينسب اليها ، لان بيئتها الثقافية والاجتماعية والنفسية وحياتها الماضية لا يمكن بحال من الاحوال ان تعطينا امثال هذه الاتجاهات التى اكدها الاستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى في كتابه الممتاز من رابعة المدوية ، ونسب اليها ما اعطاه للحلاج في تعليقاته على ما كتبه « ماسينيون » عنه .

.....

القضية إذا ان الدكتور بدوى يحمل فكر رابعة العدوية ما لا يحتمله .. ويرى انها كانت صاحبة نظرية في الحب الالهى ، وصاحبة رأى في التكاليف الشرعية ، واستاذه للحلاج في أخطر آرائه التى كانت سببا في اتهامه بالكفر وقتله .. ويعتقد الدكتور عبد القادر محمود ان هذا كله غير صحيح ، لان الدليل على أن رابعة كانت تعتبر الكعبة وثنا ، هو مجرد كلام قيل عنها أو حكى عنها ، وهو كلام لا يصدقه عقل ، مثل أن ترى رابعة الكعبة وهى قادمة نحوها ، فتقول أنها لا تريدها وتريد رب الكعبة ..

ونحن مع رأى الدكتور محمود رغم احترامنا للدكتور بدوى .. فمن الصعب علينا أن نقيم بناء كاملا لنظرية فلسفية على حكاية خرافية حكاها واحد على لسان رابعة العدوية .. حكاية من الصعب أن تقنع طفلا ..

ان الكعبة بناء مثبت فى الأرض ، فهل يمكن بناء نظرية على أساس ان هذا البناء الثابت قد ذهب يهرول سعيًا نحو امسرة صوفية ؟ ان محاولات هدم الكعبة قديمة ، وهى جزء من محاولات هدم الاسلام ، وإذا كان امره قد ايد حين حاول هدم الكعبة بجيشه الجبار ، فقد ظلت المحاولات مستمرة من أعداء الاسلام ، وليس بمستبعد أن يكون هذا القول مدسوسا على رابعة العدوية ..

القول بأن الكعبة جاءت تمشي ..

والدليل على براءة رابعة من هذا القول ما رواه ابن تيمية عنها .. فالمعروف عن ابن تيمية أنه من أعداء الصوفية ، وقد كان موقفه حاسما فيما رواه العطار عن رابعة العدوية .

قال ابن تيمية « ان رابعة كانت من التقوى بحيث لا يصدر عنها هذا ، ولو قال هذا أحد لكان كافرا يستتاب ، فان تاب ، والا قتل ، وهو كذب ، فان البيت لا يعبد المسلمون ، ولكن يعبدون رب البيت بالطواف به والصلاة فيه ، أما ما نقل من قولها ( والله ما ولجته الله ولا خلا منه ) فكلام باطل عليها » ..



والحقيقة ان الصورة التى يرسمها الدكتور بدوى لرابعة العدوية ، ليست هى حجمها الحقيقى ، فهو يعتبرها أول من تعرض بالنقد للمفاهيم الحسية التى فهمها العامة لبعض آيات القرآن .. فقد سمعت قارئا يقرأ قوله تعالى « ان اصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون » فقالت مساكين اهل الجنة .. فى شغل هم وازواجهم ، ويرى الدكتور بدوى ان ضمير رابعة قد امتنع من هذا المعنى الحسى ، وهى التى ارتفع عندها معنى الجنة الى أعلى درجات الروحية ، ويعتقد انها رمت من وراء هذا النقد ، الى الارتفاع بمستوى الحياة الدينية ومعانى القرآن والاسلام الى أعلى درجة من الروحية » ..

وفى رأينا ان الدكتور بدوى لم يفهم كلمة رابعة العدوية ، فليس فى الكلمة نقد للمعنى الحسى « استخدم الدكتور بدوى كلمة « المعنى الشهوانى » .. لان الجنة ليست هى الأرض ، والناس حين يبعثون يوم القيامة ويدخلون الجنة لا يدخلونها بنفس حواسهم وشهواتهم الارضية ، وكل ما ورد عن الجنة فى القرآن غيب ، يتحدث الله تبارك وتعالى من لحم الطير والازواج والاعناب والنخيل ، ولكن حقيقة هذا كله غيب ، وصلته بما على الأرض من متع هو الآخر غيب ..

ولو صدقنا ان رابعة العدوية يمكن ان تقول عبارتها التى اوردها الدكتور بدوى ، فلا ريب أنها تعنى شيئا يختلف كل الاختلاف عن نقد الحياة الحسية فى الجنة ، لان الحياة فى الجنة غيب مجهول ، واى مسلم يعرف عقيدته يعرف ان فى الجنة نعيم لا يقاس به نعيم الأرض ، أما حقيقة هذا النعيم فمجهولة تماما ، والمجهول لا يمكن ان يخضع للنقد .. ولا يمكن بالتالى ان تعتبر رابعة العدوية أول ناقدة لنعيم الجنة الحسى .. ويبدو رأى الدكتور بدوى متضاربا حين ينفى عن رابعة محاولات الطعن او الانحراف بالاسلام ، فى نفس الوقت الذى يجعلها فى كتابه جرشة جراحة لا نظير لها فى هذا القرن ولا الذى يليه . فليس بينها وبين ان تعلن سقوط التكاليف الشرعية الا خطوة واحدة .

يرفض الدكتور عبد القادر محمود ، كما يرفض الاستاذ مصطفى عبد الرازق هذه الاسطورة التى يتم بناؤها حول رابعة العدوية .. ويرى

كلاهما ان من التصنف ان ينسب اليها التصدى لمعالجة دقائق المسائل  
الفقهية والكلامية والصوفية والنظريات الفلسفية كأستاذة لمدرسة  
الحلاج ..

وهذا هو الراى الذى تهدى اليه الأدلة ويستريح اليه العقل ..  
ولو افترضنا جدلا انها قالت ما رواه العطار عن حكاية الكعبة التى  
شاهدتها تمشى نحوها ..

لو افترضنا جدلا انها قالت انها لا تريد الكعبة ولكنها تريد رب  
الكعبة ، فهل يمكن تحميل هذا المعنى على أساس انه بناء لنظرية جديدة  
هدفها اسقاط التكليف ، أم أن الاولى أن يحصل على انه تعبیر فنى  
لشاعرة تحمل طبيعة فنية ، ان اقوال الشعراء ليست هى الحقيقة المادية  
.. انما هى تصور الشاعر ورؤياه الخاصة .. وقد اشار القرآن الكريم  
الى أن الشعراء يقولون مالا يفعلون ، بمعنى انهم لا يصورون الواقع ، ولا  
يصفونه ، ويبالغون مبالغات فنية لا يمكن قياسها على الحقيقة ، وهناك  
شاعر يقول :

**إذا بلغ الرضيع لنا قطاما      تخثر له الجبابر ساجدينا**

فهل يصدق احد أن طفلا فطمته أمه ، يمكن أن تخثر له الجبابرة  
ساجدة !؟

ان الرؤى الشعرية للشعراء لا يمكن قبولها بمنطق الحياة الواقعية ،  
انما هى تعبیر عن رؤيا فنية أو رموز لصور أو مشاعر يريد الشاعر التعبير  
عنها ..

بهذا المنطق يستقيم الامر ، وتبدو رابعة العدوية بصورتها الحقيقية ،  
شاعرة صوفية وتائية محبة لله عز وجل .. كانت لها آراؤها التى لاتصلح  
ان تكون أساسا للمذهب متكامل فى التصوف الاسلامى ..

عاشت رابعة العدوية فى القرن الثانى من الهجرة ، وماتت فى اخريات  
هذا القرن ، كما يرجحه أكثر من كتبوا سيرتها ..

وقد كانت في رأى كثير من الدارسين القدامى والمحدثين علامة هامة من علامات الطريق الصوفى .

كتب عنها صاحب كتاب « مرآة الجنان وعبرة اليقظان » .. السيدة الولىة ذات المقامات العلية والاحوال السنية ..

ويقول عنها ابن خلكان « كانت من اعيان عصرها واخبارها في الصلاح مشهورة » ومن المدهش ، او غلغل ان من الطبيعي اننا لا نعرف شيئا مؤكدا عن حياة رابعة العدوية ، قبل ان تكون صوفية ، فلم يعن المؤرخون الا بهذا الجانب من حياتها ، وهو الجانب الصوفى ..

ومن المؤكد انها لم تولد صوفية ، لان المرء لا يولد صوفيا ، انما اكتسبت التصوف من طريق تجاربها الروحية ..

وهكذا سلب القدماء الاضواء على حياتها الصوفية ، وبقي الجزء الاعظم من حياتها غارقا في الظلام ..

وفي الظلام عادة تسمى الخرافة .. والاسطورة .. والمعجالب .. وهذا ما وقع لرابعة ..

ان ما ينسب اليها من عجائب اشبه بالخرافات منه بالحقائق ، وقد تداخلت الروايات عن حياتها وتضاربت الاقوال عنها حتى اختلفوا في ابسط تفاصيل الحياة والموت المتعلقة بها ..

ذكر ابن خلكان ان قبرها يزار ، فهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يقال له الطور ، وانكر ياقوت الحموى ان يكون هذا قبر رابعة العدوية ، وقال ان قبرها بالبصرة ، اما هذا القبر الذى يشير اليه ابن خلكان فهو قبر امرأة اخرى تسمى رابعة ، كانت زوجة احمد بن ابي الحوارى الكاتب ، وقد اشتبه الامر على الناس .

امتد الاختلاف الى حياتها ايضا كما امتد لمكان قبرها ..

قيل انها تابت على يد ذى النون المصرى .. فقد كانت تركب سفينة مع جماعة يشربون الخمر فاتفق ركوب ذى النون المصرى ( المتوفى ٢٤٥

هجرية ( هذه السفينة ، وطلبت رابعة من ذى النون على سبيل التهكم ان يسممهم شيئا من غنائه كما اسمعوه فانشد ابياتا ركيكة ثابت بعدها رابعة المدوية على يديه ، وقد انكر المؤرخون هذه القصة لبعده المصريين رابعة وذى النون .. ورجحوا ان تكون القصة موضوعة ومختلقة .. فنحن لا نعرف ان رابعة المدوية زادت مصر ، وان كانت الاساطير قد ابتدعت لها قبرا بقرافة الامام يزار ويتبرك به ..

الشيء المتواتر عنها انها كادت تفنى فى سفن البصرة وتشرب الخمر ، وقد وقع هذا قبل توبتها ، ويذكر ماسينيون عن رابعة المدوية ان والى البصرة خطبها ، فلما دخل عليها قالت له « يا شهوانى اطلب شهوائية مثلك » ..

يريد ان يقول ان رابعة المدوية اكرت على والى البصرة وغبته فى زواجها لانها اشتمت منها اثرا من آثار الاشتناء ..

والقصة موضوعة ومختلقة ، فلم يكن والى البصرة بالذى يرضى ان يخطب امرأة تفنى فى مراكب الخليج وتشرب الخمر ، ولم يكن منطقيا من هذه المرأة ان تنكر الشهوات وهى غارقة فيها لاذنيها ..

نريد ان نقول ان الاساطير والروايات لم تترك رابعة المدوية فى حالها، انما نسجت حولها ركاما من الاحداث ، حتى اختلط الصدق بالكذب ، والحقيقة بالخرافة ، وصار من المتعذر ان تكتشف الحقيقة الموضوعية او شيئا يقترب من الحقيقة الموضوعية ..

كل ما نعرفه ان حياتها قسمان ..

قسم قبل التوبة .. كانت فيه ماكانته ..

وقسم بعد التوبة .. صارت فيه عاشقة لله عز وجل ..

وقد اخطا كثير من الباحثين فى رابعة المدوية ، رغم ان هؤلاء الباحثين كانوا اصحاب عقول محترمة ..

مثلا .. ذكر الاستاذ ماسينيون عنها ان حماسها لحياة الزهد أدى بها الى معالجة احوال صوفية مختلفة ، والى البحث في فروض دقيقة في العمليات والعقائد ، وبهذا تعتبر رابعة عند الباحثين في أمور الولاية والاولياء اعظم ولية .

وهذا الراى الذى يراه ماسينيون لا يمكن قبوله على علاقه ..

وهناك اكثر من سبب لذلك ..

ان التصوف كان في بداية نموه ، ولم يكن معقولا ان تقفز رابعة العدوية فجأة الى معالجة احوال صوفية مختلفة ، او البحث في فروض دقيقة في العبادات والعقائد ..

هذا سبب مانع في حد ذاته ..

وثمة سبب ابلغ في الدلالة على المنع ، وهو ان الآثار التى تركتها رابعة العدوية لا تدل مطلقا على انها عالجت احوالا صوفية او بحثت في فروض العقائد والعبادات ..

هذا اعتساف واضح وتحميل كلامها معان يتواء تحت ثقلها ..

ولننظر في أبيات رابعة العدوية التى اشتهرت بها .. « احبك حبين » لنرى هل يمكن ان تحمل هذه الأبيات الشعرية الأربعة مذهبا من مذاهب التصوف ، أو نظرية من نظريات العبادات مثلا ..

تقول هذه الأبيات ان رابعة تحب الله تعالى حبين ..

حب الهوى ، أو الحب البشرى ..

وحب آخر لانه سبحانه أهل لهذا الحب ، يستحقه ابتداء سبحانه .

وتشرح حبها البشرى فتقول لنا ان حبها البشرى هو انشغالها بالله عن سواه ..

اما حبها الالهى لله فتفهمنا ان هذا هو كشف الحجب لها حتى تراه سبحانه ..

ثم تستطرد في تواضع فتقول انها لا تحمد على حبها هذا او ذاك ،

فان الله تعالى هو وحده المستحق للحمد في ذا وذاكا ..

ونأمل الايات بطلعنا على حقيقة جوهريّة ..

لسنا امام نوعين من الحب ..

نحن امام نوع واحد من الحب ، وان كان يأخذ صورتين هما في حقيقتهم صورة واحدة ..

فهى مشغولة بالله عن سواه ..

وهى تقف امام الحجب المكشوفة لتراه ..

ليس هناك حب بشرى وحب الهى ..

هناك حبها وحده الله ..

الصورة واحدة ، ولكنها على عادة الشعراء تبالغ في تجسيم حبها ، وتراه في مرآة العبقريّة ، فاذا نحن امام اكثر من صورة لها ..

وليس هناك في الحقيقة غير صورة واحدة ..

ايضا لا تكشف الايات عن مذهب فلسفى كامل في التصوف ، ولا تكشف عن معالجة فروض دقيقة في امور العبادات والعقائد ..

انما تكشف الايات عن وهج عاشقة وشاعرة في ذات الوقت ..

وقد انكر معظم الباحثين المعاصرين رأى ماسينيون كالدكتور مصطفى عبد الرازق والدكتور عبد القادر محمود والدكتور مصطفى الشيبى ..

بل اننا لو تعمقنا البحث نسوف نكتشف ان هذه الايات ذاتها ، والتي يدور حولها الحديث في محاولة لتحديد حقيقة تصوفها ، منسوبة اليها ، يقول الكلاباذى ان هذه الايات لمجهول ، وليست لرابعة العدوية ، ويذكر الزبيدى ان هذه الايات الشعرية تنسب لسفيان الثوري كما نسب لعبد الواحد بن زيد ، ومعنى هذا في رأى الدكتور عبد القادر محمود ان الايات التى تتضمن رأيها في الحب مشكوك في صحة نسبتها اليها ، بدليل شك الكلاباذى ، وعدم التفات الطوسى الى ذلك ..

كل ما يمكن قوله عنها انها كانت اول من استعمل كلمة الحب في  
العشق الالهى دون تهيب .. معتمدة على ورود كلمة الحب في القرآن ..  
وكان من قبلها يتخرجون من كلمة الحب في هذا المقام ..

وهذا رأى ماسينيون .. وهو رأى نعتقد في وجاعته ، فقد تميزت  
رابعة بكلامها في المحبة ..

وكانت من طائفة المسافرين الى ربهم .. كانت من الذين قعدوا على  
الحقائق وقعد من سواهم على الرسوم ، وكان عنوان طريقها هو الحب ،  
والمحبة دليل على صدق دموها ..

ولفظة الحب في اللغة العربية تدور حول خمسة معان ..

١ - الصفاء والبياض .. يقول العرب حبيب الاسنان اذا ارادوا وصفها  
بالبياض والصفاء ..

٢ - العلو والظهور .. ومنه حبيب الماء وحبابه وهو ما يملوه عند المطر  
الشديد ..

٣ - اللزوم والثبات ، وفيه يقول العرب حب البعير واحب اذا برك  
فلم يقم ..

٤ - اللب .. ومنه حبة القلب اى عمقه الداخلى ولبه .. ومنه الحبة  
الواحدة ومجموعها الحب ، والحبة هى اصل الشيء ومادته وقوامه .

٥ - الحفظ والامساك ، يقول العرب احب الوعاء الماء اى امسكه  
وحفظه ..

وتعريف الحب عند العرب ينطوى على هذه المعانى الخمسة ..

فالحب عندهم هو صفاء المودة ، وعلو ارادة القلب لتطلقها بالمحبيب ،  
وثبات ارادة القلب على المحبوب ، واعطاء المحب محبويه اشرف ما عنده  
وهو الحب او اللب ، وحفظ هذا التوجه على المحبوب ..

هذا رأى ابن قيم الجوزية في معنى المحبة ومنزلتها من التصوف ..

وعلى ايام رابعة العدوية .. لم يكن التصوف قد خرج من سداجنه الى التعميد الفلسفى وصار مذاهب او نظريات .. كان التصوف لم يزل فى بدايته ، وجاءت كلمات رابعة العدوية نقطا مضيئة من النور لا يجمعها خيط واحد سوى هذا الاستيلاء الكامل لفكرة الحب الالهى عليها ..

كانت شان اى فنانة تشق طريقها فى الصخر ..

وكانت كلماتها تحمل عبق الفن والتوهج .. وتنوء باحزان غامضة كانت هى المناخ العام السائد ايامها فى المجتمع ..

لقد راينا كيف تحول المسلمون الى الفتنة ، وكيف سار الى الشهادة ازكى الرجال وارقمهم نفسا .. وراينا كيف ارتفعت السيوف وهوت فى العالم العربى وهى تشق قلب البراءة ..

وصنعت الاحزان خيمة على الشيعة وشواهم من المسلمين ، وكانت رابعة تبكى فى جوف الليل تحت خيمة الاحزان ..

سئلت عن حقيقة ايمانها فقالت :

**ما عبده خوفا من ناره ولا حبا لجنته بل عبده حبا له وشوقا اليه ..**

قال الشعرانى : كانت رضى الله عنها كثيرة البكاء والحزن ..

وقد راينا بدايات الشيعة والزاهدين وكيف شربت من امطار الحزن ودموع الاشفاق ..

وفى عصر رابعة العدوية .. وهو نهاية القرن الثانى للهجرة ، كان الاسلام قد انتشر وخفقت رايته فوق ثلث العالم ..

ولكن الاسلام نفسه كان ينسحب من نفوس الرجال والنساء فى نفس الوقت الذى كان ينتشر فيه فى الأرض ..

وكان هنالك نموذجان اسلاميان يومئذ ..

**نموذج يعبد الله خوفا من النار ..**

**سبب العبادة هو الخوف من دخول النار ..**



ولم يستطع هذا النموذج احتواء مشاعرها المتوهجة .. لأن الخوف  
لا يشير في الفنان أكثر من الرفض والتحدى ..

وكان هناك نموذج آخر يعبد الله طمعا في الجنة ..

وكان المجتمع الاسلامى يومئذ قد رفع قيمة الطمع سواء في ذلك  
الطمع في الرئاسة أو الحكم ، أو الطمع فيما عند الله ..

ولم يستطع هذا النموذج احتواء مشاعرها كفنائة .. فالطمع لا يشير  
في الفنان أكثر من الرفض والاستعلاء ..

وإذا لا يبغى امامها الا ان تشق مجراها الجديد ..

لن تعبد الله خوفا .. ولن تعبد طمعا ..

هذه تصرفات الاجير الخائف أو الاجير الطامع ..

تريد ان تملو على النموذجين التقليديين الدائعين في المجتمع ..

واختارت ما يختاره اى انسان يملك طبيعة فنية ..

انها تحب الله لانيها تحب الله ..

لا تخاف النار ولا تطمع في الجنة ..

بمة درجة اعلى فوق هاتين الدرجتين ..

الحب الخالص الذى يصعب على المحب فيه ان يتنفس ..

.....

كان عندها احد الصوفية يوما فقال : واحزنه .

وردت عليه رابعة العدوية مؤتبة : لا تكذب وقل واقلة حزنه ، لو

كنت محزوناً لم ينتهيا لك ان تنفس ..

.....

لو توقفنا قليلا عند تصور رابعة العدوية للحزن .. فسوف نفهم انها

كانت امرأة من طبيعة خاصة ..

طبيعة فنية خاصة .. أنها تفهم الحزن فلا تراه هذه الكآبة التي تنتشر على سطح النفس وتجعل الانسان هادئا صامتا منزويا ..

انما تنظر الى الحزن فتراه في ابعاد اعماقه .. شيئا هائلا يمنع الانسان من التنفس ..

هذا الغلو في الحزن يتفق مع غلوها في الحب .

ويفترض كثير من الدارسين ان كلاهما في الحب الالهى يستمد اصوله من المسيحية ، وهناك نص خطير للسيد المسيح تداولته امهات كتب الصوفية يدور معناه حول المعنى الذى اوردته الايات المنسوبة اليها في الحب الالهى ..

ولست ميالا لهذا الراى ، لان تشابه نظرة واحدة من الصوفية مع كلام السيد المسيح ( لو افترضنا صحة نسبته اليه ) تشابه النظرتين لا يعنى ان احدهما اخذ من الآخر ..

والاصح هنا ان يقال ان الاثنين يستمدان من مصدر اصيل ..

والمسيحية التى انزلت على عيسى عليه الصلاة والسلام هى الاسلام الذى انزل على محمد عليه الصلاة والسلام هى اليهودية التى انزلت على موسى عليه الصلاة والسلام .. ( ان الدين عند الله الاسلام ) بمعنى ان جوهر الأديان جميعا هو التوحيد ..

وفى هذا ليس هناك اى خلاف بين دين الهى وآخر ..

وفهم الانسان لدوره فى الحياة وضآلته امام الكون والله يقودانه الى ادراك عظمة الخالق وضعف المخلوق ..

ولا يملك الضعف امام العظمة سوى الحب .. اذا اراد ان يتخلى عن الخوف والطمع ..

كان الحب هو الطريق الوحيد امام رابعة المدوية .. بسبب طبيعتها

الخاصة المتأججة ، وظروف حياتها القاسية ..

ولا اتصور انها تأثرت بالمسيحية لان الاسلام والمسيحية يتشابهان في اصل العقائد كما أزلت من الله لا كما صارت اليه عند البشر ..

كل ما في الامر ان رابعة العدوية — بقطرة الفنان — أدركت ان الخوف من النار فقط أهانة لعظمة الانسان .. والطمع في الجنة فقط سوء تقدير لعظمة الخالق ..

هذه اشياء .. الجنة والنار شيان ..

وهي لا تريد ان تتطلع الى الاشياء ..

انما هي تريد .. من « ليس كمثله شيء » ..

وهي لا تخاف ولا تطمع انما تحب ..

والحب هو المجال الوحيد الذي يدع لعظمة الانسان قدرها من التواضع ويدع لعظمة الله قدرها من السمو والتعالى ..

أثارت اربعة أبيات . منسوبة لرابعة العدوية ، كثيرا من الجدل والخلاف ، ورأى فيها بعض المستشرقين نظرية جديدة في التصوف الاسلامي ..

وسوف نلتقي في بحار الصوفية بأبيات شعر عديدة ، وشعراء كثيرين ، وأدباء وكتاب ، ومن المدهش ، انه رغم مرور عشرة قرون أو أكثر على بدء الصوفية وتطورها ، لم ينظر أحد من الباحثين الى الصوفي بأعباره فنانا .

انما كانت النظرة الى الصوفي دائما تعتبره رجل دين فحسب ..

رق تصويرى ان هذا ظلم للصوفية ورجالها ..

وسوف اشرح تصويرى هذا وأقدم أدلتى عليه ..

ان الصوفي انسان .. والانسان هو المخلوق الوحيد الذي يروعه الفرق بين الاشياء كما هي ، والاشياء كما ينبغي ان تكون .. ومن هذا

**الحنين للكمال يولد الفن .. والصوفي فنان بمعنى البحث عن الكمال ..**

وليس فنانا بالمعنى المعتاد للفن ، أو المعنى المتبدل للكلمة ، وبهذا المنطق يخرج الفن الذى يرتبط بالفرار أو يثيرها من أجل الكسب ، ويخرج أداء الأعمال الفنية ، ويخرج الامتناع والتسرية ، تخرج كل هذه الأنواع وأمثالها من نطاق المعنى الذى أقصده ..

انما أقصد بالفن ابداع العقل الانسانى فى مجال الكتابة والشعر .. ونحن نعرف ان الكتابة والشعر تعبيران .. وكون الفن تعبيراً لا يعنى انه تعبير مبسط عن المشاعر والأحاسيس فقط ..

انما نقصد هنا كل أدب أو شعر رفيع يثرى قارئه ويزيد من تجربته ويسمو بمشاعره ويطهره كما يقول أرسطو .

**والفن امر بالغ التعقيد كالانسان .. والانسان هو أكثر مخلوقات الله تركيباً وتعقيداً ، وليس خلقه بهذا الشكل الا دليلاً على عظمة خالقه وقدرته سبحانه ، والفن موهبة يمنحها الله تعالى للانسان .. لحكمة يدريها هو سبحانه ، ويشبه الفنان رجلاً دخل حجرة مظلمة .. حجرة لا يبدو فيها شيء ولا يظهر منها شيء .. ثم استطاع هذا الرجل ان يدير مفتاح النور ..**

**حين تسبح الحجرة فى الضوء يتغير منظرها على الفور .. تظهر فيها اشياء لم تكن ظاهرة ، ويتضح فيها ما كان خافياً ..**

يشبه الفن هذه القدرة على اضاءة النور .. سواء كان النور داخلنا او داخل الآخرين او فى الحياة او فى الكون ..

ان اضاءة النور تعنى اسدال الستار على الظلام ، تعنى اطلاق طاقة الكهرباء ، والكهرباء طاقة ، ولكنها مجهولة تماماً ، يدرس العلماء آلاف الحقائق عن الضوء ، ولكن أحداً من البشر لا يعرف سر الضوء .. ذلك العلم من شؤون الخالق القوى العزيز الممتنع .

والفن سر يتوصل به الانسان الى الكشف عن مصدر الطاقة .. وضاءة الحياة .. وحين نقرا ونعرف يتسع وعينا للتجربة ، ونرى

افضل مما كنا نرى ..

وهناك فرق بين الرؤية الفنية والرؤية العادية ..

هو نفس الفرق بين العصفور والدودة .. والعصفور والدودة كلاهما خلق من خلق الله تعالى .. ولكن الدودة تسير على الأرض ، او تسير تحت سطح الأرض ، تصنع لنفسها انفاقا في طين الأرض وتسير .. أما العصفور فيملك القدرة على الطيران والتحليق .. ويملك القدرة على ان يرى مساحة اكبر مما تراه الدودة .. ولا فضل للعصفور على الدودة .. فلا الدودة هي التي خلقت نفسها ملتصقة بالأرض ، ولا العصفور خالق نفسه قادراً على الطيران ..

الفضل هنا او هناك منسوب للحق .. عز وجل ..

والسر في خلق الدودة دودة ، وفي خلق العصفور عصفورا .. هذا السر من اسرار الحق عز وجل ..

والفرق بين الرؤية العادية والرؤية الفنية هو الفرق بين رؤية الدودة ورؤية العصفور ..

يعيش معظم النوع الانساني وذهنه مغموس في مشاكل اللحظة الحاضرة ، ومتاعب الحياة اليومية .. لا يرى الا حاجات جسده ومشاكل نفسه .. وتجيء لحظة حاسمة ..

فينسحب هذا الانسان من كهفه الطيني ويطلع وينظر ..

ان الرؤية الصوفية تتم حين يزاول الانسان نظرة عصفورية على الحياة ، أي حين ينسحب منها ولو للحظة واحدة ، فيرى منها قدرا اكبر ، بدلا من بقاءه محصورا ضمن البؤرة الضيقة ، بؤرة نظراته الدودية للأشياء ..

وهذه الرؤية هي نفسها الرؤية الشعرية او الادبية ..

وليس الفرق بين تراث الانسانية الادبي والغنى وتراثها المعتاد غير

الفرق بين النظرة المصفورية والنظرة الدودية ..  
والصوفية هم الذين يملكون القدرة على الطيران والتحليق ورؤية الحقيقة ..

والشاعر أو الكاتب العظيم يملك نفس القدرة على التحليق ، ورؤية مساحة أكبر من الحقيقة ..

وليست مصادفة ان معظم الصوفية شعراء وكاتب ..  
وميزة الكاتب العظيم حقا هي قدرة عقله على الوثوب من مستويات الانسان العادى ، وادراك القيم الشاملة ..

وحين يختزن الكاتب تجربة ما .. ويشبثها في ذهنه أو روحه ، ويميد خلقها من جديد بأسلوب وشكل وتعبير يختلف عن التجربة ، حين يقع هذا للكاتب يقع مثله للصوفى ..

ان تجارب القرب من الله عز وجل تختزن .. ويجهى التعبير عنها في الشعر الصوفى .. يجهى التعبير عنها ، أو عن المعادل الموضوعى لها ، فاذا نحن امام تجربة جديدة ، ليست هي الصورة الفوتوغرافية للتجربة الاصلية ، انما امام اضافة جديدة كل الجودة ..

ولو سألنا عن هدف الأدب والفن .. فسوف نتلقى عشرات الاجوبة ، ربما كان افضلها هو تأكيد الوعي الانسانى ، واثراء تجاربه ، واهصافه الجمال الى الحياة ، والبحث عن الحقيقة ..

وتختلف الحقيقة عند الكاتب والشعراء ، تبعا لاختلاف حقلوظهم من العظمة ، وكلما ارتقى الانسان أدرك ان الحقيقة هي الله .

وكلما زادت عظمة الانسان أدرك ان الله هو الخير المطلق والحق المطلق والجمال اللانهائى وذلك هدف الآداب الرفيعة والشعر العظيم . .

ومن الصعب ان تجد مفكرا رفيعا أو كاتباً انسانيا أو شاعرا كبيرا فد انصرف عن البحث عن الحقيقة ..

الادب العظيم يبحث عن الحقيقة ..  
وكلما ارتقى الفنان الكاتب اقترب من الله عز وجل .. وكلما اقترب  
تحير وزادت دهشته وسجلت روحه ..  
في الصوفية شعراء وفنانون يكابدون تجاربهم الروحية وهم يسعون  
سعيًا إلى الله ..

**كيف ننظر إلى تراثهم في الشعر ..**

**هل نعتبره فنا .. أم نعتبره دينًا ..**

لكي نجيب على هذا السؤال سوف نضرب المثال التالي :  
نفترض أن شاعرا قرا القرآن ، وأعجبه أحد المعاني في إحدى  
الآيات ، وصاغ هذا المعنى شعرا .. كيف ننظر إلى هذا الشعر .. هل  
نعتبره قرآنا لأن فيه جزءا من معاني القرآن ، أم نعتبره فنا ونلحقه  
بالشعر ونناقشه على هذا الأساس ..

**إن الإجابة على هذا السؤال هي التي ستحدد نظرنا إلى شعر  
الصوفية وآدابهم والجواب بسيط رغم خطورة الآثار المترتبة عليه .**

من الصعب أن نعتبر أي شعر عن القرآن قرآنا .. لأن القرآن قرآن  
والشعر شعر ، وليس القرآن شعرا كما قال مشركو مكة أو منافقو  
المدينة ، ويجب أن يناقش هذا الشاعر الذي صاغ معنى من معاني آية  
قرآنية ، يجب أن يناقش باعتباره شاعرا لا باعتباره رجل دين ، ولا يجوز  
أن نستنبط من هذا الشعر حكما شرعيا ، إنما يستنبط الحكم الشرعي من  
النص القرآني الأصلي ، كما أننا لا يمكن أن نتعبد بقراءة هذا الشعر ،  
وإنما يجوز التعبد بقراءة الآيات القرآنية ذاتها ..

نمضي في مثالنا إلى مرحلة أبعد ..

نفترض أن هذا الشاعر الذي قرا القرآن ، وأعجبه معنى من معاني  
آياته . وقرر أن يصوغها شعرا ، لنفترض أنه لم يكتب المعنى القرآني  
تماما - وإنما راد فيه قليلا ، وأضاف عليه من خياله ، وتحديث من تجربة

سابقة له تؤكد ما يقوله ..

هل يناقش شعره على انه شعر رجل دين ، او يناقش على اساس  
انه شعر متصل بمعنى ديني .. ولكنه في نهاية الامر شعر ..

.....

نريد ان ننظر في شعر الصوفية ونناقشه بهذا المنطق ..

انه شعر متصل بالدين .. وليس شعرا لرجال الدين ..

والفرق بين المعنيين خطير ..

والسر في كل المنازعات التي وقعت بين الصوفية انفسهم او بينهم  
وبين غيرهم .. هو ان الناس اعتبروا شعراء الصوفية رجال دين يقولون  
الشعر ، ولم يعتبروهم شعراء يتحدثون في الدين .. وبسبب هذه  
النظرة الخاطئة قتل الناس شعراء صوفيين بتهمة الزندقة والالحاد ..  
وكانت تهمتهم الحقيقية هي اتساع الخيال وغرابته وعمق التجربة  
وتوهجها ..

كما انه بسبب هذه النظرة اتهم رجال بما يخالف حقيقتهم ، لان  
الناس نظرت في شعرهم وادبهم واعتبرته ديناً وحاكمتهم على انه دين ،  
امام قضاة من رجال الدين ، وكان المفروض ان يحاكموا على انه شعر ،  
امام قضاة من النقاد والشعراء .

ان الدين معروف عند الله .. وهو الاسلام .. اسلام الانسان ذاته  
له . ويدرك المسلمون ان دينهم يضمه كتاب هو القرآن .. والقرآن هو  
الكتاب الوحيد الذي ينمى على التغيير والتبديل والمحو والاضافة والنقد  
والمناقشة .. اما غيره من الكتب فتخضع لما تخضع له الكتب من نقد  
وتحليل واطافة وتبديل ومناقشة ..

وبهذا المنطق سننظر في الشعر الصوفي ..

ان الشعر الصوفي رؤية شعرية اولا .. وصوفية ثانيا ..

فن شكله الخارجى هو الشعر ..



### ومضمونه الداخلى هو الحب الالهى .

وهذا الفن ينبع من فنان هو الصوفى ، وتجربة الصوفى رؤية ، وهى حال تعثره ، ويصل اليها بالرياضات الروحية والاعتزال والتجارب والتخليق ، وثمة تجربة غنية تجرى فى دماء روحه ..

والتعبير عن هذه التجربة تم بالشعر ..

جوهر المعنى رؤية ، بينما الشكل الخارجى فنى ..

ثمة مساحة من الفن فى الرؤية وفى الشكل الخارجى ..

والصوفى فنان له رؤياه الدينية ..

وليس كل فنان صوفيا .. الا اذا بلغ درجة من الجدارة والتعمق الدينى .. واى رؤية صوفية ليست دينيا ملزما ، ولا يجوز ان تكون ، ولا يصح ان تعامل معاملة الدين .

وسننظر فى الشعر الصوفى بهذا المنطق .

ما هو رأى نيكولسون فى الشعر الصوفى ؟

ان رايه كان فحاً عقليا منصوبا دخله كثير من الدارسين فى التصوف .. وسنرى ان رأى نيكولسون هو رأى تقليدى اعتبر الصوفية رجال دين أولا ، وناقش شعرهم بعد فصله عن الشعر ، والحاقه بالدين ، ولست اتهم احدا بسوء النويه ، ونحن الاسلام مد انكبه هذا الخلط الذى يضيف اليه ما ليس منه ، كما انهكته الحرب بين الصوفية والفقهاء ، كما انهكته الخلافات بين الصوفية ذاتهم .. والحرب والخلافات اصلا مفتعلة ، لان الصوفية انفسهم يقولون انهم اصحاب احوال لا اصحاب اقوال .. وهذا يعنى انهم اصحاب تجارب روحية ، ورؤى خاصة ، ولهم فنههم الخاص . ومن الخطا اضافة هذه الرؤى الخاصة للاسلام او مناقشتها كجزء من الاسلام ، الاسلام واضح بين له كتابه ، وفى المسلمين فنانون كبار . عبروا عن انفسهم شعرا ونثرا .. ومنهم من تاه وشطح ، واطافة كل مناهات الصوفيه وشطحاتهم الى الاسلام ، لا يمكن ان تكون صداقة للاسلام .

هذا عداء مستتر يختبئ في ظل بحث علمي رصين ..

يعترف نيكولسون في مقاله عن الشعر الصوفي « انه ليس بين الأشياء التي ابتدعها الصوفية لتحريك وجدانهم الديني ما هو أقوى من « السماع » أي الاستماع الى الموسيقى والغناء ، وفي أخبار الصوفية حكايات تربو على الحصر ، وتقص علينا كيف كانت تغتري الواحد منهم حالة الجذب عند سماع بضعة أبيات من الشعر تتغنى بها إحدى الجوارى ، وقد كان ذلك الشعر عادة من شعر الغزل غير الصوفي ، وكثيرا ما يتشابه النوعان في الظاهر ، الى حد أننا اذا لم نقف بطريقة ما على غرض الشاعر ، لا نستطيع التمييز بين قصيدتين احدهما يغنى صاحبها بالحب الانساني والاخرى بالحب الالهي » .

يريد نيكولسون ان يقول هاتين الحقيقتين :

١ - ان الصوفية متصلون بأهل الغناء لانهم أهل سماع .. أي أنهم متصلون بأهل فن الشعر والغناء والموسيقى .

٢ - ان الشعر الصوفي يتشابه مع الشعر غير الصوفي ، الى الحد الذي يصعب فيه على عقل ناضج مثل نيكولسون ان يفرق بينهما ..

بعد هاتين الحقيقتين ينكر نيكولسون ان يكون الشعر الصوفي وليدا لوعي فني أدبي .. رغم ما في قصائده من جمال النظم ورقة الأسلوب وأناقته ..

ونحسب ان هذا الحكم غير صحيح ..

ولو مضينا مع منطق الباحث نفسه فسوف ننتهي الى عكس النتيجة التي انتهى اليها ..

ان الصوفية يحبون السماع ، وهم متصلون بأهل الغناء والشعر ، وشعر الصوفيين الذي يمتلىء بالغزل يشبه شعر غير الصوفيين في مجال الغزل .. ومن الصعب التفرقة بينهما ..

كيف لا يكون الشعر الصوفي وليدا لوعي فني وأدبي هو بالقطع وليد وعي فني يقع في مجال الرؤية الدينية ..

هو فن ديني .. فن نبع من تائر المسلم الشاعر بالدين ، ولكنه ليس ديناً وليس فيه وحى كما يقول نيكولسون .

يعمل نيكولسون الى القول بأن قصائد الصوفية « وضرب مثلاً بجلال الدين الرومى وابن الفارض وابن عربى » كانت نتيجة لوحى احوال الوجد الصوفى .. وانها تشابه فى مرف. علم النفس الحديث ما يسمونه « الكتابة الآلية » ومن خصائص هذه القصائد الغريبة ان أوزانها وأنفامها وأساليبها الرمزية ، كل هذه عوامل تساعد على انتقال احوال الوجد التى يشعر بها الشاعر الصوفى الى سامعيه ، ويزداد الرها فى السامع اذا انشدت ، كما تنشأ عادة ، فى حفلات الذكر مصحوباً بالموسيقى .. »

هذا رأى نيكولسون ، وهو رأى نعارضه لسببين :

١ - ان مسألة وحى احوال الوجد الصوفى هى نفسها حالات الالهام والاشتغال التى تعتري الكاتب أو الشاعر حين يريد أن يعبر بالشعر أو الكتابة .

٢ - ان تحديد خصائص القصائد الصوفية بانها تنقل احوال الوجد الى السامعين ، هو وصف ينطبق على الشعر عموماً ، والأصل فى الشعر أن ينقل حال الشاعر ووجدته واحتراقه الى السامعين .

وذلك اسلوب الفن وبغير هذه القدرة لا يكون الفن فناً ، او يكون ادعاء لصفة الفن دون حقيقته ..

اعلى طراز من الفنانين اذا هم الصوفية ..

وهم ارفع النماذج لان فنهم يتصل بالحقيقة المطلقة الخالدة .. فهم اهل بحث عن الله ..

اهل حب لله ..

وشأنهم شأن أى فنان يعبر عن حبه ان شعراً او نثراً ..

.....

اذا اتفقنا ان الصوفى فنان يجهده البحث عن الكمال الأعلى ، أى الله

عز وجل وإذا اتفقنا أن الصوفي يعبر عن شوقه إلى الحق تعبيراً تدخل فيه الصور الأدبية كالنثر والشعر ، إذا اتفقنا على ذلك ، فما هو حظ الصوفية من الفلسفة ..

سنعثر في عالم التصوف على فلاسفة ، وسنعثر في بحار الصوفية على أعداء الداء للفلسفة ، رغم أن فيهم فلاسفة بمعنى البحث عن حقائق الأشياء وحكمتها .. وسنعثر في الصوفية على عقليات ناقدة استوفت حظها من معرفة أصول النقد ودقائقه . رغم هذا كله ..

فليس هنالك قانون عام أو قاعدة عامة يمكن تطبيقها على جميع الصوفية .. حتى كلمة الفن — بمعناها الرفيع الذي احترناه — لا يمكن إطلاقها عليهم بشكل عام .. فكل واحد فيهم نسيج وحده ..

وكل واحد فيهم فنان بمعنى من المعاني غير المألوفة أو المتعارفة .. والفلاسفة فيهم ليسوا فلاسفة بالمعنى التقليدي للكلمة ، بالعكس .. أن فيهم من يردى ثياب الفلسفة ويمسك أسلحتها لضرب الفلسفة التقليدية وهزيمتها ..

ولو تأملنا ثلاثة نماذج للصوفية لأدركنا المعنى الذي نقصده ..

أن الفزالي .. وجلال الدين الرومي .. والحلاج ثلاثة نماذج من الصوفية .. وهب الله تبارك وتعالى كل واحد من الثلاثة موهبة البحث عن الحقيقة الإلهية .. ورغم أنهم جميعاً صوفيون ، إلا أن كل واحد فيهم يختلف عن الآخر بشكل محدود وواضح ..

عرف الفزالي باسم حجة الإسلام ، لأنه استخدم عقله الناقد الجبار في ضرب الفلاسفة وعلماء الكلام والانتصار للتصوف السني القائم على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

أما جلال الدين الرومي فيسمونه شاعر الصوفية الأكبر لأن موهبته كشاعر قد استخدمت في التفتي بالحب الإلهي استخداماً بالغ الروعة .

أما الحلاج فقد قادته موهبته إلى شطحات أنهت حياته بالقتل .. واستندت على اسمه أكثر من تهمة اقلاها الزندقة ..

## وللثلاثة انتاجهم من الكتابة والشعر ..

كان الغزالي عالما وكاتباً حمل لواء الدعوة لحقائق الاسلام ..  
وكان الرومي والحلاج شاعرين تغنيا بالحب الالهى ، على اختلاف في  
درجة الوهبة ومضمون الفن .  
يقول الصوفية عن انفسهم انهم ارباب احوال وليسوا اصحاب  
اقوال ..

ومعنى العبارة - طبقاً لرؤيتهم - انهم لا يريدون ان يحاسبوا على  
اقوالهم ، وانما على احوالهم .. من معانى العبارة ايضاً - طبقاً لرؤيتنا -  
انهم يريدون تفى صفة الفن عنهم .. والايجاء بأنهم لم يقصدوا بكلامهم ان  
يتكلموا فحسب كما يفعل الفنانون ، وانما كان كلامهم تعبيراً عن احوال  
وتجارب تدور حولها ..

وهذا كله مفهوم ومقبول ..

وربما كان الفرق الناعم الرفيع بين الصوفى والفنان ان الصوفى اذا  
تكلم فانه يتكلم غير قاصد انتاج الفن ..  
اما الفنان فيقصد انتاج الفن .

عدم اتجاه القصد الى انتاج الفن يبدع فنا لا مثيل له .. تماماً مثلما  
تفيض احدى ازهار الفل بعطرها دون ان تقصد او تريد ..  
هذه العفوية هي التي جعلت من تراث الصوفية الادبى والشعرى فنا  
لا يقارن به شعر او ادب آخر ..

واذا كان الفنان يرفض ان يستسلم وينحرف لتطلبات الحياة اليومية ،  
بغية اكتشاف حقيقة اعلى ، فان الصوفى يفعل اكثر من ذلك بهدف  
اكتشاف نوع اكثف من التجربة الروحية ..

والانسان يعيش عادة في الحياة مشدوداً لاهداف معينة ، واحياناً  
تسجن الاهداف المادية الانسان داخلها ، وهذا هو السير في الحياة على غير  
هدى ، حتى لو كان الانسان يحقق اهدافه في الثراء او السلطان او السيطرة

.. هذا كله - رغم النجاح المادى - سير فى الحياة على غير هدى ..

وفى اللحظة التى يقنع الانسان وعيه بالتوقف عن السير على غير هدى .. فى اللحظة التى يدرك فيها الانسان ان الحياة ليست هى الانحصار فى الوجود المادى .. وليست هى ذاته ومتطلبات هذه الذات .. فى اللحظة التى يتخلى فيها الانسان عن نفسه ، ويوجه عقله نحو اوسع معنى ممكن لتجربة الحياة ..

فى هذه اللحظة يولد الفنان .. ويبدأ انتاج الفن ..

اذا ادرك الفنان انه ينتج الفن بهدف انتاج الفن .. فنحن لم نزل فى منطقة الفن ..

اما اذا تجاوز الوعى الفنى ذاته متوجها الى الله تعالى .. فنحن ندخل بحار التصوف ..

وهى بحار تتجاوز فيها التجربة الفنية حدود الحياة المادية كما تتجاوز حدود التجربة الانسانية ، فى محاولة للاتصال بخالق الحياة والتجربة سبحانه وتعالى .

ولهذا السر .. سوف نجد فى الشعر الصوفى مذاقا ليس له وجود فى شعر الغزل ..

وليس صحيحا ما يقوله نيكولسون ان الشعر الصوفى والشعر الغزلى يتشابهان الى الحد الذى يجعل التمييز بينهما صعبا ، الا اذا وقفنا على فرض الشاعر .. ليس هذا صحيحا ..

الصحيح ان بينهما فروقا جوهرية .. وهى فروق يخفيها شكل القصيدة ولكن مضمونها يكشف عنها من القراءة الاولى ..

ان الشاعر الذى يتفزل فى امرأة او يصنف صورة حلوة من صور الوجود الانسانى ، ينفصل عن المرأة او الصورة ليعبر عنهما ، وانفصاله لازم لانتاج الفن ، اما الصوفى الذى يعبر بالشعر عن تجربة ما .. فانه يتصل بالاشياء اتصالا شامضا ، ويتخلص من اواصر نفسه بهذا الاتصال .

وعلى حين يتفصل الفنان عن ذاته ليؤكد ذاته .. يتفصل الصوفي عن ذاته لتأكيد حقيقة أكبر من ذاته ..

وهذا التجريد يجعل الشعر الصوفي صعبا وغامضا ورمزيا ..

وصحيح أن الشاعر والصوفي الشاعر يستخدمان أحيانا نفس المصطلحات .. كالخمر .. والشعلة .. والجمال .. والحسن .. والكأس .. والحبيب .. هذا صحيح ..

ولكن .. نحن نعرف أن اللغة الانسانية اشارة الى شيء ..

وعلى حين يشير الشاعر لشيء .. يشير الصوفي لمن ليس كمثله شيء .. هذا الفرق يجعل شعر الصوفية فنا ليس له مثيل ..

يقول محمود شبستري ..

الخمر والشعلة والجمال كلها للحق مجال ..

هو الظاهر في جميع الصور ..

الخمر والشعلة للعارف جذبة ونور ..

فأشهد الجمال غيب الخفى على احد ..

يريد الشاعر الصوفي أن يقول أن كل ما في الوجود من جمال .. هو مجال لتجلي الحق بالجمال .. هو الظاهر في جميع الصور .. كل ألوان الحسن تستمد الجمال منه .. هو سبحانه وتعالى الذي يوصف بالكمال الأعلى ، وهو سبحانه الذي يضيئ على الجمال حظه من الجمال :

الخمر والشعلة والجمال كلها حضور ..

فاحذر الإهمال في معانقة هذا الجمال ..

واشرب خمر الفناء لعلها في لحظة ..

تخلصك من أواصر النفس ..

## اشرب الخمر فكاسها وجه الحبيب ..

يتحدث الشاعر الصوفي في هذه الأبيات عن حضور الخالق سبحانه وتعالى في كل مجالات الجمال ..

ويتجاوز الشاعر الصور الى المصور المبارىء ..

ويحاول أن يتصل بما لا يمكن الاتصال به ونحن أحياء .. ولهذا يشرب الشاعر خمر الفناء والمحو .. اذا تخلص من أواصر نفسه فهذا معناه أنه في الطريق الصحيح الى الله ..

وهذا الفناء عن الذات وتأكيد الحق .. هو جوهر التجربة الصوفية . وليس للشاعر الصوفي صلة مباشرة بالفلسفة وان بدا أحيانا وهو يتدثر بثياب الفلسفة ، انما يدع الشاعر الصوفي قلبه يفيض بالمعاني المتعلقة بذلك الحب القاهر ، لأن الحب هو الأساس الحقيقي الذي قامت عليه الحياة وانسجم به ميزان الكون ..

.....

يقوم الفكر الصوفي على أساس فكرة الحب ..

حب الله تعالى للانسان .. وحب الانسان لله عز وجل .. وقديما طرح السؤال الأزلى ..

## لماذا خلق الله العالم ، وهو سبحانه ليس محتاجا الى العالم ؟

اختلفت اجابات السؤال عند افراد النوع البشري ، ولم يناقش السؤال كثير من الناس ، وان خطر على قلوبهم ، وظل السؤال يتنقل من عقل الى عقل .. حتى وصل الى الصوفية .

واحال الصوفية السؤال الى القلوب قالوا ان ادراك سر خلق العالم ، وهو شيء كلى ، ادراك ذلك بعقل الانسان الجزئى أمر مستحيل ..

هذا السؤال ليس في قدرة العقل او تخصصه أن يجيب عليه ، هذا اختصاص القلوب ..

ان الله تبارك وتعالى ليس محتاجا الى العالم ، ورغم ذلك خلق العالم



لماذا خلقه ان لم يكن هذا الخلق فيضا من فيوض الحب الالهي والرحمة ..

يورد القرآن الكريم نصا فيه اجابة على سؤال خلق العالم ..

يقول تعالى :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما اريد منهم من رزق

وما اريد ان يطعمون » ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

تحدد الآية الكريمة هدف الخليقة بالعبادة ..

عبادة الله تعالى ..

اليس شرفا أن يأذن الله لمخلوقات من تراب او نار بان تعبد سبحانه ،

اليس تشريفا لتراب أن يرتفع ل مقام الحب ..

ان عبادة الله تعالى تعنى الحب والطاعة ، اذا نظرنا اليها من جانب

الانسان ، فاذا نظرنا اليها من جانب آخر ، كانت مجدا حقيقيا للانسان .

او بعبارة اصح .. هي المجد الحقيقي الوحيد .. وما عداه وهم

وصور .. مثلما أن الله هو الموجود الحق ، وما عداه صور تظهر ثم

تموت ..

يدرك الصوفي أن الله تعالى خلق الانسان لانه يحب الانسان ولهذا يبدأ

سباحته في بحار الحب الالهي على الفور ..

يقول جلال الدين الرومي ..

ها هو .. قد طلع بدرا لم تر السماء له نظيرا في حلم او يقظة وحوله

هالة من النار الابدية لا يقوى اى طوفان على اخمادها يا رب .. لقد

اسكرتني خمر حبك وتهدم كل شيء في بيت جسمي الطيني لقد عمل الحب

بيده القوية في هدم بيوت الظلام من سفنها الى ارضها .. فلا يتسرب اليها

الا بصيص من الاشعة الذهبية خلال الشقوق ..

وحين لاحظت لقلبي لجة الحب .. القى قلبي بنفسه فيها .. وسمعت

« لن تراني » .

لا اريد ان اعقب بشيء على ابيات شاعر الصوفية الاكبر .. اى تعليق عليها يفسدها .. نحن امام عطر يتصاعد اريجته من زهور الحب .. وهو عطر لا يمكن تفسيره الا اذا اعترفنا ان الحب هو سر الوجود وعلته الاولى عند الصوفية ..

يقول عبد الرحمن جامى ..

« فى الوحدة ، حيث الوجود الموحش ، وحيث العالم سر فى باطن الحق محتجب باستار العدم ، كان « الوجود المطلق » المنزه عن « انا » و « انت » وعن كل اثنينية ، لم يكن ذلك الجمال معروفا الا لذاته ، تجلى لنفسه فى نفسه بنوره الأزلئ ، وفيه من القوى ما يبهز العقول جميعا .

ولكن الجمال يابى البقاء مختفيا ، لا تراه عين ولا يسعد به قلب .  
لذلك فك عقاله وانطلق يفيض على الكون .. بصورة كل جميل .  
تلك طبيعة الجمال ، وذلك اصله ..

فاض على الوجود من عالم الطهر والصفاء ..

سطعت شمس على الاكوان وملأت ما فيها من النفوس ..  
كل ذرة فى الوجود مرآة تمكس صورته ..

تفتتح عنه الازهار .. وتشهد به الطيور ، ويستمد النور من ناره  
الصوء الذى يجلب الفراش الى اقداره ..

حذار ان نقول هو الجميل ونحن عشاقه .. فلست الا المرأة التى  
تنعكس عليها صورته ويرى فيها وجهه .

هو وحده الظاهر وانت الباطن ..

والحب المحض — كالجمال المحض — ليس الا منه ، وهو يتجلى لك  
فيك ، فاذا لم تستطع ان تنظر الى المرأة ، فاعلم انه هو المرأة أيضا ،  
هو الكنز وهو الخزانة .

اما « انا » و « وانت » فليس لهما محل هنالك ..

تلك اوهام خادعة لا حظ لها من الوجود .. »

يريد الشاعر الصوفي أن يقول أن كلمة « أنا » و « انت » ليس لهما محل هناك أو يريد أن يقول أن كلمة « أنا » و « انت » أوهام خادمة ولا حظ لها من الوجود .. أو يريد أن يقول أن الوجود الحقيقي هو الله ..

ويشير معظم شعر الصوفية في مضمونه لهذه الحقيقة الكبرى .. ورغم اتحاد الشعراء في المضمون إلا أن اختلافات الأحوال التي تتعاقب عليهم ، واختلاف حظهم من الحب والشوق والفناء والصحو وموهبة التعبير ذاتها يجعل شعرهم يختلف من حيث الشكل .

ومهما يكن من أمر فإن شعر الصوفية هو سر عظمة الآداب التي ينتمي إليها الصوفيون ..

يرى الباحثون أن الشعر الصوفي الفارسي هو سر عظمة الأدب الفارسي .. ويرون أن أجمل ما في الشعر العربي هو الشعر الصوفي ، أو يرون أن أرفع ما فيه هو الشعر الصوفي ..

ويدرس النقاد اشعار الصوفيين الفارسيين مثل أبي سميد بن أبي الخير ، واشعار فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي ، وعبد الرحمن جامي ، وفي اللغة العربية يرون أن قصائد ابن الفارض ترد في الطبقة الأولى منه ، وهناك قصائد ابن عربي التي يرى ثيولسون أنها تمتلئ بالجمال رغم امتلائها بالغموض .. أما الشعر التركي فأجمل ما فيه شعر النسيمي الذي كان من المعجبين بالحلاج ..

وأهم خصائص الشعر الصوفي هي أهم الفروق بين شعر الصوفية والشعر البحت ، أن مشكلة القضاء والقدر ، ومشكلة معنى الوجود ، ومشكلة الشر ، من المشاكل العويصة التي حار فيها الشعراء ، وهي في ذات الوقت من الأمور المحولة عند الصوفية ..

يرى الحيام بعد سياحته في الكون أنه قد عاد بجواب يمتلئ بالسخط . من الذي يخبره لماذا جاء إلى الحياة ، ومن أجل ماذا يفارقها ، من الذي يخبره من أين جاء وإلى أين سيذهب ، وما هي حال اللاهبيين يا ترى ، وأنت أيها الروح .. من أجل أي شيء سكنت في هذا البدن ، ما دمت تنوي

الرحيل على أية حال .. وماذا كان قصد من خلقتني وأحسن صورتي ثم  
القاني على المسرح الترابي ، لماذا يهلكني بعد ذلك ويفنيني ، كأنه الخراف  
يتناق في صنع القوارير ثم يضرب بها الأرض ..

وهذا الكون الشاسع ما بدؤه وما نهايته ، كيف شرع الفلك يدور  
كأنه الطاس الذهبي ، وكيف سيندثر وينهار كأنه البناء الشامخ .. الغاز  
وراء الغاز تحير فيها الخيام وطفئت حيرته في رباعياته ..

**جاء بي في البدء مضطرا الى دنيا التراب**

**حائرا ما ازددت فيها غير جهل واضطراب**

**ثم وليت برغمي .. غسر دار في أياي**

**لم قد كان مجيئي .. ومقامي .. وذهابي**

نحن أمام شاعر يسأل عن حكمة الوجود وسبب الخليقة .. ويتجاوز  
السؤال الى الشك في فائدة كل شيء ..

**ما افاد الفلك الدوار ربعا من حياتي**

**لا ولا زاد جمالا او جلالا بوفاتي**

**انا لم اسمع مدى عمري في دار الشتات**

**ما هو المقصود فيها من حياتي ومماتي**

لا يدرك عمر الخيام سر حياته ولا يعرف سرا لماته .. وهذه الحيرة  
تسلمه الى الخمر والشراب .. ويحتسى الخمر فيرى الدنيا من خلال كأسه  
.. فاذا بلفته انباء الدين الذي يأمر بالمسندل وينهى عن غياب العقل ،  
صاح الخيام ..

**ليست الدنيا مقاما لك او دار مثاب**

**فليب من غسلا فيها ولوعا بالشراب**

صب من ماء ابنة الكرم على نار الاسى

قبل ان تلقى وفي كفك ريح فى التراب

هذه المشكلة التى يحلها شاعر كعمر الخيام بالشراب والشك والاحساس  
بانه مجبور جاء رغم انفه ، مجبور سيمضى رغم انفه ، هذه المشكلة تأخذ  
شكلا آخر فى اشعار الصوفية ..

ان الحيرة عند الشعراء .. تتحول الى سلام عند الشعراء الصوفيين  
.. ليست هناك حيرة وتنافر ، ثمة انسجام ويقين ، فالصوفى يعلم انه لم  
يات مضطرا الى دنيا التراب ، انما جاء لحكمة عليا هى العبادة ، والعبادة  
حب لا يرى فيه المحبوب غير وجه الحبيب ..

والعبادة مجد لا يناله الا كبار العاشقين للحق ..

ومشكلة القضاء والقدر التى فتت فيها الخيام ذهنه محولة تماما عند  
شاعر كجلال الدين الرومى .. واسرار القدر المجهولة عند الشعراء معروفة  
عند الشعراء الصوفيين .. فبمقدار حب المرء لربه يكون علمه بأسرار  
القدر ، لان الحب اسطولا ب يكشف اسرار السماء ، وهو الكحل الذى  
تكتحل به عين القلب فينجلي بصرها كما يقول جلال الدين الرومى .

والحب عند الشعراء الصوفيين هو الذى يرينا الشر خيرا ، او على  
الاقل يرينا الشر شرطا أساسيا لظهور الخير ، كما يبين لنا ان الشر لا وجود  
له على الاطلاق فى نظر الله .. او بتحديد أدق .. ليس الشر امرا بغير  
حكمة ، وليس ظلما يعيب الكون ، انما وجوده سر لافهار الخير ، فعن طريق  
هزيمة الشر نصل الى الخير ..

الشر عند الصوفية طريق تسير فوقه نعالهم احتقارا له .. من أجل  
الوصول الى الخير ومن كمال الحب أن تتحسد ارادة المحب والمحبوب ،  
وبهذا يدوب الفرق بين الجبر والاختيار ، وهذا هو معنى القدر عندهم ..

يقول جلال الدين الرومى ..

« من أجل الحب كرهت كلمة الجبر .. فان الجبور لا حب له .. »

والحب الذى هو غاية القرب من الحق لا جبر فيه ..

هو ضوء شمس ساطع لا ظل سحابة قاتم ..

ليس معنى هذا ان قلق الشعراء وحيرتهم امر يفتقر اليه الشعراء الصوفيون .. وليس معنى هذا ان نظرهم الى الحياة وغرضها ليست ممقدة ولا مركبة وليس فيها هذا التركيب الفنى ..

هناك بناء بالغ التعقيد فى شعر الصوفية ، وهناك قلق وحيرة ، ولكن هذا كله يقود الى سلام نفسى عظيم .. يقود الى خمر الحقيقة المعنوية ..

يقول جلال الدين الرومى ..

مجهول انا عند نفسى .. بريك خبرنى ما العمل

لا الهلال ولا الصليب معبودى .. ولا انا كافر ولا يهودى

ولا فى الشرق ولا فى الغرب موطنى .. ولا لى قريب من ملاك ولا جن

ولا طينتى من تراب ولا ظل .. ولا صورتنى من ماء ولا زبد

ولا بالصين ولا بسقسين ولا ببلغار مولدى

ولا بالعراق ولا خراسان ولا الهند ذات الانهار الخمسة منبتى

ولا طردت من عدن ولا يزدان .. ولا من آدم اخذت نسبتي

بل من مقام رفيع المقام .. وطريق خفى المعالم

تجردت عن بدنى وروحي .. فمن جديد احيا فى روح محبوبى

ينكر الشاعر الصوفى ان ينسب نفسه الى الاماكن او الاشخاص او الصور او الأديان او العقائد او البلدان او الأنهار ويثبت نسبه متصلا بشئ واحد .. انه حيا فى روح محبوه ..

انه يحب الله تبارك وتعالى .. هذا نسبه الوحيد .. ولان الصوفى ينسب الى الحب الالهى ، نرى مشكلة الموت تأخذ حجمين مختلفين عند

الشعراء والشعراء الصوفيين ..

كان احساس الخيام بالموت يختلف كل الاختلاف عن احساس جلال الدين الرومي بالموت ..

وقف الخيام وسط حيرة قاتطة وقلق قاتل ، واذا الظلمة الوحشية تنكشف عن شبح هائل مروع ، يتعقد لرؤيته لسان الخيام ، ويسد عليه مسالك الحيلة ويتعطل التفكير .. شيء لا كالأشياء ، جبار مخوف يلتهم كل شيء .. هو الموت ..

يقول الاستاذ عبد الحق فاضل في دراسته الممتعة عن الخيام إن شبح الموت كان يتمثل لعينى الخيام حيثما التفت .. فهذا جسده كان طينا لأجساد الغابرين ، وسيصير طينا لأجساد الآتين ، وهذه حياتك ليست إلا موتا ، ففى كل ليلة يموت منها يوم .. وسوف تأكلك الأرض فيما بعد كما تأكلها اليوم ، فان كان غرك أنها لم تأكلك بعد فاصطبر ، فما فات الأوان ..

صار عقب الموت يفوح امام الخيام فى كل مكان وكل زمان وكل شيء ..

أصبح الخيام يرى الأجساد فى كل جماد ، يمشى على الأرض فيشفق ان يطا. العيون الناصبة والثغور اللعساء ، ويضع شفته على كأس الخمر الخزفية فيتوهم انه يقبل ترابا كان فى الاصل شفة كامب حسناء ، تكلمه وتذكره أنها كانت مثله ، ويرفع الخيام رأسه الى شرفات القصور فيرى فى لبناتها كف ملك أو رأس وزير ..

اذا وقعت عيناه على كوز خزفى قال انه انسان باعتباره ما كان ، واذا ابصر انسانا قال انه كوز باعتبار ما سيكون ، واذا شاهد الوجه الجميل تذكر انه سيدفن فى التراب فتنبو منه الزهور ، واذا نظر الى الزهور قال انها نبئت من الوجه الجميل . ورب طين يركله الانسان بقدمه فيسمعه الخيام يقول مستعظما « لقد كنت مثلك فارمنى وارفق بى » ، أو يسمع الطين يهدد الانسان قائلا « لا تركلنى فغدا تذوق الركل مثلى » ..

فيا ويح الخزافين يصفغون الطين ويلكمنونه غافلين ، وما يدرون انه  
تراب الادميين انظر الى هذه الوردة الرائعة ، تستيقظ مع الفجر وتقص  
حكاية لنسيم الصبا ، فما تكاد تتم حكايتها حتى تنتفض انتفاضة الموت  
وتهوى ، افهكذا في عشرة ايام فحسب ، تنشق برعما صغيرا حيبا كالطفل  
الوليد ، ثم تنمو كما تنمو الصبية الكاعب ، ثم تكتمل كما تكتمل الغادة  
الناهد ، ثم تموت .. يا لغدر الدهر ..

هذا موقف الشاعر من الموت ..

ما كره الخيام شيئا كما كره الموت ، ولا هاب شيئا كما هاب الموت  
ولا شغل فكره شيء كما شغله الموت ..

يقول الخيام ..

**حلت مشكلات الكون كلها**

**ووثبت من كل احوالة نصبتها الخداع لاقتناصي**

**وفضحت كل الأسرار ..**

**الا سر الموت ..**

وبسبب هذا الموقف من الموت ، وربما بسبب الموقف من الحياة ،  
تساءل الخيام عن جدوى الوجود بعد ان ذهب الشباب ، وحلت الاحزان .  
ويرى انه لم يبق الا الاسف على العمر الذي مضى عبثا كما تمضى ليله  
السكر ، ويصل الخيام الى اننا لعبة بيد الفلك ، لعب بنا برهة على مسرح  
الدهر ، في حياة كلها خيبة آمال وفنوط ، ثم جمعتنا يده الجبارة واحدا  
واحدا والقتنا في صندوق العدم ..

ليت الانسان يعود بعد دهور الى الحياة ، ولكن هيهات ..

.....

اذا كان الشعر البحث يقول عن الموت انه غدر الدهر .. فان الشعر  
الصوفي يرى في الموت رابا آخر .. ربما لانه يرى في الحياة رابا آخر ..



لا ينظر الشعراء الصوفي الى الموت هذه النظرة المتشائمة التي ينظر بها عامة الناس أو عامة الشعراء ..

ليس الموت عند الشعراء الصوفيين نهاية حياة سعيدة ، وإنما هو مقدمة حياة خالدة .. وبداية انطلاق أكبر في سلم الخليقة .. والعمران لا يكون إلا بعد خراب .. والكنز الثمين لا يستخرج إلا بعد حفر الأرض واثارتها ، فإذا رأيت بيتا يهدم ويخرب ، فاعلم أن هناك بناء جديدا ، وإذا رأيت أرضا تحفر فاعلم أن هناك كنزا وراء هذا النقص ، والشجرة لا تعطى الثمار إلا حين تتفتح وتسقط الأزهار .. وحين تسقط الأزهار وتموت تبدأ حياة الثمار الجديدة ، وكذلك الروح لا تقوى ولا تلبس كسوة جديدة حتى يتهدم الجسد الفاني ، ويخلع العمر البالي .. والله تعالى هو الجواد المطلق ، وهو لا يسلب نعمة إلا ويعطي نعمة أكبر منها فإذا سلب الحق تعالى الحياة الضعيفة السقيمة ، أعطى بدلا منها حياة أوسع وأبقى وأجمل وأرقى ..

يقول جلال الدين الرومي ..

« لماذا هذا الإشفاق من الموت ، ولماذا هذا الفرار من الأجل ، أنك لم تزل في انتقال من مرحلة الى مرحلة ، ومن عدم الى وجود ، ثم من وجود الى عدم ، ولم تزل تخلع لباسا وتلبس لباسا حتى وصلت من العناصر الأربعة الى القالب الانساني ، فإذا تشبثت بحالة وتمسكت بها ورفضت الانتقال منها الى حالة أخرى ، بقيت على بدايتك ، ولم تصل الى قمة الانسانية وذروة الكمالات الروحية والعلمية ..

ان الانسان لم ينل البقاء الا عن طريق الفناء ، فلماذا تفر يا هذا من الفناء الجعيد الذي هو مقدمة للبقاء الخالد .. ولماذا تتمسك بهذه الحياة وتلتصق بها مع أنها تخلق حياة لا زوال لها ولا خوف فيها ولا احزان بها ولا متاعب ..

ان هناك فرقا بين موت وموت .. فالعارفون لا يقاس موتهم على موت الجهلاء والعامة .. ان العارف لا يتوجع لفارقة هذه الحياة ولا يحزن ..

ان الموت عند العارفين نفحة حياة » ..

.....

اذا كان الموت يخيف الانسان لانه محو لذاته او فناء لها .. فان الصوفي يسمى خلال حياته لمحو ذاته وفنائه ..

وهكذا يهرب الانسان من الموت ، ويهرع الصوفي الى الموت .. وهكذا يقول الصوفيون في كلماتهم الفامضة الموحية ..

« موتوا قبل ان تموتوا » ..

فمن هذا الموت تولد الحياة الحقيقية

ويقصد الصوفيون بالموت هنا .. موت الرغبة في الدنيا .. وفي الخلائق والعلائق .. وفي كل السوى .. أى كل ما سوى الله عز وجل .. وفي هذه المرحلة ترد على الصوفي الكرامة ..

.....

والكرامة من المسائل التى تثير الخلاف عند خصوم الصوفيين وعند بعض أنصارهم ، يجحدها الخصوم وينكرها بعض الصوفيين أنفسهم والافضل أن ننظر فى موضوع الكرامات قبل أن نخوض فى بحار القوم ..

ها هو ابراهيم بن أدهم ..

صوفى كان يعيش كالموكل قبل أن ينطلق فى الصحراء بحثا عن الحقيقة .

تقدم الفقر واستولى على ملابسه وسيفه الذهب وعباءته المرصعة بالجواهر .. ولم يترك له الفقر غير رداء واحد من الصوف الخشن المزق .. ابراهيم بن أدهم جالس على شاطئ النهر وقد أخرج الإبرة والخيط ليخيط ثوبه المزق ..

ها هى الإبرة تنزلق من يده الى النهر ..

ضاعت وضاعت معها فرصته فى رتق ثوبه .. أى فقر بعد هذا ..

فى المشهد رجل يتأمل ما يجرى امامه .. كان هذا الرجل يعرف ابراهيم حين كان بالغ الثراء .. ويقول الرجل فى نفسه .

- سبحان معمر الاحوال .. كان ابراهيم غنيا وصار فقيرا يتمر الشفقة .. حين انتهى الرجل من الاعتراض في قلبه على حال ابراهيم بن ادهم .. نظر ابراهيم بن ادهم الى مياه النهر وقال ..  
- اين الابرة .

وعلى الفور خرجت من النهر الف سمكة ، كل سمكة في فمها ابرة من الذهب ..

قال ابراهيم : اريد ابرتي ..

وخرجت من النهر سمكة تمسك الابرة ..

وادرك الرجل الذي اعترض على فقر ابراهيم بن ادهم ، انه لم يكن يدرك الى اى حد بلغه ثراء ابراهيم بن ادهم .

هذه كرامة من كرامات ابراهيم بن ادهم ، وربما عثرت عليها منسوبة لصوفي غيره ..

وهذا الامر كثير الحدوث في الحياة الصوفية ، اعنى نسبة الكرامة الواحدة لاكثر من صوفى ، او ادعاء صدور الكلمة الواحدة من اكثر من صوفى ، ونحن نحسن الظن بأهل التصوف ، ونعتقد ان تلاميذهم هم المسئولون عن اضافة هذه الهالة عليهم .. سواء كانت الاضافة بحق او غير حق ..

وموضوع الكرامات هو الخطوة الثانية بعد موضوع المعجزات ..

والمعجزات تصدر من الانبياء ، اما الكرامات فتصدر من الاولياء ..

وموضوع المعجزات واضح ، والاصل في المعجزة انها امر خارق يامر الله تعالى بوقوعه على يدى نبي من الانبياء او رسول من الرسل ، لتصديقه واقامة الحجة على قومه .

وتختلف معجزات الانبياء من حيث نسبة الخوارق فيها ، في الانبياء من كانت معجزته طوفانا أغرق الكافرين ، وفي الانبياء من شق الله تعالى له البحر او احيا له الموتى ، وفي الانبياء من كانت معجزته ناقة ، وتترك

جميع معجزات الانبياء السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها مؤقتة بزمان معين ..

فشق البحر او احياء الموتى امران خارقان لم يعاصرهما غير اهل هذا الزمان البعيد .. على حين تنفرد معجزة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدوام .. فقد شاء الله تعالى ان تكون هذه المعجزة كتابا حفظه الله عز وجل من التدخل البشرى سواء بالاضافة او المحو او التبديل او التحريف ..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر الانبياء ..  
وكان عصره ايلانا بانتهاء المعجزات المادية المبهرة الخارقة ، وبدء لون جديد من عصور الرشد العقلى ..

وليست مصادفة ان تكون معجزة خاتم الانبياء كتابا يرفع قيم العقل والنظر العلمى ويسخر من المقلدين لما كان عليه آباؤهم ..

.....

**موقف الاسلام من المعجزات واضح ..**

اقر كتاب المسلمين الذى انزله الله كل معجزات الانبياء السابقين ..  
وصحح حقائقها واوردها كما وقعت بحق ..

بل ان هناك معجزات تسكت عنها الاناجيل والتوراة .. ولم يسكت عنها القرآن الكريم ..

ان عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام تكلم فى المهد ..  
تكلم بعد ولادته خرقا للقوانين الطبيعية التى تجمل الاطفال المولودين لا يستطيعون الكلام قبل سنتين تقريبا ..

لم تورد الاناجيل هذه المعجزة ..

سكتت تماما عنها واوردها القرآن فى سورة مريم .. فى موقف يؤكد ان اتهاما سحفا قد وجه الى مريم فرد عيسى على الفور ..

وكان الرد معجزة من عيسى .. يوصفه نبيا وكرامة لمريم بوصفها من اولياء الله ..

يقول تعالى في سورة مريم ..

« فانت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا اخت هرون ما كان أبوك أمرا سوء وما كانت أمك بغيا . فإشارت اليه قالوا كيف تكلم من كان في المهد صبيا . قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا .. »

قال عيسى ابن مريم ٣٢ كلمة وهو مولود ..

واثبت بكلماته أكثر من حقيقة ..

نسف الاتهام مريم الظالم بأنها بنى ..

واكد انه عبد الله الذى آتاه الكتاب وجعله نبيا مباركا وأوصاه بإقامة الشعائر ..

وأشار الى أن الله تبارك وتعالى قد جعل ميلاده وموته وبعثه سلاما عليه ..

هذه المعجزة تؤيد عيسى في دعوته الى الله ..

وهي معجزة علنية شهدها الذين اتهموا مريم وشهدوا الذين تجمعوا في هذا الموقف من الفضوليين وما أكثرهم ، وحكاها هؤلاء بعد ذلك ، وربما يكون هؤلاء قد أسدلوا عليها ستارا متعمدا من الصمت ، فلم يذكروها تحفيقا لمصالحهم الخاصة في الأفرادهم بالشرعية وكجزء من خطتهم في حرب هذا النبى الجديد ..

ولقد ذكر القرآن معجرات الانبياء ، كما أشار الى معجرات الأولياء وذكرها ..

ومن الأولياء الذين تحدث القرآن الكريم عن كراماتهم مريم ابنة عمران

التي احصنت فرجها فنفتح الله ثبارك وتعالى فيها من روحه .. وكان من كراماتها ما يحكيه القرآن عنها ..

**« كلما دخل عليها ذكرا الحراب وجد عندها رزقا » ..**

قال العلماء كان يجد فاكهة الشتاء عندها في الصيف ..

ومن الاولياء الذين يورد القرآن قصص ولايتهم هذا العبد الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما .. وهو العبد الذي يعتقد بعض العلماء انه الخضر ، ويختلف العلماء على درجته فمن قائل انه نبي ومن قائل انه عبد صالح من الاولياء ..

وقد سار هذا العبد مع موسى وعلمه من علمه ولم يصبر عليه موسى . من الاولياء الذين ورد ذكرهم في القرآن بغير اشارة لاسمائهم .. هذا الذي عنده علم من الكتاب ..

قال تعالى في سورة النمل ..

**« قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك واتى عليه لقوى امين . قال الذي عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني اأشكر ام أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم » ..**

نحن في مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام ..

يطلب سليمان احضار عرش ملكة سبا .. عفريت من الجن يتقدم لاحضاره ويحدد فترة من الوقت هي الفترة التي يستغرقها سليمان في مجلسه ..

**« قبل ان تقوم من مقامك » ..**

الفترة ساعة أو شيء بين الساعات ..

لم يرض سليمان عن هذه الفترة .. ربما اشاح بيده أو بدا من ملامح وجهه أن فترة احضار العرش طويلة ..

عندئذ تقدم واحد كان يحضر المجلس ..  
واحد لم يحدثنا القرآن الكريم عن اسمه ..  
اشار اليه القرآن اشارة تزيده غموضاً على غموض ..  
« قال الذى عنده علم من الكتاب » ..

من الذى قال ؟

ما هو هذا العلم ؟

ما هو هذا الكتاب ؟

ثلاثة أسئلة لم يجب عليها القرآن .. تخطاها عمداً .. ولحكمة الهية ..  
فالامر يتعلق بأمر خارق .. والجن قد عرض خدماته وسيحضر العرش  
في ساعة من مسافة تبعد خمسة آلاف كيلو متر « من فلسطين الى مملكة  
اليمن » .. ورفض سليمان هذه الخدمة رغم انها امر خارق ..

المطلوب شيء فوق طاقة الجن ..

من الذى يملك قدرات فوق قدرات الجن المسخر لسليمان .. لم يقل  
لنا الله تعالى ..

وسوف نلاحظ ان اولياء الله تعالى الذين اُشار اليهم القرآن ، قد  
اشار اليهم دون ذكر اسمائهم ..

اخفى اسماءهم تماماً ..

واخفى امكنة وجودهم ..

ودثرهم بسر خفى غامض ..

وليست هذه مصادفة ..

.....

أولياء الله الذين ورد ذكرهم في القرآن قليلون .. منهم ولي ورد ذكره في سورة الكهف ..

« فوجدنا عبدا من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلما من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن ما علمت رشدا . قال إنك إن تستطيع معي صبورا » ..

يعتقد بعض العلماء أن هذا العبد هو الخضر ..

ولو التصقنا بالقرآن الكريم كمدا ومنهاج .. فسوف نلاحظ أن الآيات قد اغفلت ذكر الاسم ..

وما يورده القرآن يورده لحكمة .. وما يسكت عنه يسكت عنه أيضا لحكمة « وسبحان الله عز وجل » ، والقرآن كنز من كنوز الحكمة ، ومعنى سكوت القرآن الكريم عن ذكر الاسم ، أن الله تعالى لا يريد أن يحدثنا من اسم هذا العبد . جعل الله تعالى اسم العبد سرا كعلم هذا العبد ..

وترك الفضول في هذا المجال من آداب العارفين بالله ..

ومن كمال السر الانسأل من هو هذا العبد الصالح ..

.....

أيضا يرد ذكر ولي آخر من أولياء الله في سورة النمل ..

« قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك » ..

يعتقد بعض العلماء أن هذا العبد هو آصف بن برخيا .. وقد استغفلت الأساطير الدينية موضوع الخضر فجعلته يعيش إلى يوم الساعة ، وجعلته يتأهل كثيرا من الصوفية ويجري معهم أحاديث ويحسدوهم ويحدثونه ، ولم تهمل الأساطير الدينية موضوع آصف بن برخيا . فجعلته طرفا في مسائل عديدة ، رغم أنه كان موجودا في زمن سليمان .. ونحن نأبى الدخول فيما لم يرد فيه نص ، كما نأبى أن نفهم فضولنا على قرآن الله ..

لقد تعمد القرآن الكريم أن يورد اشاره لهذا العبد الصالح دون أن



بذكر اسمه .. سكنت القرآن عن ذكر الاسم لنفس السبب الذى سكت فيه عن ذكر اسم العبد الذى صاحبه موسى ..

اتصلت قدرة العبد الذى يحضر مجلس سليمان مع علم العبد الذى صاحبه موسى ..

احدهما يملك قدرة تعجز عنها قدرة الجن ، والآخر يملك علما يعجز عنه صبر نبي من اولى العزم .

صاحب سليمان اوتى قدرة تتصل بأسرار الله عز وجل ..

وصاحب موسى يملك علما يتصل بأسرار الله عز وجل ..

نحن اذا نبحر في منطقة اسرار ..

ولهذا تختفى الوجوه وراء اقنعة واستار ..

ولهذا لا يورد القرآن أسماء الاولياء ..

اذا كنا لا نصدق فلنمضى مما في رحلتنا مع الاولياء الذين يورد القرآن لمحات من فصصهم ، سنلاحظ انهم يظهرون بغير اسماء ، أحيانا يصفهم المولى بصفات .. ولكن اسماءهم تظل سرا ..

اهل الكهف ..

ليسوا من اولياء الله الصالحين ..

انهم باتفاق العلماء ليسوا انبياء .. فهم فنية آمنوا بربهم .. وهم من آيات الله المعجب . وكرامتهم من الكرامات المدهشة في التاريخ البشرى .

« أم حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . اذ اوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لذك رحمة وهبنا لنا من امرنا رشدا » ..

لا يذكر القرآن أسماء هؤلاء الاولياء ..

وهو يتجاوز عددا عن ذكر اسمائهم لاتصال امرهم بآية من آيات الله المجيبة .. وهو لا يحدثنا في بداية القصة عن السبب الذى جعلهم يأوون

الى الكهف ، انما يبدأ قصتهم بدعائهم عند دخول الكهف ..

« ربنا آتنا من لعلك رحمة وهيب لنا من امرنا وشدا » ..

واضح انهم يسألون الله ان يفيض عليهم من رحمته .. وان يهيب لهم من امرهم وشدا .. نفهم انهم مقدمون على عمل خطير ويخشون مطاردة شيء بالغ القسوة ، وربما امتسدت يد هذا الشيء اليهم وعثرت عليهم في مكانهم .. لم يكذبوا دعائهم ينتهى حتى ضرب الله على آذانهم فناموا ..

ضرب الله على آذانهم ..

تأمل هذا التعبير باعجازه واسرارته .. نعلم الآن ان صلة النائم بالحياة واليقظة هي الأذن .. أى صوت يصل الى المخ من الأذن يوقظ النائم .. وأى ضوء يسقط على العين يترجم ويصل الى المخ فيوقظ النائم .. فإذا كنا أمام قوم ضرب الله على آذانهم فتحنا أمام ناس لن تستيقظ الا اذا ارتفع الحجاب المضروب على الأذن ..

« ففصرنا على آذانهم في الكهف سسنتين عددا » تم بعثناهم لنعلم أى

الحزين أحصى لما لبثوا أمدا » ..

استمر الحجاب على آذانهم سسین عددا . سمعوا فيما بعد من السياق القرآنى انها كانت ٣٠٩ سنوات ..

هل ينام ناس اكثر من ثلاثمائة عام .. لو نام الانسان اياما متتالية هلك من الجوع ..

لكن هؤلاء ناموا اكثر من ثلاثمائة عام واستيقظوا جائعين ..

ما هذا السر ..

كيف وقع ما وقع ..

نحن أمام سر هائل .. حياه ولا حياه .. موت ولا موت .. ناس نائمون ولبسوا نائمين ..

كيف دمت فلوبهم ٣٠٩ سنوات ، كيف تنفسوا طوال هذا الوقت ..

كيف أطاعت أجهزة أجسامهم هذه الفترة الطويلة واستمرت في العمل  
كان الثلاثمائة سنة ليل عادي واحد ..

نحن امام عمل الهى خارق .. امام كرامة من كرامات الاولياء .. ولم  
يحدثنا الله تعالى كيف ناموا هذه الفترة ثم استيقظوا بشكل عادي ..  
يتصل هذا الامر بمشيئة الله ..

لقد امر الله تعالى .. وانما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن  
فيكون ..

ما هي قصة اهل الكهف بالحق ؟

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم  
هدى . وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن  
ندعوا من دونه الها لقد قلنا اذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه الهة  
لولا ياتون عليهم ببسلطان بين فمن اظلم ممن اظلم على الله كلبا . واذ  
امتزلتهم وما يعبدون الا الله فالووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته  
ويهيئ لكم من امركم مرفقا » ..

هذه قصتهم بالتفصيل ..

بحكيها القرآن بالتفصيل ..

انهم فتية يعيشون وسط مجتمع كافر يعبد من دون الله عز وجل  
الهة متعددة ، ولا شك ان هذا المجتمع يريد ان يقهر هؤلاء الفتية على عبادة  
الآوتان والاصنام .. وربما اتهمهم المجتمع بالخروج على نظامه لانهم يعبدون  
الله ، لا حل امامهم غير الخروج والهجرة .. ولكنهم لا يعرفون اين يذهبون  
.. واحساسهم بانهم مطاردون امر واضح .. ويلجأون الى الكهف  
للاستتار والاختباء ريثما يفكرون .. دخلوا الكهف فناموا ..

ضرب الله على آذانهم فناموا .. ولعبت الشمس دورا في المعجزة ..

« ونرى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت  
تعرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله » ..

تحدثنا الآيات ان الضوء لم يكن يصل اليهم .. فقد كانت اشعة الشمس تتجنب الكهف وتميل عنهم في الشروق والغروب .. ولكي يبدد النص القرآني الغرابة التي يمكن ان تنشأ في النفس من هذا الأمر الخارق .. يضيف قوله : « ذلك من آيات الله .. »

لا غرابة اذا ما دام الأمر معلقا بآية من آيات الله ..

« من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » ..

يريد النص أن يقول أن هؤلاء الفتية من أوليائه المهتدين .. ولهذا وقعت لهم الكرامة .. بعد أن أزال النص كل سبب للدهشة ، ببيانه أن الأمر آية تقع لمن هداه الله وتولاه .. عاد النص يورد ما هو آدمي الى العجب ..

« وتحسبهم أيقاظا وهم رقود .. »

نظن انهم أحياء والحقيقة أنهم موتى ..

« ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » ..

رغم أنهم موتى الا أنهم يتقلبون .. وهم ليسوا موتى لأنهم يتقلبون .. وليسوا أحياء لأنهم لا يقومون .. وليسوا وحدهم في الكرامة الخارقة التي وقعت لهم فمعهم كلب ..

« وكتبهم باسط ذراعيه بالوصيد » ..

ان الكرامة التي وقعت للبشر .. وقعت لكلبهم الذي أحبهم وتبعهم الى الكهف .. وبهذا الحب للأولياء دخل الكلب تاريخ الكرامات كما دخلت نملة سليمان وناقة صالح وحوت يونس تاريخ المعجزات ..

ورغم أنهم رقود .. رغم أنهم لا يقومون كالموتى ويتقلبون كالأحياء ، رغم ذلك تطول لحامهم وأظافرهم بشكل مستمر .. ويتحول منظرهم الى شيء يخيف ..

« لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملت منهم رعبا » ..  
ومر الوقت ..

مرت ٣٠٩ سنوات ..

ثم بعثهم الله من هذا الموت المجيب الذى تعمل فيه اجهزة الجسم  
ويطول الشعر واللحية والافافر ..

بعثهم الله ليعلموا ان وعد الله حق .. يستخدم النص القرآنى لفظ  
« وكذلك بعثناهم » اشارة الى انهم كانوا موتى ..

ولقد تساءلوا حين بعثوا كم من الوقت مر عليهم وهم نيام ..  
« وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم . قال قائل منهم كم لبثتم . قالوا لبثنا  
يوما او بعض يوم ، قالوا ربكم اعلم بما لبثتم » ..

اتفقت الآراء انهم لبثوا يوما او جزءا من يوم .. ثم اختلفوا فى تحديد  
الوقت فارجموا الأمر الى الله .. وقالوا ان الله اعلم بما لبثوه .. أحسوا  
بالجوع فقرروا ارسال احدهم ليشترى لهم طعاما ، وأوصوه ان يتخفى  
حتى لا يقع فى قبضة السلطة الحاكمة الكافرة التى تهددهم بالقتل ..

« فابعثوا احدهم يورثكم ههنا الى المدينة فلينظر أيها اذكى طعاما  
فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم احدا . انهم ان يظهروا عليكم  
يرجموكم او يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا ! » ..

حتى الآن يخفى الله تعالى عن الفتية المطاردين حقيقة الوقت الذى لبثوه  
نائمين ..

كانوا يتصورون حتى هذه اللحظة انهم قضوا يوما او بعض يوم ..  
وكانوا يتصورون ان نقودهم وأوراقهم المالية تصلح لشراء طعام ، كانوا  
بجهلون مرور اكثر من ثلاثمائة سنة على نومهم ، وكانوا يجهلون ان نقودهم  
قد تحولت الى عملة اثرية ..

هذه العملة الاثرية هى التى قادت الى اكتشافهم ..

عثر الناس عليهم وعرفوا انهم ناموا هذه الفترة ..

« وكذلك اعثرنا عليهم » ..

المفاجأة هنا مزدوجة ..

فوجيء الناس أن هناك من نخرج عليهم من وراء ثلاثمائة سنة ليشتري طعاما بنقوده الاثرية ..

وفوجيء الفتية الاولياء أنهم ناموا اكثر من ثلاثة قرون ..

وكانت هذه المفاجأة المزدوجة سبيلا لاكتشاف حقيقه كونية يجهلها كثير من الخلق ..

هذه الحقيقة ان وعد الله حق ..

وعد الله أن ينصر اوليائه ..

وعد الله أن ينصر الخير على الشر .. مهما نفى الشر أسلحته واستعلى وطن أنه الاقوى والأغنى والأبث ..

« وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها » ..

لم تكن كرامة هؤلاء الاولياء قد اثمرت ثمرة واحدة فقط .. كانت هناك ثمار كثيرة في الشجرة ..

عرف الناس أن هناك من نام منذ ثلاثمائة عام وتسع سنين لم استيقظ ..

وعرف الاولياء أن تطورا خطيرا قد حدث في مدينتهم السكافرة ، ان السلطة التي طاردهم بتهمة الخروج على قوانين عبادة الاوثان ، وكانت تعد لهم القتل رجما بالحجارة ، هذه السلطة قد سقطت منهزمة امام المؤمنين بالله .. اسفرت المعركة عن انتصار الخير في النهاية .. لم يشهد اهسل الكهف هذا الانتصار لمقيديهم .. ولكن الأجيال التالية شهدته ..

كان هروبهم الى الكهف هو المقاومة الوحيدة الممكنة في زمنهم لكثرة الكافرين وقلة عددهم .. كانت هذه السلبية هي الحل الوحيد المتاح لهم ، ثم مرت الأيام ، وزاد عدد المؤمنين وحاربوا الكافرين وانهزمت دولة الاوثان وحلت سلطة تؤمن بالله .. وإذا فان المارك بين الخير والشر

محسومة مقدما ومعروفة النتائج مقدما ..

ينتصر الخير وان طال الوقت واستحكم اليأس وراود العقل التفكير  
في الهرب ..

ويتحقق وعد الله بانتصار الخير كما وعد ..

ويعرف الناس ان الحياة والموت والبعث أمور من أمور الله عز وجل ،  
والموت ليس نهاية للحياة .. وليس عدما محضا كما يتوهم الواهمون ،  
انما هو نوم ثلثه يقظة .. ورقود يعقبه بعث .. وها هي كرامة أهل  
الكهف تثبت فيما تثبته حقيقة البعث والنشور ..

فما هو الفرق بين نوم يستمر ثلاثة قرون أو نوم يستمر عسدا  
أكبر من القرون .. ان القدرة القادرة هنا أو هناك هي نفسها قدرة الله  
عز وجل .

.....

حين تتعلق قدرة الله تعالى بشيء ، تخرج قوانين هذا الشيء عن  
طبيعته المعتادة التي خلقها الله ، وتخضع بخروجها لمشيئة الله الطليقة ..  
هو اذاً خروج من الله الى الله ..

حين انشق البحر أمام موسى ، وليس من طبيعة البحر ان ينشق ،  
كان هذا الأمر الخارق خروجاً من قوانين البحار الى مشيئة الله .. وهذه  
المشيئة ذاتها هي التي قضت في الأزل أن يكون البحر بحراً فلا ينشق موجه  
الا بمعجزة ..

وحين احيا عيسى الموتى أمام امين الناس ، خرج هؤلاء الموتى من  
طبيعة الموت التي تقضى بعدم القيام الا يوم البعث ، وكان خروجهم خاضعا  
لمشيئة الله عز وجل ..

وحين نام أهل الكهف اكثر من ثلاثة قرون ، واستيقظوا من نومهم ،  
وليس في الطبيعة البشرية نوم كهذا أو يقظة كهذه ، حين وقع هذا خضع  
أهل الكهف لقانون الخوارق .. وهو قانون غامض يتبع مشيئة الخالق

تبارك وتعالى ..

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد بسط أمام أمين الناس قوانينه في الكون المخلوق ، وأمرهم بتتبع دقائقها واكتشاف حقائقها ودعا إلى النظر والبياسة والتأمل والاكتشاف ، فإنه سبحانه قد أخفى قوانينه التي تتصل بالخوارق وحجبها وراء ستائر السر واقنعة الخفاء العظيم ..

وحكمة ذلك واضحة ، فالخوارق تتصل بمشيئة الله ، وليست مشيئة الله تعالى شيئاً مخلوقاً كالكون وعلاقاته ، إنما هي أمر يتصل بالذات الإلهي ويصدر عنها .. والأسئلة هنا ليست جائزة ..

ولهذا السبب لا نعرف كيف وقعت المعجزات .. لا نعرف كيف أنشق البحر لموسى ورفع الجبل له ، ولا ندري كيف نهض الموتى حين أمرهم عيسى ولا نفهم كيف أهلك الله الكافرين القدامى بالصيحة أو الصرخة ، ولا نستطيع أن نصل إلى القوانين التي حكمت بتدمير أصحاب الغيل الذين هجموا بجيشهم على الكعبة ..

أيضاً لن نفهم طبيعة القوانين التي جعلت قوما ينامون أكثر من ثلاثمائة عام ثم يستيقظون وهم يحسون بالجوع ..  
هذه كلها أمور خارقة ..

هي أسرار من أسرار الله ..

شاء الله أن تقع لحكمة إرادها سبحانه فوقعت كما شاء .. وليس من حق أحد أن يسأل كيف وقعت .. لأن السؤال عن كيفية وقوع المعجزة ، يشبه سؤال الله أن نراه ..

إن إبراهيم هو خليل الله تعالى .. « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » وموسى هو كليم الله تعالى .. « وكلم الله موسى تكليماً » رغم مقام النبيين سأل إبراهيم ربه أن يريه معجزة أحياء الموتى فسأله الله : أولم تؤمن ؟

وسأل موسى ربه الرؤية فقال : لن تراني وامتناع رؤيته معجزة أحياء الموتى كامتناع رؤية الله عز وجل ، لأن المعجزة هنا هي مشيئة الله ..



ورؤية الله تعنى رؤية الذات ..

وكل ما تعلق بالذات والمشيشة والاسرار امور لا يقوى عليها الوعاء  
البشرى ..

« واذا قال ابراهيم رب انى كيف تحيى الموتى قال اولم تؤمن قال  
بلى ولكن ليظمن قلبي قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل  
على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن ياتينك سمعا واعلم ان الله عزيز  
حكيم » ..

اراد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو خليل الله عز وجل ، ان  
يبلغ قلبه برؤية يد القدرة الخالقة وهى تهدع امرا خارقا كاحياء  
الموتى ..

وساله الله : اولم تؤمن ..

كان الله تبارك وتعالى يعلم ان ابراهيم مؤمن محب ، ولكن الحق يريد  
اقرار حقيقة تتصل بذاته ومشيشته ومجزاله سبحانه ...

هذه الحقيقة هى استحالة رؤية هذا او شئ من هذا لانه ليس شيئا  
وليس كمثل شئ ..

وقد انبعث طلب ابراهيم كما انبعث طلب موسى من حب كبير لله ،  
وعبودية كاملة ، واخلاص عظيم ..

ولكن الامر كان يتصل بذات الله عز وجل او اسراره ولهذا لم ير  
احدهما ما اراد رؤيته ..

امر الله ابراهيم ان يقطع اربعة من الطير ويفرق اجزائها على الجبال  
ثم يدعوها اليه .. فتاياه مستيقظة من الموت والدبح .. لو افترضنا ان  
ابراهيم نفذ ما امره الله به .. فما الذى سراه ..

هل يرى السر ؟

هل يرى سر بعث الموتى من الموت .. ويعرف القانون الخارق الذى  
سيطر على هذه المنطقة الغامضة ؟

لم ير شيئا ، لان اقبال الطيور نحوه مستيقظة من الموت لا يضع عقله

على اسرار معجزة البعث ..

ايضا كان جواب الله عز وجل لموسى مماثلا .. طلب موسى الرؤية ..  
وطلبها في موقف حب عظيم ..

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب ارني انظر اليك قال لن  
تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى  
ربه للجبل جملة دكا وخر موسى صعقا ، فلما افاق قال سبحانك تبت اليك  
ولنا اول المؤمنين » ..

افهم الله تعالى موسى ان طلبه الرؤية مستحيل ، ولكي يرفق بحبه  
الذي دفعه للتجاوز وطلب الرؤية ، امره ان ينظر الى الجبل ، ثم تجلى الله  
على الجبل .. واندك الجبل واستحال ترابا ، وخر موسى صعقا ومات  
.. مثلما خر سليمان ميتا ، استخدم النص القرآني تعبير « خر » للدلالة  
على الموت ، وكانت اول كلمات رددتها شفתי موسى حين بعث من الموت  
قوله : « سبحانك .. تبت اليك » ..

ادرك موسى ان الانسان المخلوق من تراب لا يقوى على الصمود لنور  
الله ..

وتاب موسى من طلبه الرؤية ..

كان يتوب من تصويره ان انسانا — كائنا من كان — يستطيع وهو ابن  
الفناء المخلوق من تراب ، ان يعاين انوار الجلال الاقدس ..

تتصل مشيئة الله تعالى ببلاده ..

وتظل اسرار الله تعالى اسراراً ، سواء منها ما تعلق بمعجزة احياء  
الموتى او شق البحر او نوم يمتد ثلاثة قرون ..

.....

كانت الخارقة التي وقعت لاهل الكهف كرامة للفتية الذين هجروا  
مجتمعهم ، وكانت في نفس الوقت معجزة ماينها الناس بعد ثلاثة قرون

وتسع سنوات ..

وادرلك هؤلاء واولئك ان وعد الله حق ..

ادركوا ان نصر الله تعالى لعباده حق ..

وذهبت دهشة المفاجأة وغرابة الصدمة ..

وعاد أهل الكهف الى الكهف ..

تسللوا الى الموت بهدوء كما تسلل احدهم الى القرية ليشتروا طعاما بهدوء ..

لم يمد لحياة أهل الكهف معنى ..

كانت حياتهم حتى الآن معجزة شاهدها الناس ، انتهى الوقت المحدد لحياتهم في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض ..

ومات الفتية الذين آمنوا بربهم وزدناهم هدى ..

هجروا مجتمعهم بكل ما فيه من علاقات وأصدقاء وأقارب وأعداء ، وعادوا الى مجتمع لا علاقة لهم به ولا قرابة لهم فيه ولا أصدقاء ولا أعداء .. عادوا كأبطال الأساطير ..

خرجوا في السر خائفين على دينهم ، ودلفوا الى الكهف في صمت خشية ان يراهم أحد ، كانوا يخشون سرا دون ان يعرفوا ، أو كانوا هم انفسهم السر المختبى- الذى سيظهر بعد ثلاثة قرون وتسع سنوات ..

بعد ان ظهر السر واكتشفه الناس عاد للاختفاء ..

يعبر السياق القرآنى على نهايتهم ، ويضع القارئ امام موتهم ..

نعرف أنهم ماتوا من اختلاف الناس في أمرهم ..

« اذ يتنازعون بينهم امرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم اعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لننتخلن عليهم مسجدا » ..

انتهى الامر الخارق وبدأت ترثرة الناس فيما لا قيمة له ..

« سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بمنتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم احدا » ..

اختلف الناس في عددهم ..

واختلف اهل الكتاب في عددهم ..

وقيلت اشياء كثيرة .. كانت كلها رجما بالغيب ولا تستند على اساس صحيح .. وليس لعددهم اى قيمة .. الا قيمة الفضول البحت ، وذلك امر لا يعبا به عقل جاد ..

ما قيمة عددهم ..

ان المعجزة قد تحققت بوقوع ما وقع لهم ..

ولن يريد العدد فى كمال المعجزة شيئا ولن ينقص العدد من كمالها شيئا ..

تجاوز القرآن الكريم عن عددهم بامر بدم المراء والجدل والسؤال .. سؤال اهل الكتاب ..

وفى هذا المجال .. حيث لا زال الجو نديا بأصداء الكرامة المعجزة .. أحال النص القرآنى كل تصرفات الانسان على مشيئة الله .. حتى ما يريد الانسان فعله غدا ، ذلك شىء لا يقع الا بعد مشيئة الله .. هذه الاحالة على طلاقة المشيئة الالهية هى العمق الذى يكشف عنه البعد النهائى للقصة .

ولا قيمة لشيء بعد ذلك كالعدد او الاسماء او التفاصيل ..

« ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشعا » ..

بعد بيان حقيقة التسليم والدعاء .. ذكر القرآن الكريم عدد السنوات التى قضاها اهل الكهف فى كهفهم ، لان العدد هنا جزء له دلالة فى المعجزة التى وقعت .. بل هو لب المعجزة ذاتها ..

« ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله اعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض ابصر به واسمع ما لهم من دونه من وفي ولا يشرك في حكمه احدا » ..

انتهت قصة اهل الكهف ..

انتهت بالتوحيد ..

توحيد من له غيب السماوات والأرض من له أسرار السماوات والأرض ..

.....

ليست مصادفة أن القرآن لا يحدثنا عن أسمائهم وعددهم .. كانوا جزءا من سر الله ، وعلى السر أن يدثر نفسه جيدا فلا يكشف إلا هبرته ..

ليس اهل الكهف هم وحدهم أولياء الله الذين يذكرهم القرآن بغير أسماء ..

في القرآن آيات تتحدث عن أحد أولياء الله ..

لا تذكر الآيات له اسما ، وإنما تذكره بصفته ..

« ذو القرنين » ..

والصفة تزيده غموضا وسرا ..

وهو صورة مقابلة لصورة اهل الكهف .. كان اهل الكهف مغلوبين على أمرهم فارين بدينهم .. أما ذو القرنين فهو حاكم يقضى بين الناس وحكمه بلا استئناف ..

ورد ذكر ذي القرنين في سورة الكهف بعد قصة موسى والعبد الرباني الصالح الذي لم يستطع موسى أن يصبر عليه ..

« ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . أنا مكنا له في الأرض وأتيناه من كل شيء سبيبا . فاتبع سبيبا » ..

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، ويبدو ان السؤال صدر ممن سمع عنه من اهل الكتاب . ويبدو ان قصته كانت معروفة لاصحاب الكتب القديمة ، ويبدو ان الاساطير كانت قد لعبت دورها في القصة ، واورد الله تبارك وتعالى قصة ذى القرنين في ١٦ آية من سورة الكهف ، وبدأت الآيات ببیان ان الله مكن له أسباب الحكم والولاية .. وسنرى انه منح حرية مطلقة ليعذب أو يعفو ، ولكنه اختار العدل الذى قامت عليه السماوات والأرض ..

« حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا » ..

يمنحه الله تعالى الحكم المطلق .. ويكل الى مشيئة ذى القرنين ان يختار ما يريد .. ما الذى اختاره ذو القرنين ؟ ماهو القانون الذى اختاره ولى مطلق الحرية وحاكم لا رد لقوته أو حكمه ..

« قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعطيها عذابا نكرا . واما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من امرنا يسرا »  
اختار ذو القرنين قانون الشريعة .. من ظلم فسوف يعذب .. ومن آمن وعمل صالحا فله الثواب والطمأنينة .

هذا حكم الشريعة .. واجمل ما فى الحكم انه يتفق مع حكم الحقيقة .. فحين يموت من يموت ويبعث الموتى ويردون الى الله ، فسوف يعذب الله من ظلم ويثيب من آمن ..

حكم ذو القرنين بحكم الله عز وجل ..

رغم حرите فى ان يحكم فيهم بما يشاء ..

كان مطلق المشيئة . ولكنه قيدها بمشيئة الله عز وجل وعدله .

وهذه هى الولاية ..

وتمضى قصة ذى القرنين ..

« ثم اتبع سبيبا . حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم

لم نجعل لهم من دونها سترا . كذلك ولقد احطنا بما لديه خبرا . ثم اتبع  
سببا »

وصل ذو القرنين الى مكان مجهول يرجحه العلماء بأنه خط الاستواء  
حيث تشتد حرارة الشمس ويعيش الناس وسط غابات حارة فلا يطيقون  
ارتداء الملابس ( لم نجعل لهم من دونها سترا .. اشارة الى عريهم ) .

وحكم ذو القرنين هذا المكان كما حكم المكان الاول .. ويؤكد النص  
القرآنى ان الله قد احاط بما لديه خبرا ..

بمعنى ان الله تعالى كان محيطا باخباره عالما بأسباب قوته ممدا له  
بهذه الاسباب ممكنا له من الملك على كل حال ..

لم تزل رحلة ذى القرنين مستمرة ..

وصل بين السدين ..

« حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون  
قولا » .

من اغرب العبارات التى ترد فى قصة ذى القرنين هذه العبارة ..  
ما الذى تعنيه ؟

حدثهم ذو القرنين عن الحق والباطل ، فوجدهم لا يستمعون اليه ..  
او يستمعون اليه ولا يفهمون حديثه .. او يستمعون اليه وهم مسجونون  
وسط خوف يمنعهم من الاستماع اليه او تأمل كلماته .. كانوا يتعرضون  
لفزو دائم من جيرانهم . وهم يأجوج ومأجوج .. لا احد يعرف اين وقعت  
احداث القصة ..

ولا احد يعرف من هم يأجوج ومأجوج ..

يتجاوز القرآن عن الاسماء والأماكن والمعلومات التى لا تقدم ولا تؤخر  
الى عمق القصة وغرضها الاصلى .

« قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل  
نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكنى فيه ربي

خير فاعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما .

لجأوا الى ذى القرنين بموضوع واحد .

طلبهم للحماية من ياجوج وماجوج . . واجابهم ذو القرنين الى  
ماسأله . .

وافهمهم انه سيجعل بين الجبلين حاجزا يمنع ياجوج وماجوج من  
الهجوم عليهم او اختراقه . .

واستجابة ذى القرنين لهؤلاء الذين لا يكادون يفقهون قولا ، معنى ان  
الرفق كان جزءا مرادفا من حملة ذى القرنين ، العدل والرفق . كما اراد  
الله ان يكشف على يدى ذى القرنين ان الحماية من الله وان الطمانينة منه ،  
وان الاسباب كلها منه « قال ما مكنتي فيه ربي خير » .

برد ذو القرنين القوة الى الله . .

ويشير في نفس الوقت الى قانون الأخذ بالاسباب . وهو قانون لازم  
للحياة على الارض . .

« فاعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما » . .

وبدا تنفيذ السد . . قال ذو القرنين : « آتوني زبر الحديد حتى اذا  
ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتوني افرغ عليه  
قطرا فما استطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا » . .

استخدم في صنع السد قطعا من الحديد الكبيرة : واشعلت النار  
تحتها حتى تحول الحديد الى نار واحمر مثلها ، وافرغوا عليه النحاس  
المصهور فصار قطعة واحدة يستحيل اختراقها .

وانتبت ذو القرنين لهؤلاء القوم ان السد قد انتهى . . ولن ينقبه احد  
او يخترقه احد او ينفذ منه احد . .

حين انتهى ذو القرنين من بناء السد . . قال كلمته في الولاية . . واحال  
الامر كله الى مشيئة الله العليقة ووعده الحق .



« قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكا وكان وعد ربي حقا » هذا عمق القصة البعيد ..

ان وعد الله حق ..

ترد هذه العبارة الموحية في قصة اهل الكهف .

« وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق » .

وترد العبارة في قصة ذى القرنين « وكان وعد ربي حقا » ..

ورعد الله تعالى هو عمق الولاية البعيد .

شيء مؤكد ان الولي انسان موصول القلب بوعد الله ..

انه يصدق هذا الوعد ابتداء .. ويسعى في تحقيقه انتهاء ، ومن تولاه الله جعله سببا من اسباب تحقيق وعده ، وأجرى على يديه أسراره .. واذا فان الانسان حين يختار لنفسه ما شاءه الحق عز وجل .. يتحول الى الولاية ..

هذا قانون الولاية الحاكم ، اما عمقها البعيد فيتمثل في التوحيد .. وقد اورد القرآن الكريم اكثر من قصة لاكثر من ولي من اولياء الله ، وراينا هؤلاء الاولياء يختلفون في كثير من التفاصيل والسمات كما يختلفون في حظهم من الغنى والفقر ، ولكنهم جميعا صدوا من تبع واحد .. هو توحيد الله جل شأنه ، والسعى في تحقيق وعده .

كان استاذ موسى عالما بأسرار الحق .. ولم تكن تعرف هل هو غنى ام فقير ، واغلب الظن ان مركزه المالى كان غامضا كتصرفاته وان بات مع موسى بغير عشاء حين ابت القرية ان تضيفهما .

وكان اهل الكهف فتية من الشباب المؤمن ، واغلب الظن انهم كانوا متوسطى الحال ، او كان معهم ما يكفى لاطعامهم حين نهضوا من نومهم في الكهف .. لانهم ارسلوا احدهم بورقهم ليشتري طعاما .

وكان ذو القرنين ملكا حاكما في الأرض . وأغلب الظن انه كان غنيا ،  
فسياحته في الأرض وقدرته على الفتح والحرب تعنى قدرته على الانفاق .

ولقد مر السياق القرآني في القصص السابقة مروراً عابراً على حظ  
هؤلاء الأولياء من الفنى والفقر .. لأن هذا الموضوع لم يكن له دور بارز  
في القصة أو اثرها الموحى .

ثم ها هو السياق القرآني ينقلنا في قلب قضية الفقراء والأغنياء بقصة  
رجلين ..

أحدهما فقير فقير ..

وثانيهما عظيم الثراء ..

القصة في سورة اهل الكهف .. ومعظم قصص الأولياء في هذه السورة  
.. والقصة تصور لنا حواراً بين عقليتين ، عقلية رجل فقير ولكنه من أولياء  
الله ، وعقلية رجل نظر في ثرائه فاستكبر وظن ان البعث وهم والحساب  
أسطورة ..

« واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما  
بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً  
وفجرتا خلّالهما نهراً » .

أحد الرجلين فقير ..

والثاني غنى يملك حديقين بديعتين ، فيهما زرع وأعناب ونخيل وبهر  
.. يرسم الله تعالى صورة لثراء قد استغنى بنفسه عن غيره : ان الماء  
موجود : فالنهر يجري خلال الجنتين ، والشمس كائنة ، والتربة خصبة  
.. وكل شيء يؤكد دوام هانين الحديقين الى الأبد .

« وكان له ثمر » ..

كان شديد الثراء .. يرمر الثمر هنا الى وعرة الثراء ، ويرمز الى  
ار الحديقتين ثلثاً من حقائق الفاكهة . ولم يرل حقائق الفاكهة اعلى

الحدائق فى العالم ، ولم يزول كسبها اعلى كسب فى الارض الزراعية ..  
كيف يفكر صاحب الجنتين ..

وكيف يفكر الرجل الذى لا يملك شيئا .

« وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره انا اكثر منك مالا واعز نفرا » .

المتكلم هو الفنى ، والمباراة التى يقولها تكشف عن شخصيته من اللحظات الاولى .. فهو رجل شديد الكبرياء ..

.. انا اكثر منك مالا واعز نفرا .

يريد ان يقول لصاحبه المؤمن انه افضل منه . او يرى انه افضل منه ..  
لقد نظر فى ثرائه وحكم لنفسه بالافضلية .

الكبرياء هو الخطيئة الاولى لصاحب الجنتين ..

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما اظن ان تبديد هذه ابدا »

دخل الحديقة ونظر فى خضرتها وثمارها واحس بالزهو .. وادلى باول تصريح من تصريحاته الحمقاء ..

قال : ما اظن ان تبديد هذه ابدا ..

ظن ان هذا الثراء لن يزول ابدا ، تصور انه سيبقى الى الابد ثريا ،  
نسى ان اسباب الثراء والفقر بيد الله عز وجل .. توهم ان اسباب الثراء  
بيده هو ..

حين وصل الى هذه النتيجة ، لم يعد مؤمنا ..

خرج من الايمان ودخل خيمة الكفر ، ومن المنطقى اذا ان ينكر البعث  
والساعة والحساب وكل اصول الايمان ..

« وما اظن الساعة قائمة »

مسألة الساعة والبعث مسألة يظن انها وهم ..

« ولئن رددت الى ربى لأجلن خيرا منها منقلباً »

حتى لو افترضنا جدلاً ان هناك بعضاً ، فعندما يبعث صاحب الجنتين .  
فسوف يراعى وضعه كرجل غنى ، وسوف يجد جنتين افضل من جنته  
هناك ..

نحس بأثر السخرية فى كلمته .. ونحس بكبريائه العظيم امام ثرائه  
الابدى .

استمع صاحبه الفقير الى كلماته واقشعر بدنه .. ان ما يقوله صاحب  
الجنتين كفر .. وبدا صاحبه يحاوره .

« قال له صاحبه وهو يحاوره اكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من  
نطفة ثم سواك رجلاً » .

انهم الرجل الفقير صاحبه الفنى ان ما يقوله كفر .. ولفت نظره  
برفق الى معجزة خلقه من تراب ثم من نطفة ، وقام بتأنيبه فى كلمته الاخيرة  
« ثم سواك رجلاً » ، وكأنما اراد ان يقول له ان الرجل لا يقول ما تقول ..

ان الرجولة التى تنسى اصلها الترابى ، او تنسى انها نطفة ، او تتعالى  
على خالقها .. ليست رجولة ..

« لكن هو الله ربى ولا اشرك برى احداً » ..

اعترف الفقير بعبوديته لله .. وتوحيده له . وفراره من الشرك ..  
اى شرك ..

هل كان الفنى مشركاً .

توحى الايات القرآنية ان الفنى كان مشركاً ، فهل كان يعبد آلهة وثنية  
يعتقد انها هى التى حمت جنتيه ؟ ام كان مشركاً حين نسب الفنى الى  
نفسه وتصور انه باق الى الابد ربما تحقق السببان فى حقه ، وربما اكنفى  
بأحدهما ، وكلاهما شرك عميق .

« ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله » ..

يعلمه الفقير هنا اصول الايمان وآداب استغبال النعمة .. حين تدخل  
حديثك أو منزلك أو عملك أو كل ما هو مصدر رزق لك .. فعليك أن  
تقول :

**ما شاء الله لا قوة الا بالله ..**

بمعنى أن هذه مشيئة الله ، ولا قوة الا بالله ..

تنبع القوة من الله .

هو سبحانه مصدرها ..

وهو سبحانه القادر على سلبها ..

هذه هي حقيقة القوة ..

بعد هذه الاشارة العميقة الى خالق القوة والغنى والضعف والفقير ..  
عاد الفقير يحاور صاحبه فافهمه ان عليه الا يفتخر بدوام النعمة ، ولئن كان  
الفقير اقل منه في المال والولد ، فعسى الله ان يغيثه ، ولا ينبغي ان يأمس  
الغنى من عاصفة تحيل جنتيه الى خرائب ..

**« ان ترون انا اقل منكم مالا وولدا فعسى ربى ان يؤتىن خيرا من جنتك  
ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً . او يصبح ماؤها  
غورا فلن تستطيع له طلباً » .**

لا شيء في الدنيا ابدى ..

لا شيء على الارض يدوم ..

لا الغنى يدوم ولا الفقر يستمر .. يقلب الله الناس في صور شتى من  
صور الابتلاء .. وليس الفقر والغنى غير صورتين من صور الابتلاء ..

في نفس الوقت الذى كان العبد المؤمن يحدث الغنى الكافر .. اشار  
العبد المؤمن الى نبوءة قاسية تتصل بصاحبه ..

مثل ريح غامض تنبأ المؤمن للكافر بان جنتيه ستصيران الى الخراب  
.. سوف ينزل عليهما من السماء ريح مشثوم يحيل ارض الجنتين الى

صحراء قاسية ، وسيجف ماء النهر ويغيب في شقوق الأرض وتموت حياة  
النبات ..

بعد هذه النبوءة ، ينقلنا السياق القرآني نقلة مفاجئة الى صورة  
الجنة بعد أن تحققت النبوءة ..

### « وأحيط بشمره »

يستخدم التعبير القرآني لفظا له جرسه العسكري . يقول العرب حين  
ينهزمون « أحيط بالجيش » أى حوَصَر الجيش وأحاطه العدو وتحققت  
الهزيمة ..

استخدم القرآن الكريم هذا اللفظ لبيان هزيمة الرجل الذى أشرك  
بربه ..

انتهى الثمر تماما وأبىد .. وتغير حال الكبرياء فصار ذهولا حائرا  
متخبطا يبعث على الضحك .

### « فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى خاوية على عروشها »

المشهد ارض خراب .. نبتت من نفس خراب .. لمة رجل يمشى  
وسط الخراب وهو يخطب كفا على كف ، ويقلب يديه ذهولا وحيرة .. ويكلم  
نفسه مثل مجنون « ويقول : ياليتنى لم أشرك بربى أحدا » ..

اكتشف — والندم يعتصره ويجففه — أنه كان مشركا ، وتمنى لو كان  
مؤمنا .. أدرك أن الثراء الفاحش مع الشرك ينتهى الى الهزيمة والفقر ..  
وعرف أن لا شيء فى الدنيا يعيش الى الأبد ، كل شيء تطحنه دورة الميلاد  
والموت حتى الأرض .. أحيانا تدب فيها الحياة وأحيانا تموت .. أدرك  
أنه فصل نفسه عن قوة الله ومشيتته ، واتصل بما يظن أنه قوته الدائية  
ومشيئته ، وحين فعل ذلك كان قد انهزم .

هزيمة ساحقة كاملة ..

هزيمة لا ينفع فيها نصر أحد أو رثاء أحد أو عون أحد ..

« ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا » ..

بهذه الحقيقة الحاسمة انتهت قصة الرجلين .. الفنى والفقر ..  
انهزم الفنى حين فصل بين غناه وقدره الله الفنى .. وانتصر الفقر حين  
شاءت ارادته ما شاءه الله تعالى لعباده من توحيده والايمان به وعبادته  
سبحانه ..

**« هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا » ..**

نريد أن نتوقف بالتأمل والاستفراق في هذه الآية ..

هنالك الولاية لله الحق ..

هذه هي الولاية ..

هي التوحيد ..

وما وقع من تحقق نبوة العبد الموحد ، كان سرا من أسرارهِ كشفه له  
فراه بعين البصيرة ..

يرى بعض العلماء أن هذا الفقير الذي وردت قصته في أصحاب  
الجنّتين كان وليا من أولياء الله ، ويدللون على ولايته بأنه رأى أمرا لم يقع  
بعد من أمور المستقبل ، وهذا هو الدليل على ولايته ونحن نعتقد أنه ولي ،  
ولكننا نسند رأينا في ولايته الى أمر أخطر من نبوءته بما لم يقع بعد في  
المستقبل .

هذا الأمر هو التوحيد

وصول هذا العبد الى عمق التوحيد وإدراكه المثل في قوله « لكن  
هو الله ربى ولا أشرك به أبدا » .

هذا معنى الولاية الحق ..

والدليل على قولنا قول الله مبارك وتعالى في نهاية القصة .. « هنالك  
الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا » ..

يشير النص القرآنى الى أن الولاية الحقيقية هي التوحيد .

ويسند استقراء القرآن هذا الفهم .. أيضا تؤكد السنة .. كما

يهدى اليه فقه اللغة العربية ..

كل آيات القرآن تؤكد أن الولاية هي الوجه الآخر لوحيد الاسلام  
وعبودية الله .

قال تعالى : « **إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » ..

ونفى الخوف والحزن عن أولياء الله يعنى أنهم قد تحصنوا بقلعة  
التوحيد والعبودية الحققة ، وهى قلعة من دخلها أمن كل شيء .. يؤكد  
هذا الراى قوله تعالى : « **فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا  
وعلمناه من لدنا علما** » .

هذا العبد ولى من أولياء الله — قيل انه الخضر — وهو ولى لم يذكر  
النص القرآنى له صفة تقدمه للقارىء أكثر من كونه « **عبدا من عبادنا** »  
ذكر هذه الصفة وحدها والاقتصار عليها ليس مصادفة ، انما هو أمر  
مقصود ، فاصل الولاية الحقيقى هو العبودية لله ..

يقول تعالى « **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** تتنزل عليهم الملائكة  
**إلا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون** ، نحن أولياؤكم  
فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

ويقول تعالى : « **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور** »

وحين يربط القرآن قول من قالوا ربنا الله تم استقاموا .. بالولاية .  
حين يربط القرآن الذين آمنوا بأن الله هو وليهم ..

حين يفعل القرآن الكريم هذا يضع قامدة الولاية وقانونها .

الولاية هي الايمان .. والاستقامة ..

ليست الولاية اذا هي الاتيان بالخوارق .. ليس هذا صفة الولاية  
وليس هذا من خصالها ..

صفة الولاية هي الايمان بالله ..



اما الخوارق فامور قد تقع وقد لا تقع .. وليس وقوعها لازما للدلالة على الولاية ، كما ان عدم وقوعها ليس دليلا على عدم الولاية ..

بهذا الفهم السليم للاسلام تستطيع ان تنفض عن ثياب الصوفية ما علق بها من مبالغات في نسبة الخوارق اليهم ..

اذا كان الايمان والعبودية والعلم بالله من صفات الولاية ، فما هو معناها .

يدق كثيرا معنى الولاية ..

اذا ذكرت عن الله عز وجل انصرف معناها الى الربوبية والحراسة ان عبارة « **الله ولي الذين آمنوا** .. » تعنى الله رب الذين آمنوا وحارسهم واذا ذكرت الولاية عن الانسان انصرف معناها الى العبودية والتوكل فاذا التفت مشيئة العبد بمشيئة الله عز وجل صار العبد وليا من اولياء الله ..

والطريق الى معنى الولاية يمر بطاعة الله عز وجل .. او بمعنى اصح يبدأ بطاعة الله تعالى .

ورك في الحديث القدسي الكريم قوله « **من عادى لى وليا فقد اذنته بالحرب وما تقرب الى عبدي بشيء احب الى مما افترضت عليه . وما يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها** » الى آخر الحديث

من معانى الحديث أن اولياء الله محروسون برعايته ، فمن عادى وليا لله حاربه الله ، ومن معانى الحديث ايضا ان الولاية تعنى القرب من الله ، وقد حدد نص الحديث القدسي أسلوب القرب من الله بأنه اداء النوافل ، وفي الاسلام لا تؤدي النوافل الا بعد الفرائض ، فمن ادى الفرائض والنوافل فقد تقرب الى الله ، بعد هذا القرب تجيء درجة الحب .. يحب الله تبارك وتعالى هذا الولي ..

فاذا احب الله عبدا صار يسمع بالله ويبصر بالله ويطش بالله وسير

بالله ويميش حياتها كلها لله وبالله .

وفي السنة النبوية قصة توضح معنى الولاية .

وردت القصة في البخاري في كتاب بدء الخلق في فصل حديث الفار .

حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ثلاثة اشخاص ممن كان قبلنا كانوا يسرون فسقطت الامطار فهرعوا الى كهف فسقطت صخرة ضخمة من الجبل فسدت عليهم الكهف ..

واذكروا انهم حوصروا فقال بعضهم لبعض :

« انه والله يا هؤلاء لا ينجيكم الا الصديق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم انه قد صدق فيه » .

نريد ان نلاحظ تصوير الصديق كمقيار للنجاة في الحياة . بعد هذه العبارة بدا كل واحد من الثلاثة يحكى حادثا صدق فيه ايمانه بالله . وحكم نصرافته هذا الايمان بالله .

قال احدهم انه كان يستاجر رجلا للعمل عنده . فذهب هذا الرجل بعد ان ترك عنده نصف كيلة من الارز ، فزرع المالك الارز وجمع المحصول وباعه واشترى بثمنه ابقارا ، واناها الرجل الاجير يطلب اجره فلم يعطه نصف كيلة من الارز ، وانما اعطاه ابقاره . وقد فعل ذلك حساسية وخشية من الله ان يظلم احدا من خلقه .

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا فانساحت عنهم الصخرة » ..

وحكى الثانى انه كان له ابوان شيخان كبيران فكان ياتيها كل ليلة بلبن غنم له ، فأبطا عليهما ذات ليلة فجاء فوجدهما قد ناما ، ووقف بانه اللبن حتى استيفظ ابواه في الفجر وشربا ، وكان له عيال جوعى استغاثوا به نرفض ان نسعى ابناؤه الا بعد ان يشرب والداه ..

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا . فانساحت  
عنهم الصخرة » ..

وحكى الثالث انه كان يحب ابنة عمه ، وراودها عن نفسها ، فابت الا  
ان يعطيها مائة دينار ، فاحضر اليها النقود ودفعها اليها ، ثم هم بها  
فذكرته بتقوى الله فالصرف بغير ان يعتدى عليها ناسيا نقوده .

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ففرج الله  
عنهم فخرجوا » ..

.....

يحكى هذا الحديث النبوى قصة الامر الخارق الذى وقع لثلاثة لجاوا  
الى غار فسقطت صخرة سدت عليهم باب الغار ..

ومن المدهش ان بعض المسلمين قراوا هذا الحديث من نهايته ، او  
قراوه ولم يفهموا الا السطر الاخير فيه .

السطر الذى يتحدث عن انسياح الصخرة ودحرجتها ونجاتهم .  
وهذه القراءة الناقصة للاحاديث النبوية هى السر المستول عن عدم  
فهمنا لمعنى الولاية ، او عن خلطنا بين الولاية والخوارق ..

نحن امام عمل ادى الى نتيجة ..

كيف نلتصق النتيجة بغير اداء العمل .

ان الفعلة الاولى فى الحديث النبوى تعطى صورة للأمانة الانسانية  
المطلقة ، وهى امانة تتصل بالشئون المالية ، حيث يميل الانسان عادة مع  
هواه ويؤثر ان يظلم غيره ، ولو ان صاحب المال اعطى العامل ما كان له  
من الارز لما كان ظالما ، ولكنه اراد ان يكون صادقا فاعطاه ما صار اليه الارز  
الذى كان له ..

اما القصة الثانية فتقدم صورته للبر بالوالدين ، وهى صورة تبلغ الدروة فى احسان البر بالوالدين ، ولو ان هذا الرجل الذى وقف بالبر حتى جاء الصباح فى انتظار ان يشرب والداه . لو انه سقى اولاده الجائعين قبل ابويه لما كان ظالما ، ولكنه اراد ان يكون صادقا فى البر بوالديه فسقامها أولا .

اما القصة الثالثة فتقدم صورة للعفة الانسانية ، فى البدء نحن امام خطيئة تتهيا للوقوع ، ولكن كلمة واحدة عن تقوى الله توقف المخطيء وترده الى الصواب وتذكره بالله فىصرف بغير ان يرتكب خطيئته .

لو تجاوزنا سطح المعنى فى القصة فسرى انها رمز للامانة والبر بالوالدين والعفة .. وهى ثلاثة اضلاع لثلث لا يكون الايمان ايمانا بغيره ، ولا يكون الاحسان احسانا بغيره ..

ولقد وقعت الامانة والبر والعفة .. خشية من الله تعالى ومراقبة له وجبا فيه سبحانه .. « فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا » ولم يكن انسياح الصخرة ونجاتهم الا لانهم صدقوا فى خشية الله .. هذا هو مضمون الولاية الحقيقى ..

خشية الله عز وجل ..

وهذه الخشية ثمرة العلم .. قال تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » .

هذا المستوى هو الجدير بان نتوقف عنده ونأمله ..

المستوى الذى يظهر فيه سلوك الانسان المؤمن ..

اما مستوى العجائب والخوارق فنتيجة تترتب على السبب ، ومن الظلم للعقل ان تسقط السبب ونتوقع النتيجة ، او ننظر فى النتيجة ولا ننظر فى السبب ..

ولقد رأينا كيف حرص القرآن الكريم وهو يقص اخبار الاولياء على  
اخفاء اسمائهم واخفاء امكنة وجودهم وتذليلهم بسر الخفاء ..  
ونفهم من هذا ان العبرة بمضمون الولاية لا باسماء الاولياء .. كما  
ان المهم هو خشية الاولياء لله لا الخوارق التي يجريها الله على ايديهم ..  
والحق ان اهم معنى للولاية هو الصدق مع الله ..  
ومن المدهش ان يمتد الضباب لهذا المعنى فلا يبقى من الولاية في  
عصرنا - بين عامة المسلمين - الا معنى الكرامة الممثل في الخوارق  
والمجائب ..

.....

ما هي الكرامة التي تقع لاولياء الله ؟  
وما الفرق بينها وبين المعجزة ؟  
وكيف ينظر كثير من المسلمين اليوم لكرامات الاولياء ؟





لماذا اخترت كلمة البحر تعبيرا عن الحب .. هل هو الولع بالأسرار  
الكامنة في مياه البحر .. أليس الماء أصل كل شيء حي ..

قبل أن يبدأ البدء أو يكون الكون ..  
قبل أن تصفع الشمس ظلالها على الأرض ..  
قبل أن تخلق الأرض من انفجار كوني أو إبتسامة كونية نتيجة أمر  
يتألف من حرفين ..  
قبل أي قبل ..  
كان الله ولا شيء مع الله ولا شيء قبله ..



الستيل بالفيالرو لإلكندرية  
و مؤسسة لغاري ببيروت



To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)